الخليفة الراشد
أبو بكر الصديق رضى الله عنه

أولا: الخلافة الإسلامية

معنى الخلافة:

اختصت الدولة الإسلامية بنظام سياسي خاص، لم تسبقها إليه أي دولة من الدول التي كانت قائمة في تلك الفترة من العصور الوسطى، وهو نظام الخلافة، فقد عرف العالم أنظمة سياسية متعددة مثل الملكيات والإمبراطوريات والإمارات وغيرها[1]، إلا أن دولة الإسلام كانت قد استنبطت من مبادئها وقيمها نموذجا مختلفا، تقوم دعائمه الأساسية على خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في حكم المسلمين، وتوجب على من يقوم في هذا المقام أن يسير على نهج وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحكم بوسطية الإسلام التي أرسى قواعدها النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يكون الاجتهاد في المعطيات المستجدة في استنباط الأحكام من القرآن الكريم والسنة النبوية، كل هذه المعطيات أعطت نظام الخلافة الإسلامية ميزات فريدة خاصة بهذا النظام الذي لا يخرج في أصوله عن كتاب الله ﷻ وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبما أن الإسلام قد جاء ليقيم الدين الحنيف، ويبني الدولة الإسلامية على منهاجه وفي إطار أصوله، فقد حرص المسلمون على أن يتحركوا وفق هذه القواعد وتلك الأصول، ولا يعني هذا بحال من الأحوال جمود الفكر السياسي الإسلامي، وإنما يعني أن هناك ضوابط تحكم هذا النظام الذي ولد بميلاد الدولة، وقد قعدها القرآن الكريم، وسنة نبي الله صلى الله عليه وسلم، وعمل بها السلف

([1]) عفاف صبرة: دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين،، مكتبة الرشد السعودية، في ٢٠٠٣م، ص ١٥.

عند وضعه للدعامات الأساسية لبناء الدولة الإسلامية السياسي[١]، ومن هنا ظهرت مصطلحات اعتبرت دعائم أساسية لأول نظام سياسي قام في الدولة، وهو نظام الخلافة، وهذه المصطلحات هي، الشورى، والإجماع، والبيعة.

الخلافة في اللغة:

هي أن يخلف شخص من قبله أو أن يخلف من بعده، قال أبو بكر الرازي[٢] خلف فلان فلانا إذ كان خليفته، ويقال خلفه أي جاء بعده ومنه قوله تعالى: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾[٣]، وتجمع كلمة خليفة على خلفاء مثل ظريف وظرفاء، وايضا تجمع على خلائف مثل كريمة وكرائم[٤].

ولقد وردت في القرآن الكريم كلمة خليفة وخلفاء وخلائف كما في الآيات الكريمة التالية:قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَفَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٥].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦].

---

(١) فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م، ص ٢١.

(٢) أبو بكر الرازي: مختار الصحاح، تخريج وتعليق مصطفى ديب البغا، بيروت ١٩٨٧ م ص ١٢٦ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

(٤) ابو بكر الرازي، ص ١٢٦ .

(٥) سورة النور آية ٥٥ .

(١) سورة الأنعام آية ١٦٥ .

قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2].

الخلافة في الاصطلاح:

الخلافة هي الإمامة، وقد عرفها الماوردي فقال: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم"[3].

كما عرف ابن خلدون الخلافة بأنها: "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"[4].

لذا فالخلافة كما يتضح من تعريف الماوردي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم أي أن الخليفة يجمع بين يديه السلطتين الدينية والسياسية، الدينية باعتباره إماما للمسلمين يؤمهم في الصلاة، ويسهر على تطبيق العدالة والإنصاف حسب مقتضيات الشرع ويحمي الدين ويدفع عنه خطر الخارجين.

---

(٢) سورة الأعراف آية ٦٩ .

(٣) سورة الأعراف آية ٧٤ .

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، د.ت، ص ٥ .

(٥) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، بيروت ١٩٨٤ م ، ص ١٩٠ .

والدنيوية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الدنيوية من تحصين الثغور وحماية ديار الإسلام كما يقوم بجباية الفيئ والصدقات وفق الشريعة الإسلامية، كما يقوم بتقدير العطايا وما يلزم بيت مال المسلمين، فضلا عن أنه يقوم باختيار وانتقاء الولاة ممن يصلح لإدارة ولايات الدولة الإسلامية، أي أنه يقوم بمباشرة أمور الأمة الإسلامية، والقيام على مصالحها بنفسه، أي أن الخليفة هو رئيس ديني وزمني له الطاعة التامة على جميع المسلمين في كل أمورهم الدينية والدنيوية.

ولقد استحدث نظام الخلافة في الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وانقطاع الوحيّ بوفاته شعر المسلمون بالحاجة إلى من يقوم على أمرهم ويجمعهم على كلمة سواء، خاصة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحدا من بعده، وترك الأمر شورى للمسلمين يختارون من يصلح لحكمهم، ويختارون النظام السياسي الذي يلائم ظروفهم على مر الأزمان، ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو وضع نظاما معينا لالتزم به المسلمون وما استطاعوا أن يخالفوه حتى لو لم يلائمهم فكأنه صلى الله عليه وسلم كان لا يخاطب عصره فقط، ولكنه كان يخاطب المسلمين على مر الزمان، لذلك لم يحدد صلى الله عليه وسلم نظام الحكم، ولا صفات الحاكم، ولكنه تركه شورى بين المسلمين، ليختاروا ما يواكب ويناسب عصرهم وزمانهم[١].

---

[١] منى سعد محمد الشاعر : الخلفاء الراشدون، دار الكتب المصرية، ٢٠١٤ م، ١٢ ، ١٣ .

البيعة:

وارتبط بمفهوم الخلافة البيعة، والبيعة كما عرفها ابن خلدون "هي العهد على الطاعة"[١]، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم إليه النظر في أمر نفسه، وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر ، ويستطرد ابن خلدون فيبين كيف كانت تتم البيع فيقول" وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث ببيعة صلى الله عليه وسلم في ليلة العقبة وعند الشجرة، وحيثما ورد هذا اللفظ، ومنه بيعة الخلفاء"[٢].

ويتضح من هذه الرواية أن البيعة كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعهد الخلفاء الراشدين شفهية تتم بالمصافحة باليد، وقد كان ذلك في بيعتي العقبة الأولى والثانية، وبيعة الرضوان، وقت الحديبية، وبيعة المسلمين من المهاجرين والأنصار لأبي بكر الصديق رضى الله عنه، فقد قال عمر لأبي بكر حين أراد أن يبايعه مد يدك أبايعك[٣].

وهذا يوضح أيضا أن الخلافة لا تكون صالحة إلا بعد بيعة الناس للشخص الذي تتوفر فيه شروط الإمامة أو الخلافة التي اعتمدها الفقهاء والعلماء

سقيفة بنى ساعدة وبيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

أدى موقف أبي بكر الصديق رضى الله عنه المتوازن تجاه موت رسول الله صلي الله عليه وسلم عندما قال مقولته "أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" ثم تلا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٢٠٩ .

(٢) راجع البيعة لعمر بن الخطاب في هذا الكتاب.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة: جـ١، ص ٥٠٩، ٥١٠، الماوردي: الأحكام، ص ٢٥.

عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1] –إلى تهدئة الموقف العام للمسلمين وأخذ الصحابة يرددون الآية الكريمة التي تلاها على مسامعهم أبى بكر الصديق في محاولة منهم إدخال الطمأنينة إلى قلوبهم وإدراك حقيقة ذلك الموقف العصيب الذي ما أنتظره ولا فكر فيه أحد منهم، ولكن مستجدات الأمور كانت لابد وأن تفرض نفسها على مجريات الأحداث في المدينة النبوية المشرفةآنذاك، ولابد وأن يثار ذلك التساؤل؛ من سيخلف رسول الله ﷺ في حكم المسلمين؟.

من المعروف أن عصر الإسلام الأول قد كونت فيه دولة الإسلام في العهد المدني، وعند هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدنية، ففي ذلك العهد والذي تميز عن غيره من العهود المتلاحقة في تاريخ الدولة الإسلامية باعتبار أن رسول الله ﷺ كان الواضع لقواعد الدولة التي يمكن أن نصطلح على تسميتها بعصر النبوة والوحي، حيث تقعدت فيها أصول وقواعد الأسس الصحيحة للدولة الإسلامية، وخاصة بعدما أصبح للمسلمين دولة قائمة في المدنية النبوية، وتحقق لهم السيادة تحت قيادة النبي ﷺ، وتأسيسه للدولة التي بدأت بمرحلة البناء والتشييد، إلى أن أصبحت دولة قائمة ذات سيادة وتأثير سياسي على الجزيرة العربية كلها، ولم يكن دور ذلك العصر يقف عند صورة الدولة فقط، بل أن ذلك العصر شكل عصر القدوة لكل العصور التي تليه وأخذ يشكل بمناهجه وسننه الطريق الأمثل والأقوم، الذي ستسير عليه الأجيال التالية في العصور المستقبلية في حاضر الدولة الإسلامية آنذاك، فهو بلا شك يمثل النموذج أو المثل الكامل التي تتطلع إليه الأنظمة، ولا تختلف عليه الأهواء والآراء مهما حدث من اختلاف بينهما، وذلك لأن تأسيس هذا العصر وتبيان ملامحه كان نتاج طبيعي لوجود رسول الله ﷺ وحكم الوحي الذي كان يشكل المنهج والصورة المثلى التي أرادها الله ﷻ لهذه الأمة الوسط،والتي جعل خاتم الأنبياء والمرسلين إمامها وقائدها

([1]) آل عمران، آية ١٤٤

حيث أضاءت به ظلمات الجهل ودياجير الظلام، والتي كان يرفل فيها العالم آنذاك.

ومن هذا المنطلق وعلى هذا الطريق الأمثل وتتبعا لخطى النبي الأكرم ﷺ كان لابد لصحابته ﷺ، وتبعا لما حدث من مستجدات بعد وفاة رسول الله ﷺ، أن ينظر في أمر من يخلفه، وخاصة أنه طوال عهد رسول الله ﷺ، والأمور في الدولة كلها بكل منعطفاتها ونظمها وأمورها يرجع فيها إلى رسول الله ﷺ، وإذا ما نشأ خلاف بين المسلمين فالرسول ﷺ هو الفيصل فيه، وهو يحكم بينهم بالحق والعدل أي بحكم الله ﷻ وعلى المسلمين السمع والطاعة ﴿ فلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[1]، ولكن الآن الأمر يختلف وقد قُبض رسول الله ﷺ، ولم يوص النبي الأكرم ﷺ، بمن يخلفه ولم يمنعهم حق الشورى، بل أنه ترك الأمر شورى لهم، وكانت أول مظاهر الشورى آنذاك ما أصطلح على تسميته تاريخيا اجتماع سقيفة بني ساعدة، وكما أشرنا أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصبح أمرهم إلى ثلاث شعب، منهم من قام على تجهيز رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أهله وآل بيته، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضى الله عنه وعمه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ومن تبعهم، ومنهم من كان في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المهاجرين، ومنهم من اجتمع في سقيفة بني ساعدة وهم الأنصار الذين التفوا حول سعد بن عبادة رضى الله عنه، وكان لهذه الشُعب الثلاث أن تجتمع على رأى رجل واحد.

لم يعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخلافة لأحد من أصحابه وترك الأمر شورى بين المسلمين، ولقد كان الأنصار أسرع الناس في إدراك مدى مغبة عدم وجود خليفة للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك اجتمعوا في اللحظات الأولى بعد معرفتهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سقيفة

([1]) سورة النساء: الآية رقم ٦٥،

بني ساعدة لتقرير مصيرهم، وفكروا في أن يكون هذا الأمر فيهم، ورشحوا للخلافة رجلا منهم وهو سعد بن عبادة سيد الخزرج[١]، ويبدو أنهم لما اجتمعوا على سعد بن عبادة للقيام على أمر الحكم اختاروه من منطلق النظام القبلي الذي كانوا قد تعودوا عليه من قبل في أن من يتزعم القبيلة من هو الأكبر سنا والأكثر مالا وأولادا، ويتمتع بالمروءة والشرف والكرم، فيمارس سلطاته على أفراد القبيلة، وهي سلطات قائمة على العرف والتضامن والعصبية[٢]، ولكن الإسلام جاء ليقضي على العصبية القبلية، وقد حققها بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يؤسس للدولة الإسلامية، لذلك لم يكن ذلك الأمر ليسير على هذه الطريقة. على أية حال فقد أخرج الأنصار سعد بن عبادة إليهم وكان مريضا ليتحدث في هذا الأمر بين الناس لذلك طلب من ابنه وبعض بني عمه أن يتلقوا منه القول ليسمعوه للناس[٣].

وخطب سعد في الناس قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين، وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب إن محمدا عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن، وخلع الأنداد والأوثان، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله، ولا أن يعزوا دينه، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة، فرزقكم الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت

---

(١) الطبري: ج ٢ ص ٥١٤ ، منى الشاعر: الخلفاء الراشدون، ص ٥٠

(٢) منى الشاعر: السيرة النبوية، ص ٢٣ ، الخلفاء الراشدون ، ص٥٠ .

(٣) الطبري: ج ٢ ص ٥١٤ .

بأسيافكم له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين استبدوا بالأمر دون الناس، فإنه لكم دون الناس"[١].

هكذا يتضح من خطبة سعد بن عبادة. أنه كان يرى أن الأنصار أحق بالولاية للأسباب التي ذكرها في الخطبة، ولقد رحب الأنصار بهذه الخطبة واستحسنوها، خاصة الخزرج،" فأجابوا بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت، نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع، ولصالح المؤمنين رضاً"[٢].

وعلى الرغم أن الأنصار فكروا في الاستئثار بالأمر وأن يكون الحكم فيهم إلا أنهم كما يعبر الطبري "ترادوا الكلام بينهم فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده"[٣].

فالحقيقة أن هذا صوت عقل من الأنصار فقد تذكروا أنهم لم يستطيعوا أن يستأثروا بهذا الأمر دون الفصيل الثاني المكون للأمة من المهاجرين، ولم تغب عنهم هذه الحقيقة، فكان قول القائل منهم : "فإنا نقول: إنا منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا"[٤]، وهذا صوت ضعيف تتحكم فيه العصبية، وفيه تفتيت للأمة الإسلامية، لذلك كان رد سعد بن عبادة نفسه ردا فيه حكمة وعقل عندما قال في التعقيب على هذه الفكرة الضعيفة حين سمعها "هذا أول الوهن"[٥].

ولا شك أن قوله هذا يؤكد على أن من يقوم على حكم الدولة لابد أن يكون قائدا واحدا حتى لا تضعف الأمة ولا تهن، والحقيقة ان هذا الحوار من الأنصار على الرغم ان بعض المؤرخين يعتبر موقف الأنصار هذا في اجتماعهم وتفكيرهم في

---

(١) الطبري: ج ٢ ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

(٢) الطبري: ج ٢ ص ٥١٥ ، منى سعد محمد الشاعر: الخلفاء، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) الطبري: ج ٢ ص ٥١٥ .

(٤) الطبري: ج ٢ ص ٥١٥ .

(٥) الطبري: ج ٢ ص ٥١٥ .

امر من يخلف رسول الله، ومحاولتهم الاستئثار بهذا الأمر من المواقف التي تحسب عليهم في أنهم طمعوا في الإمارة، لكن الحقيقة الواضحة أن هذه حالة صحية سليمة مرت بها الأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان للأنصار السبق في التفكير في مصير الأمة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصا عليها من الضعف والضياع، بصرف النظر عن كونهم فكروا فيها لأنفسهم أم لا، خاصة وأن صوت العقل والحكمة كان دائما يتردد بينهم للوصول إلى خير السبل في هذا الأمر؛ بل أنه من هذا المنطلق تفجرت قضية نظام الحكم في الدولة الإسلامية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان اجتماع الأنصار في السقيفة أول بادرة للتهيأ لنظم الحكم في الدولة الإسلامية. وعندما علم الصديق رضى الله عنه باجتماع الأنصار في السقيفة، فمضى بصحبة عمر رضى الله عنه وأبو عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه مسرعين إليهم، وأراد عمر رضى الله عنه أن يبدأ بالكلام، فأسكته أبو بكر قائلا: "رويداً حتى أتكلم" فتكلم أبو بكر بما أراده عمر بن الخطاب"، فقال عمر:" فما شيء كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أو زاد عليه"[1].

وكان مما قاله أبو بكر في الخطبة التي ألقاها في سقيفة بني ساعدة بعد أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن الله بعث محمدا رسولاً إلى خلقه، وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة، ولهم نافعة وإنما هي من حجر منحوت، وخشب منجور. ثم قرأ: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله)[2] وقال تعالى: (وَقَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لَيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى)[3]، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه،

---

(٢) الطبري، ج ٢ ص ٥١٥.

(١) سورة يونس آية ١٨.

(٢) سورة الزمر آية ٣.

والإيمان به، والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم، وكل الناس لهم مخالف. زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشنف الناس لهم[١]، واجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض، وآمن بالله والرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من عبده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام. رضيكم الله أنصارا لدينه ولرسوله، وجعل إليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تُفْتانون بمشْوَرة، ولا تقضى دونكم الأمور[٢].

لا شك في أن هذه الخطبة الحكيمة من أبي بكر الصديق تبين حسن سياسته ذلك أنه بعد أن بين أحقية قومه في الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه في نفس الوقت لم ينكر على الأنصار فضلهم ووقوفهم بجانبهم و نصرتهم الإسلام، لذلك قال لهم أنتم الوزراء وأن هذا الأمر لم يكن دونكم .

بداية جاءت نظرية الأنصار وكما وردت على لسان سعد بن عبادة رضى الله عنه، أنهم من آووا رسول الله ﷺ، ونصروه، وأن لهم سابقة في الجهاد ورفعة شأن الدين والدفاع عن رسول الله ﷺ، وقد استطاع أبو بكر في حديثه في السقيفة أن يظهر للأنصار قدرهم وقيمتهم بالنسبة لإخوانهم من المهاجرين، هؤلاء المهاجرون الذين وصفهم بصدق الإيمان، فهم أول من صدق رسول الله ﷺ، وصبر معه على شدة البلاء، وبالرغم من استضعافهم في الأرض آنذاك إلا أن ذلك لم يضعف إيمانهم ولم يلين عريكتهم، وهاجروا لله ورسوله تاركين ومخلفين ورائهم ما يملكون من متاع الدنيا وزخرفها زاهدين فيه رغبة في الإيمان والإسلام.

وقد أدرك أبو بكر رضى الله عنه ذلك، عندما بدأ بالثناء على الأنصار عندما بين وجه الحق في كلامه، فكان مما قال: "نحن الأمراء وأنتم الوزراء"،

---

(٣) شنف الناس لهم: أي بغض الناس لهم.

(٤) الطبري: ج ٢ ٥١٥.

ولم ينس أن يذكر بأن الله ﷻ قد قال في محكم آياته واصفا حال كل من المهاجرين والأنصار بقوله: "وأن الله سمانا الصادقين، وسماكم المفلحين، وقد أمركم أن تكونوا معنا حيث كنا، فقال عز من قائل: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، وكانت مقولته الفيصل بعدما اشتد النزاع بين المهاجرين والأنصار وكاد الأمر أن ينفرط عقده، فقال أبو بكر رضى الله عنه بعدما وضح دور الأنصار في الدعوة واعترافه بفضلهم في نصرة وحماية عليه الصلاة والسلام، وجاء قوله: "نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تغنون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور"، وجاء هذا القول فاصلا بعدما ترددت دعوة من الأنصار على لسان الحباب بن المنذر رضى الله عنه عندما قال: "منا أمير ومنكم أمير". ولكن كيف يستقيم هذا الأمر بوجود أميرين على حكم المسلمين، وجاء خطاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أشد لهجة من أبى بكر الصديق رضى الله عنه الذي كان التريث سمته في كل هذه المعطيات، فقد أصر عمر رضى الله عنه أنه لا ينبغي أن يتولى هذا الأمر أحد غير المهاجرين، وكان رده على الحباب فقال: "هيهات لا يجتمع اثنان في قَرَن، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمرهم فيهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة"[2].

وتدخل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه في هذا الحوار فقال: يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من غير وبدل، وهنا تدخل

([1]) سورة التوبة: آية رقم (١١٩)، وكأن أبو بكر أراد أن يذكر الأنصار بقول الله ﷻ في سورة الحشر الآيات ٨،٩ ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{٨} وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ...{٩}...﴾ الآية.

(١) الطبري، ج ٢ ، ص ٥١٥ .

أبو بكر حاسما الأمر، منهيا للخلاف الذي احتدم بين الفريقين، عندما صرح بحديث أن الناس تبع لقريش، وأن الخلافة في قريش، فقد جاء في صحيح مسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع مسلمهم، كافرهم تبع لكافرهم"[1]، ووقف أبو بكر طالبا قيام المسلمين للاختيار ما بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، وهكذا نجده للمرة الثانية الأقدر على حل الموقف الصعب بين المسلمين، ويكون على يديه رأب الصدع وحسم الخلافات بعدما أدخل الطمأنينة على قلوب جميع المسلمين حال وفاة رسول الله ﷺ، وهو هنا وعندما بدأت نوازع الشر ما بين المهاجرين والأنصار، فيكون سببا في حسم الخلاف بمقولته الحاسمة أن الأئمة في قريش.

ولكن كانت رؤية كل من عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأبى عبيدة رضى الله عنه تختلف، فهما يران أن من يصلح لهذا الأمر هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه طالبين منه أن يبسط يده ليبايعانه لأنه أفضل المهاجرين، وثاني اثنين في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، تابعهما في الرأي بشير بن سعد رضى الله عنه، وهو أحد زعماء الخزرج عندما أعلن طاعته للمهاجرين، رافضا منازعتهم هذا الأمر متفقا أن حقهم خلافة نبيهم ﷺ، الذين جاهدوا معه ثلاثة عشر عاما كاملة، ما آمن معه فيهم إلا القليل، وكانوا هم الرعيل الأول الذي ساند الدعوة في مهدها، وقيل أنه

---

(1) الإمام النووي: شرح صحيح مسلم، جـ١٢، ص ٥١٣، عدد الإمام النووي الأحاديث الواردة في ذلك الأمر فهناك رواية تقول "أن الناس تبع لقريش في الخير والشر، وفي رواية "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقى من الناس اثنان"، وجاء في رواية البخاري، "ما بقى منهم اثنان"، ويشير الإمام النووي أن هذه الأحاديث وأشباهها دليل ظاهر أن الخلافة مختصة بقريش، ولا يجوز عقدها لأحد من غيرهم، وعلى هذا انعقد الاجتماع في زمن الصحابة، وقيل أن اشتراط كونه من قريشا هو مذهب العلماء كافة، وذكر أن بهذا الشرط قد احتج به أبو بكر وعمر رضى الله عنهما على الأنصار يوم السقيفة، فلم ينكره أحد.

أول من بايع أبى بكر رضى الله عنه من الأنصار، ثم تلاه في مبايعة السقيفة أسيد بن حضير سيد الأوس، ولعل ما ذكره الطبري في هذا الأمر على لسان بشير بن سعد رضى الله عنه بقوله: "وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم"[١]، وكأن الله جعل الحق على لسان هذا الصحابي الجليل، فقد رأت الأنصار خاصة الأوس أنه لو أفلح الخزرج في اقتلاع الأمر من المهاجرين سوف يستأثرون بالسلطة من دونهم، فما كان منهم إلا أن تابعوا أسد بن حضير في بيعته لأبي بكر الصديق وتزاحم من في السقيفة من الأنصار أوسهم وخزرهم في مبايعة أبي بكر الصديق ﷺ أجمعين، وهي البيعة الخاصة، أما عن البيعة العامة فكانت في اليوم التالي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة[٢].

ويبدو من سياق هاتين الخطبتين الأولى من قبل سعد ابن عبادة الأنصاريرضى الله عنه والثانية من قبل أبي بكر الصديقرضى الله عنه أنهما كانتا من قبيل الدعاية الانتخابية من قبل الفريقين –إن جاز التعبير– خاصة وهم في عملية انتخاب واختيار من يحكم الدولة الإسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي حالة صحية سليمة اتبعها المسلمون في أولى خطواتهم نحو نظم الحكم، وهي طريقة سباقة في وقتها لم تعرفها الأمم من قبل، فقد كان الفرس والروم يتبعون النظام الوراثي في الحكم، ولم يكن عندهم الشورى أو الديمقراطية في الحكم، أما المسلمون فقد اختاروا نظام الشورى، ولا شك أن ذلك كان لابد أن يسبقه شيئ من قبيل الدعاية الانتخابية يتبعها كل فريق لترجح كفة أحد الفريقين،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، جـ٢، ، دار صادر بيروت لبنان، ص ٥١١، ٥١٢.

(١) ابن هشام: ج ٤ ص ٢٧٦ ، السيوطي، ص ٦٥ .

وهو ما تتشدق به الأمم في العصر الحاضر وتعتبر نفسها هي الرائدة في ذلك علما بأن الدولة الإسلامية كانت الرائدة في تأصيل أسس الديمقراطية في العالم ([1]).

ويذكر د. الريس أنه: "ما درى الحاضرون في هذا الاجتماع أنهم كانوا يعقدون أهم اجتماع (أو مؤتمر) في تاريخ الإسلام كله، وما أشبهه بجمعية (وطنية أو تأسيسية) تبحث في مصير الأمة لأجيال عديدة لاحقة، وتضع لها دستورا يكون أساسا لحياتها في المستقبل"[٢]، بل الأهم من ذلك أن هذا الاجتماع هو الذي تولد منه وقام على أساسه نظام الخلافة الإسلامية، وهي النتيجة المهمة التي تولدت عن هذا الاجتماع والذي استقر الرأي فيه على من يخلف رسول الله ﷺ، فكان المنطلق من بيعة أهل السقيفة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه، وهوما عرف بالبيعة الخاصة، قبل أن يبايع بيعة عامة في مسجد رسول الله ﷺ[٣].

وإذا نظرنا في خبر سقيفة بني ساعدة نظر المدقق، نرى أنها قد خرجت لنا بأحكام أجمع عليها عدد كبير من المؤرخين سواء القدامى أو المحدثين، حيث جاءت أحداثها مفسرة بنصوص أصبحت منهجاللأمة الإسلامية سارت عليه من بعد، واتخذ منها المصنفون والكتاب، كتب فقه السيرة وكتب الأحكام نصوصا أساسية ساروا عليها في التعريف بنظام الخلافة الإسلامية والإمامة وأحكامها، فقد وجد هؤلاء الكتاب أن ما قام به صحابة رسول الله ﷺ، في اجتماع السقيفة هو اجتماع لكلمة الأمة وقد حللت نصوص السقيفة بكل دقة وخرج منها

---

[٢] منى سعد محمد الشاعر: الخلفاء الراشدون ، ص ٥٤ ، ٥٥

([1]) محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية، ط٧، دار التراث، د.ت، ص ٣٩.

[٣] نهلة أنيس مصطفى: دولة الإسلام في ظل حكم الخلفاء الراشدين، دار المهندس للطباعة، القاهرة ٢٠١٨، ص٥٧.

المحللين بهذا القواعد التي أصبحت شروطا أساسية في الشورى وفي اختيار الخليفة وملئت بها كتب الأحكام[1].

ومن الضروري قبل أن نصطلح على ما خرجنا به من اجتماع سقيفة بني ساعدة أن نشير إلى شدة التماسك ما بين العنصرين الأساسيين في الأمة آنذاك المهاجرين والأنصار، وبالرغم من الخلاف الذي بدت ملامحه ظاهرة إلا أن كلاهما أشاد بموقف الأخر من رسول الله ﷺ، ومن الدعوة الإسلامية ودين الإسلام، وأن انتهاء الاجتماع بإجماع من كان فيه على ولاية أبي بكر الصديق رضى الله عنه لأمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ، دليل على أن تلك المناقشات التي دارت بالرغم من حدتها أحيانا إلا أنها أثمرت عن نتاج مهم وهو اجتماع الأمة وعدم اختلافها، ممثلا في تهافت الأوس ومن بعدهم الخزرج على بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وهذا وإن دل فإنما يدل على أنهم قدموا لنا نموذجا مثاليا للسلوك في المجال السياسي، وبداية عقد الشورى في دولة الإسلام، وهو الأمر الذي رباه فيهم رسول الله ﷺ[2].

ومن أهم البنود التي أقرها العديد ممن أسهموا بكتاباتهم في خبر اجتماع السقيفة ما يلى:-

- أن النبي ﷺ، لم يترك نصا يشير إلى من يلي الأمر من بعده، ولا جاء في كتاب الله ﷻ ما يدل على ذلك، فاتخذ المسلمون من اختيار رسول الله ﷺ، لأبى بكر رضى الله عنه إماما للصلاة دليلا على إمامته للأمة، وقالوا لقد ارتضاه رسول الله ﷺ لديننا، فكيف لا نرضاه لدنيانا؟.
- أن اجتماع السقيفة جاء كأول اجتماع سياسي يقع أولا عليه الخلاف ثم يكون الاجتماع على تولية خليفة رسول اللهﷺ، وهو الأمر الذي أدركه

---

[1] نهلة أنيس مصطفى: دولة الإسلام في ظل حكم الخلفاء الراشدين، ص٥٧.

(٢) محمد عبد الفتاح عليان: تاريخ الخلفاء الراشدين، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٢٠.

المسلمون جيدا، لكي لا ينفرط عقد الأمة الإسلامية، باختلافهم حتى وإن كان كل عنصر من عناصر الأمة يجد في نفسه الأحقية بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- اجتماع رأي الأمة بكل طوائفها على ضرورة قيام خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأمر الذي سينبثق منه قيام أهم نظام إسلامي خالص في تاريخ الدول، وهو نظام الخلافة الإسلامية.
- تصدرت المصلحة العامة للمسلمين قضية خلافة رسول الله ﷺ، ولهذا كان التبكير بالإجماع على خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ويتضح ذلك مما جاء في الطبري عن الزهري، قال: قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد رضى الله عنه "أشهدت وفاة رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: فمتى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله ﷺ، كرهوا أن يبقوا البعض يوم ليسوا في جماعة، قال: مخالف عليه أحد؟ قال: لا، إلا مرتد، أو من كاد أن يرتد لولا أن الله ﷻ ينقذهم من الأنصار، قال: فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال: لا، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم"[1]، وهذا الحديث يؤكد على خوف المسلمين أن يبيتوا وليسوا في جماعة، وهذا لعمري يدل على مدى تفهم هؤلاء الصحابة الكرام لقيمة المصلحة العامة للمسلمين، وأنهم سبقوا بتفكيرهم ذلك قياسا الأمم التي تتدعي التحضر اليوم، والتي تفاخر بما عندها من ديمقراطية، فجاءت شورى الإسلام خير وأبقى، وعليها قام أهم نظام إسلامي وهو الخلافة الإسلامية.
- أن الإجماع على بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه لم يكن بالعنف أو الإكراه بل كان بمشاركة الآراء وتفهمها وطرحها فيما يسمى اليوم بنظام

([1]) الطبري: التاريخ، جـ٢، ص ٥١٠، ٥١١. وكذلك راجع أكرم ضياء الدين العمري: عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان، ص٥١.

الشورى (الديمقراطية)، حيث أجمع عليه كل من المهاجرين والأنصار في مناقشة حرة مفتوحة، وأتيحت الفرصة لكلا الفريقين ليدلي برأيه في حرية تامة، إلى أن انتهت الآراء بالتوافق على اختيار أبى بكر رضى الله عنه للخلافة.

ثانيا: الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضى الله عنه(١١-١٣هـ/٦٣٢-٦٣٤م).

نسبه: هو عبد الله بن أبي قحافة، وأبو قحافة هو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي، يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جده السادس وهو مرة بن كعب[١]، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة[٢]، مما يوضح أن أمه وأبيه كانا على صلة قرابة فقد كانا ابني عم، يقول السيوطي: " وأم أبي بكر بنت عم أبيه اسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب، وتكنى بأم الخير "[٣].

اسمه وألقابه: لقد قيل أن أبا بكر اسمه عتيق لكن الإمام النووي يذكر أن اسمه الصحيح هو عبد الله وأن عتيق لقب له، وقد لقب بعتيق لعتقه من النار، وقيل لعتاقة وجهه أي حسنه وجماله، وقيل لأنه لم يكن في نسبه شيء يعاب

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، تقديم إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨ م مجلد ٣ ، ص ١٦٩. السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق طاهر عبد الرؤف سعد، ياسر صلاح عزب، المكتبة التوفيقية القاهرة د. ت ص ٣١ .

(٢) ابن سعد: المصدر السابق، مجلد ٣ ص ١٦٩ .

(٣) السيوطي: المصدر السابق، ص ٣٤ .

به[١]، وذكر ابن هشام أن "اسم أبي بكر عبد الله، وعتيق لقب لحسن وجهه وعتقه"[٢].

ولقد أورد ابن سعد رواية عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سُئلت: لما سمي أبو بكر عتيقا ؟ فقالت: نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا عتيق من النار[٣].

كما أكد ابن سعد بعدة روايات بأن عتيق لم يكن اسما له ولكنه كان لقبا له، ولقد روي عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: إني لفي بيت رسول الله وأصحابه في الفناء وبيني وبينهم الستر إذ أقبل أبو بكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى هذا، قالت وأن اسمه الذي سماه به أهلة لعبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو لكن غلب عليه عتيق[٤].

وقد اشتهر أبو بكر أيضا بلقب الصديق، وقيل إنه كان يلقب بالصديق منذ الجاهلية لأن قريشا أنابته في أمر الديات، وكان وحده الأمين على جبايتها من العرب يدفعونها إليه راضين مطمئنين[٥]، وذكر السيوطي: "أن الأمة أجمعت على تسميته بالصديق لأنه بادر إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم،

---

(٤) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، القاهرة ١٣٢٣ هـ، ج ٤ ص ١٠١ ، ١٠٢، السيوطي: المصدر السابق، ص ٣١ .

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية تحقيق الشيخ محمد علي القطب ، والشيخ محمد الدالي بلطة، بيروت ٢٠٠٣ م ج١، ص ١٨٧ .

(٦) ابن سعد: الطبقات، ج ٣ ص ١٧٠ .

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ٣ ص ١٧٠ .

(٢) ابن حجر: تهذيب التهذيب، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٤ ، ج ٥ ص ٣١٦ ، السيوطي: المصدر السابق، ص٣٣ ، وراجع عباس العقاد: عبقرية الصديق، دار المعارف، مصر ١٩٥١ ، ص ٩ .

ولازم الصدق، فلم تقع منه هناة ما، ولا وقفة في حالة من الأحوال"[١]، والراجح أنه اشتهر بهذا اللقب منذ الإسراء والمعراج، فيروي ابن سعد رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليلة أسري به: قلت لجبريل إن قومي لا يصدقوني، فقال: له جبريل يصدقك أبو بكر وهو الصديق[٢]، فحين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغ قريش بخبر الإسراء وأنه عرج به إلى السماوات العلا فكذبته قريش، وأسرعت إلى أبي بكر لتبلغه الخبر ظنا منهم أنه لن يصدقه، وعند تبليغه رضى الله عنه قال: "إن كان قال ذلك فقد صدق إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء في غدوه أو رواحه"[٣]، وفي حديث أحد" أسكن فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان"[٤].

مولده ونشأته: ولد أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بعامين وعدة أشهر، عاش ونشأ بمكة، وكان أبو بكر ميسور الحال ذا مال كثير، كان يعمل في التجارة، فقد كان يعمل بزازا، خرج في رحلات تجارية إلى بصرى من بلاد الشام، وانتقل منها بين بلدان الشام[٥].

عرف أبو بكر في قومه بالمروءة وحسن الخلق، والإحسان والكرم روى ابن عساكر بسند صحيح عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: "والله ما قال أبو بكر شعرا قط في جاهلية ولا إسلام، ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية"،

والحقيقة أن أبا بكر كان يتمتع بكثير من الصفات الحميدة بين قومه، وهي التي كان يتصف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما لا؟ وقد كان أبو بكر

---

(٣) السيوطي: المصدر السابق، ص ٣١ .

(٤) ابن سعد: الطبقات، ج ٣ ص ١٧٠ .

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٧٨م، ج٢ ص٣٦، السيوطي، ص٣٣ .

(٢) السيوطي: المصدر السابق، ص ٣٣ .

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١ ص ١٨٧، السيوطي، ص ٣٤ .

أقرب المقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، ، وكان صديقا له في الجاهلية[١]، لذلك كان أبو بكر أول من عرض على الإسلام من الرجال كما سيتضح ذلك في الحديث عن إسلام أبي بكر، ويؤكد هذه الصفات الحميدة التي كانت تجمع بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قبل البعثة النبوية، ما ذكره السيوطي في معرض الحديث عن صفات أبي بكر من أن ابن الدُّغُنَّة قال في أبي بكر:" إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتكسب المعدوم، وتحمل الكَلَّ، وتعين على نوائب الدهر، وتقري الضيف"[٢].

لا شك أن هذه الصفات جعلت أبا بكر يتمتع بكثير من الوجاهة الاجتماعية، فقد كان من رؤساء قريش في الجاهلية، وأهل مشورتها كما كان أحد عشر من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام فكان إليه أمر الديات والغرم؛ فكان لكل قبيلة ولاية عامة تكون لرئيسها فمنها لبني هاشم السقاية والرفادة، ولبني تيم الديات والمغارم[٣].

إسلام أبي بكر: لما كان الأمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بالتبليغ، وأصبح لزاما على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أمر الله له ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢)﴾[٤]، بدعوة الناس إلى التوحيد، فبدأ بأهل بيته أولا السيدة خديجة، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثه، وهؤلاء كانوا يعيشون معه في بيته، فدعاهم صلى الله عليه وسلم فآمنوا بالله ورسوله[٥]، تلبية لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[٦]، ودخل في هذا السياق من المقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صديقه أبو بكر الصديق رضى الله عنه،

---

(١) السيوطي، ص ٣٧ .

(٢) السيوطي، ٣٤ .

(٤) السيوطي: ص ٣٥.

(٢) سورة المدثر آية ١ .

(٣) منى الشاعر: السيرة النبوية، ص ٦٥.

(٤) سورة الشعراء آية ٢١٤ .

فكان أولى بالدعوة، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأسلم ، وقد أورد ابن هشام رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في إسلام أبي بكر فيقول صلى الله عليه وسلم" ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد"[١].

لذا فقد كان أبو بكر أول من آمن من الرجال، وأورد ابن سعد رواية عن أبي أروى الدوسي قال: "أول من أسلم أبو بكر الصديق"[٢]، وفي رواية أخرى عن السيدة أسماء بنت أبي بكر قالت:" أسلم أبي أول المسلمين ولا والله ما عقلت أبي إلا وهو يدين الدين"[٣]، وفي رواية عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت:" ما عقلت أبوي إلا وهما يدينان الدين وما مر علينا يوم قط إلا ورسول الله يأتينا فيه بكرة وعشية"[٤].

وأخرج البخاري عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، ووساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟ ، ذكرها مرتين"[٥].

هكذا كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه من السابقين في الإسلام بل كان خير من دخل في الإسلام، فقد أخرج ابن عساكر بسند جيد عن محمد بن سعد بن أبي وقاص أنه قال لأبيه أكان أبو بكر الصديق أولكم إسلاما؟ قال: لا، ولكنه أسلم قبله أكثر من خمسة، ولكن كان خيرنا إسلاما[٦].

---

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية، ج ١ ص ١٨٧ .

(٦) ابن سعد: الطبقات، ج ٣ ص ١٧١ .

(١) ابن سعد: الطبقات، ج ٣ ص ١٧٢.

(٢) ابن سعد: الطبقات، ج ٣ ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٣) البخاري: صحيح البخاري، دار المنار، القاهرة ٢٠٠١م ،ج٢، كتاب فضائل أصحاب النبي، ص ٤١٩ .

(٤) السيوطي: ص ٣٧ .

وهذا لا يتنافى مع أسبقية أبي بكر بالإسلام وقد ذكر قبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما دعا كان أهل بيته، السيدة خديجة، وعلي، وزيد بن حارثه، ثم كان أول ما دعا من خارج بيته أبا بكر، وقد أوضحت من قبل كيف كان قبوله ودخوله في الإسلام دون تردد، ويؤكد ذلك ابن كثير فيقول:" والظاهر أن أهل بيته صلى الله عليه وسلم آمنوا قبل كل أحد: زوجته خديجة، ومولاه زيد وزوجة زيد أم أيمن، وعلي، وورقة بن نوفل[١].

ولما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه، ولم يخفه أبدا بل أخذ على عاتقه أن يساند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الإسلام، واخذ يدعو كل من وثق به من قومه ممن كان يجلس إليه ويستمع لقوله، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فكان هؤلاء من السابقين في الإسلام، فصلوا وصدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاء به من الله سبحانه وتعالى[٢].

انفاقه الأموال في سبيل الله:

ولم يقتصر دور أبي بكر على الدعوة بل أسهم بالكثير من ماله في سبيل الله، ويشير ابن سعد إلى أن أبا بكر كان يوم أسلم" له أربعون ألف درهم"[٣]، ويروى عن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: "كان أبو بكر معروفا بالتجارة، لقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أربعون ألف درهم فكان يعتق منها ويقوي المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل في مكة"[٤].

---

[١] السيوطي: ص ٣٧.

[٢] ابن هشام: السيرة النبوية، ج١ ص ١٨٨، ١٨٩ .

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ٣ ص ١٧٢ .

[٤] ابن سعد: ج ٣ ص ١٧٢ .

قال ابن كثير: وروي أيضا من حديث علي وابن عباس وأنس وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي في مال أبي بكر كما يقضي من مال نفسه"[١].

يتضح من الروايات السابقة أن أبا بكر أنفق ماله في سبيل الله، ومن جهات الإنفاق التي كان ينفق فيها ماله في سبيل الله، عتقه لعدد من الرقاب ممن دخلوا في الإسلام وكانوا يعذبون، منهم بلال بن رباح، وعامر بن أبي فهيرة، وغيرهم[٢].

وأخرج أبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب قال:" أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مال عندي قلت: اليوم أسبق أبا بكر-إن سبقته يوما فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أبقيت لأهلك ؟ قلت مثله: وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال: يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت لا أسبقه في شيئ أبدا"[٣].

ثالثا: الإدارة وتنظيم الدولة في عهد أبي بكر رضى الله عنه

أبو بكر الصديق يعلن برنامجه السياسي:

بعد أن تمت بيعة أبي بكر بيعة عامة، صعد المنبر ليعلن برنامجه السياسي الذي سوف يسير عليه؛ هذا البرنامج السياسي الذي لم يكن مجرد كلام فقط وخطبة يلقيها الحاكم دون تفعيل لها؛ بل أننا نجده يعلن البرنامج ويضع آليات تنفيذه بل ويبدأ التنفيذ في الحال، وقبل الحديث عن آليات وخطوات التنفيذ التي تم تفعيلها من أول لحظة بعد البيعة سنعرض لبرنامجه السياسي من خلال الخطبة التي ألقاها على المسلمين بعد البيعة العامة مباشرة.

---

(١) السيوطي: ص ٤٠ .

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت، مطابع جامعة أم القرى، نسخة مصورة عن طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، مكة المكرمة ١٤٠٣هـ، ج١ ص٢١٢ ، ٢١٣ .

(٣) السيوطي: ص ٤١ .

فقد صعد أبو بكر رضى الله عنه المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:" أما بعد: أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"[١].

فهي خطبة جامعة اشتملت على الوضوح، والعدل، والتواضع والفضل، والحث على نصرة الدين وإعلاء شأن المسلمين، وسوف نفند هذه الخطبة الجامعة وما تحتويه من برنامج سياسي واضح الملامح اشتمل على التالي:

١ – أن الحاكم لا بد أن يكون متواضعا، وقد وضح ذلك أبو بكر عندما قال "فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم"، فقد قرر أبو بكر في تواضع تام أنه ليس بخير الموجودين، وانه إنما وصل إلى سدة الحكم بفضل اختيارهم له.

٢ – الرقابة الشديدة والدائمة على الحاكم، فيقرر أبو بكر أن استمراره في سدة الحكم إنما هو قائم على متابعة الناس له ومدى التزامه بالعدل لذلك قال:" فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني"، وهو يُرسي مبدأ مهما في نظم الحكم في الدولة الإسلامية، وهو مبدأ الرقابة الشديدة والمحاسبة والمساءلة للحاكم، وعدم التغافل عنه، وربما هذا ما يقابل في زماننا هذا إقرار الذمة المالية للحاكم.

٣ – أرسى أبو بكر الأسس التي قامت عليها الدولة الإسلامية منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي سيستمر عليها وهي الصدق والعدل والأمانة وهي الصفات التي يجب أن يلتزمها الناس جميعا.

٤ – يقرر الصديق رضى الله عنه أن تحقيق العدل التزام عليه، وأنه سيتابع بنفسه هذا الأمر حتى تتحقق العدالة بين الجميع؛ لا فرق بين غني وفقير أو

---

[٢] ابن هشام: ج ٤ ص ٢٧٦ .

بين شريف وضعيف، ولذلك قال:" الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله" .

٥ – الإرشاد إلى التزام المسلمين الجهاد في سبيل الله موضحا مدى خطورة ترك الجهاد حيث قال: لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل"، والجهاد يكون باعتداء الناس عليهم وفي سبيل نصرة دين الله والإسلام ولا يكون اعتداءً من المسلمين إلا في سبيل تبليغ دين الله ﷻ، والذل هنا يأتي من تفريط المسلمين في دولتهم، وعدم حمايتهم حدودهم وثغورهم.

٦ – الإرشاد إلى ضرورة التزام المسلمين البعد عن المحرمات والعفة والنزاهة حتى يظل المجتمع الإسلامي قوي، بعيد عن الآفات والأمراض التي تجلبها المحرمات والفواحش، لذلك قال" ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء".

٧ – ثم ينهي أبو بكر رضي الله عنه خطبته وبرنامجه السياسي بإقرار مبدأ مهم، وهو أن الحاكم ليس حاكما مطلقا في أحكامه يتصرف كيف يشاء بل هو مقيدا بإقامة العدل، والتزام أحكام الشرع يتصرف من خلالها، لذلك قال:" أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله و رسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

لا شك أن الدارس لهذه الخطبة وهذا البرنامج السياسي الراقي يجده ينطبق على كل الأزمان، ولو التزمه الحكام في كل زمان ومكان لأرسوا مبادئ دولة قوية بعيدة عن الذل والهوان، وهو ما كان عليه المسلمون من قوة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن الخلافة الراشدة[١].

---

[١] منى الشاعر :الخلفاء الراشدون، ص ٦١– ٦٣.

خطوات تنفيذ البرنامج السياسي

أولا: على المستوى الداخلي:

أصبح أبو بكر رضى الله عنه بعد أن تمت عملية الانتخاب يمثل السلطتين التشريعية والتنفيذية في الدولة الإسلامية، وكان له معاونون في إدارة البلاد، وكانوا من كبار مستشاريه، أي أنه أسس مجلس استشاري في الحكم كان يتألف من كبار الصحابة، ومن هؤلاء عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب، وغيرهم من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ﷺ.

مكان إقامة الخليفة وراتبه:

ولما كان الخليفة قد جعله الله سبحانه في عون المؤمنين قاضيا لحوائجهم ساهرا على رعايتهم ورعاية مصالح الأمة، فللإمام الحق في قبض ما يكفيه من بيت مال المسلمين، وذلك لأنه يعمل في خدمة المسلمين لأداء الواجبات الملقاة على عاتقه، فوجب على المسلمين أن يوفروا له ما يحتاجه من بيت المال وذلك ليتفرغ لقضاء عمله، ويمكنه في نفس الوقت من إعالة عياله وأهل بيته[1].

بويع أبو بكر في نفس اليوم الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين يعمل بالتجارة، وكان منزله بالسنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير من بني الحار بن الخزرج،- والسنح من ضواحي المدينة- ثم انتقل إلى المدينة بعدما بويع بالخلافة بستة أشهر وكان يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فرس وعليه إزار ورداء ممشق فيوافي المدينة، فيصلي الصلوات بالناس فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح، فكان إذا حضر صلى بالناس وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب، فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته ثم

---

(1) جمال أحمد المراكبى: الخلافة الإسلامية بين نظم الحكم المعاصرة،ص ٤٠٦، منى سعد محمد الشاعر: الخلفاء، ص٦٤ .

يروح لقدر يوم الجمعة فيجمع الناس وكان رجلا تاجرا، فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها وربما كفيها فرعيت له، وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي:"الآن لا تحلب لنا منائح دارنا"، فسمعها أبو بكر فقال: "بلى لعمري لأحلبنها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه من خلق كنت عليه فكان يحلب لهم"[1].

ثم نظر أبو بكر في أمره فقال، وجد أن الأمر لا ينتظم له ليسوس البلاد وهو مشغول بعمله في التجارة لذلك قال: "لا والله ما تصلح أمور الناس التجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم وما بد لعيالي مما يصلحهم"[2]، فترك أبو بكر العمل بالتجارة،" وأنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوما بيوم ويحج ويعتمر ؛ وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف(٦٠٠٠) درهم.

ففي رواية عن الزهري عن "عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: لما ولى أبو بكر قال: قد علم قومي أن حرفتي لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلي، وقد شغلت بأمر المسلمين وسأحترف للمسلمين في مالهم وسيأكل آل بكر من هذا المال"[3].

فكما يتضح من الرواية أن أبا بكر اعتبر قيامه على أمر المسلمين هي الحرفة التي سيديرها ويكون منها راتبه الذي ينفق به على أسرته.

وقد ذكر ابن سعد رواية توضح الراتب الذي كان يحصل عليه أبو بكر من بيت المال بأن راتبه كان ألفين وخمسمائة درهم(٢٥٠٠)، وقيل ثلاثة آلاف درهم(٣٠٠٠)، "لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال: زيدوني فإن لي عيالا

---

(٢) ابن سعد: ج ٣ ص ١٨٦ .

(٣) ابن سعد: ج ٣ ص ١٨٦ .

(١) ابن سعد: ص ١٨٥.

وقد شغلتموني عن التجارة قال: فزادوه خمسمائة قالك إما أن تكون ألفين فزادوه خمسمائة أو كانت ألفين وخمسمائة فزادوه خمسمائة"[١].

يتضح لنا مما سبق أن الخليفة كان له راتب عيني وهو يشمل طعامه وملبسه وهو نصف شاة وما يكسوه في الرأس والبطن، وكسوة الشتاء والصيف وراتب نقدي وهو ألفين وخمسمائة أو ثلاثة آلاف درهم، وهذا العطاء الذي حدد للخليفة هو "قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم"[٢].

ويؤكد أيضا الشفافية في راتب الخليفة وعدم الإسراف أو المغالاة ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه لما احتضر أبو بكر قال لها: " يا بنية إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لنا دينارا ولا درهما، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبق عندنا من فيئ المسلمين قليل ولا كثير إلا هذ العبد الحبشي وهذا البعير الناضح وجُرد هذه القطيفة فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر"[٣]، وقال أيضا عندما حضرته الوفاة: (ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لا أصيب من هذا المال شيئا، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم) فدفع ذلك إلى عمر ودفع إليه بعيرا وعبدا وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم، فقال عمر: "لقد أتعب من بعده"[٤].

نشأة بيت مال المسلمين:

ذكر السيوطي أن أبا بكر كان "أول من اتخذ بيت المال"[٥]، واستند في ذلك على ما أخرجه بن سعد عن سهل بن أبي خيثمة وغيره من أن أبا بكر كان له بيت مال بالسنح معروف ليس يحرسه أحد فقيل له: يا خليفة رسول الله ألا تجعل

---

(٢) ابن سعد: ص ١٨٥.

(٣) السيوطي: ص ٧٢ .

(١) تاريخ الخلفاء: ص ٧٣ .

(٢) ابن سعد: ج ٣ ص ١٨٦ ، راجع بالتفصيل، منى سعد الشاعر: الخلفاء، ص ٦٥ .

(٣) السيوطي: ص ٧٣ .

على بيت المال من يحرسه؟ فقال: لا يخاف عليه، فقيل له: لم؟ قال: عليه قفل، وكان يعطي ما فيه حتى يفرغ، فلما تحول أبو بكر إلى المدينة نقله معه فجعل بيت ماله في الدار التي كان يسكن فيها، وكان يسوي بين الناس في القسمة: الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير فيه سواء[١].

وناقش السيوطي قول بعض المؤرخين من أن أول من اتخذ بيت مال للمسلمين هو عمر بن الخطاب وذكر أن من قال ذلك هو العسكري حيث ذكر العسكري أن رسول الله وأبا بكر لم يكن لهما بيت مال، ولكن أشار إلى أن العسكري تدارك ذلك في موضع آخر من كتابه حين قال: "إن أول من ولى بيت المال أبو عبيدة بن الجراح لأبي بكر"[٢].

ويؤكد ذلك رواية ابن سعد عن عطاء بن السائب قال: "لما استخلف أبو بكر أصبح غاديا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها فلقيه عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق، قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئا، فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاه وما كسوه في الرأس والبطن، فقال عمر: إلي القضاء، وقال أبو عبيدة: إلي الفئ"[٣].

فهذه الرواية تؤكد أن أبا بكر كان له بيت مال وأن القائم عليه كان أبو عبيدة بن الجراح، كما يتضح من الرواية أن في هذا اللقاء الذي تم بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة كانت مناقشة والتشاور حول إدارة الدولة الإسلامية مما جعل عمر يقوم على إدارة القضاء، وأبو عبيدة يقوم على إدارة بيت مال المسلمين بما

---

(٤) ابن سعد: ج ٣، ص ٢١٣. السيوطي: ص ٧٣، راجع عن ذلك بالتفصيل، منى سعد الشاعر، الخلفاء، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(١) السيوطي: ص ٧٣ .

(٢) الطبقات الكبرى: ص١٨٤.

يشتمله من تقسيم العطاء وتحديد الرواتب، وكان أول راتب حدد من بيت مال المسلمين هو راتب الخليفة.

تقسيم العطاء في عهد الصديق:

ارتبط ببيت المال الأموال التي ترد إلى بيت المال وكيفية توزيعها، فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقسم الأموال التي تأتي إلى بيت المال بالسوية بين الناس دون تفرقة بين أحد، يروي ابن سعد أن أبا بكر إذا قدم عليه مال، فكان يقسمه على فقراء الناس "وكان يسوي بين الناس في القسم، الحر والعبد والذكر والأنثى والصغير والكبير فيه سواء، وكان يشتري الإبل والخيل والسلاح فيحمل في سبيل الله، واشترى عاما قطائف أتى بها من البادية، ففرقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء، فلما توفي أبو بكر ودفن دعا عمر بن الخطاب الأمناء ودخل بهم بيت مال أبي بكر ومعه عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان وغيرهما، ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه دينارا ولا درهما ووجدوا خيشة للمال فنقضت فوجدوا فيها درهما فرحموا على أبي بكررضى الله عنه، وكان بالمدينة وزان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يزن ما كان عند أبي بكر من مال فسئل الوزان كم بلغ ذلك المال الذي ورد على أبي بكر؟ قال: مائتي ألف"[1]، وتوضح هذه الرواية عدة أشياء منها:

١ – أن أبا بكر كان يقسم الأموال التي تأتي إليه في الحال.

٢ – التسوية بين الناس في العطاء دون مفاضلة بين أحد، ويروى أنه قال: وددت أني أتخلص مما أنا فيه بالكفاف ويخلص لي جهادي مع رسول الله صلى

---

(١) ابن سعد: ج ٣ ص ٢١٣ .

الله عليه وسلم، ولما كلمه بعض الصحابة في المفاضلة بين الناس في العطاء قال: فضائلهم عند الله فأما هذا المعاش فالتسوية فيه خير[١].

٣ – خصص جزء من الأموال للإعداد الحربي، وتأسيس الجيش، وشراء السلاح.

٤ – خصص جزء من الأموال للأرامل، والفقراء وذوي الحاجات، وهو نوع من التكافل الاجتماعي.

٥ – أن بيت المال كان عليه أمناء، فإذا كان أبو عبيدة القائم على رأس بيت المال في عهد أبي بكر، فكان عليه أمناء هما كما ورد في الرواية عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان(٢)، يؤكد ذلك السيوطي فيقول "دعا عمر الأمناء ودخل بهم في بيت مال أبي بكر منهم عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان"[٣].

٦ – أن من ضمن الوظائف التي على بيت مال المسلمين وزان يزن ما كان يأتي إلى بيت المال من أموال عينية، وربما وجد كاتبا لكي يقيد الوارد والمنصرف، غير أن هذه الوظيفة لم تشر النصوص إليها صراحة.

قدم أول مال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من البحرين فقال أبو بكر: من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليأتنا، فجاء الصحابي جابر بن عبد الله رضى الله عنه وأخبره بوعد الرسول له فقال: خذ فأخذت، فوجدتها خمسمائة، فأعطاني ألفا وخمسمائة[٤].

---

(٢) أبو عبيد: الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٢٧٦ ، وراجع عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: المسلمون في عصر الراشدين، دار الناشر الدولي، ٢٠٠٢ م، ص ١٣١ .

(١) منى سعد محمد الشاعر: الخلفاء ص ٦٩ ، ٧٠

(٢) السيوطي: ص ٧٣

(٣) السيوطي: ص ٧٣.

أما عن قيمة العطاء التي تعطى للناس فكانت نصف دينار للحر والعبد والذكر والأنثى والصغير والكبير[١]، وذكر ابن سعد في رواية عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: "قسم أبي أول ما قسم الفيئ فأعطى الحر عشرة وأعطى المملوك عشرة والمرأة عشرة وأمتها عشرة، ثم قسم في العام الثاني فأعطاهم عشرين عشرين"[٢]، مما يؤكد التزامه مبدأ التسوية، وأن العطاء كان مقداره يتفاوت بحسب الداخل إلى الدولة من أموال.

هكذا راعى أبو بكر العدالة في التوزيع بين أفراد الأمة الواحدة، ولم يكن يدخر شيئا من المال، بل أنه أنفقه في الجهات المعنية التي ذكرناها، حتى أن بيت مال المسلمين حين وفاة أبي بكر لم يكن فيه شيئا ذلك أن خليفة رسول الله حرص على توزيعه بالعدالة والسوية، ويروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: "أن أبا بكر قال لها: يا عائشة ما عندي من مال إلا لقحة وقدح فإذا أنا مت فاذهبوا بهما إلى عمر، فقال: يرحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده"[٣].

أما عن طريقة التوزيع فكان يحدد كل مائة شخص ثم يوزع عليه العطاء، فإذا ما انتهى من المائة الأولى حدد مائة أخرى ونادى عليه بالعطاء، يتضح ذلك من رواية بن سعد التي ذكر فيها أن أبا بكر" كان قدم عليه مال من معدن القبلية، ومن معادن جهينة كثير وانفتح معدن بني سليم في خلافة أبي بكر فقدم عليه منه بصدقته فكان يوضع ذلك في بيت المال فكان أبو بكر يقسمه على الناس نُقرا نُقرا فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا"[٤].

---

(٤) أبو عبيد: الأموال، ص ٢٧٦ ، عبد الفتاح فتحي: المرجع السابق، ص ١٣٢ .

(٥) ابن سعد، ج ٣ ص ١٩٣ .

(١) ابن سعد: ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢) ابن سعد: ج ٣ ص ٢١٣ ، راجع كذلك منى سعد الشاعر: الخلفاء، ص ٧٠– ٧٢.

القضاء في عهد أبي بكر الصديق:

ذكرنا في رواية ابن سعد عن عطاء بن السائب ملاقاة أبي بكر لعمر بن الخطاب ولأبي عبيدة حينما أصبح غاديا إلى السوق فقالا له انطلق حتى نفرض لك شيئا، فانطلق معهما ففرضوا له فقال أبو بكر حينها: "عمر إليّ القضاء، أبو عبيدة: وإليّ الفئ"[1]. "قال عمر: فلقد كان يأتي عليّ الشهر ما يختصم إليّ فيه اثنان"[2].

وفي رواية أخرى أوردها الطبري أن أبا بكر "جعل عمر قاضيا في خلافته فمكث سنة لم يخاصم إليه أحد"[3].

يتضح من ذلك أن عمر بن الخطاب تولى القضاء لأبي بكر، كما يتضح أيضا أن الناس في وقتها كانوا على درجة كبيرة من الشفافية والإيمان بالله حتى أنهم قلت منازعتهم مما جعل عمر ابن الخطاب يذكر أنه كان يمر عليه شهور دون أن تأتي إليه قضايا منازعات.

وعلى الرغم من أن عمر تولى القضاء لأبي بكر إلا أنه كان هناك بعض القضايا التي يرجع فيها إلى الخليفة نفسه أو يشارك فيها أبو بكر، من ذلك قضية الجدة التي قدمت إلى أبي بكر تسأله عن ميراثها ، فروي الإمام مالك عن قبيصة بن ذؤيب أنه قال: جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها، فقال لها أبو بكر: ما لك في كتاب الله شيئ، وما علمت لك في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا، فارجعي حتى أسأل الناس، فسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس، فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال مثل ما قال المغيرة. فأنفذ لها أبو بكر الصديق. ثم جاءت الجدة الأخرى إلى عمر بن الخطاب تسأله

---

(٣) ابن سعد: ص١٨٤ .

(٤) ابن سعد:،ج ٣ ص ١٨٤ .

(١) الطبري: ج ٢ ص ٥٩٠ .

ميراثها فقال لها: ما لك في كتاب الله شيئ وما كان القضاء الذي قضي به إلا لغيرك وما أنا بزائد في الفرائض شيئا ولكنه ذلك السدس فإن اجتمعتما فهو بينكما وأيتكما خلت به فهو لها[1].

يتضح لنا من الحديث أن الخليفة كان يشارك في بعض القضايا، وإن كان الأمر لم يخرج عن مشاركة عمر في الرأي ذلك أن الجدة الثانية ذهبت إلى عمر على اعتبار أنه القائم على أمر القضاء، فحكم لها بالمشاركة في السدس.

وفي رواية أتت الجدتان إلى أبي بكر الصديق، فأراد أن يجعل السدس للتي من قبل الأم فقال له رجل من الأنصار: أما إنك تترك التي لو ماتت وهو حي كان إياها يرث، فجعل أبو بكر السدس بينهما[2].

عمال أبي بكر على الأقاليم:

التزم أبو بكر سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إدارة الدولة الإسلامية لذلك لم يعزل أحد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل احتفظ بنفس العمال الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عماله على الأقاليم على النحو التالي:

١- مكة: عتاب بن أسيد، وقد أسلم عتاب يوم الفتح، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلمعلى مكة حين انصرف عنه بعد الفتح، واستمر طيلة حياة أبي

---

(٢) الإمام مالك بن أنس: الموطأ، بيروت ١٩٩٧م ، كتاب الفرائض، باب ميراث الجدة، حديث رقم(٨/٢٧/ ٥٠٣) ص ٣٢٤ . أبو داود: سنن أبو داود، كتاب الفرائض باب في الجدة حديث رقم ٢٨٩٤. الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمود شاكر بيروت ١٩٩٥م، كتاب الفرائض باب ما جاء في ميراث الجدة، حديث رقم ٢١٠١. ابن ماجه: كتاب الفرائض باب ميراث الجدة، حديث رقم ٢٧٢٣.

(١) الإمام مالك بن أنس: الموطأ، كتاب الفرائض، باب ميراث الجدة، حديث رقم(٥٧٦) ص٣٢٤ .

بكر على مكة، وقيل توفي في اليوم الذي وافى فيه نعي أبي بكر مكة. وكان رجلا صالحا فاضلا[1].

٢- الطائف: عثمان بن أبي العاصي. استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلمعلى الطائف وأقره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، واستعمله عمر على عمان والبحرين ثم نزل البصرة. توفي في خلافة معاوية.

٣- صنعاء: المهاجر بن أمية. وهو أخو أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، وله في قتال المرتدين باليمن آثار كثيرة.

٤ - حضرموت: زياد بن لبيد الأنصاري. أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلمبمكة حتى هاجر فكان يقال له مهاجري أنصاري، شهد المشاهد كلها مع رسول اللّهصلى الله عليه وسلم، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلمعلى حضرموت وأقره أبو بكر عليها.

٥- خولان: يعلي بن أمية، ويقال له يعلى بن مُنية وهي أمه.

٦- زبيد ورمع: أبو موسى الأشعري. قدم على رسول الله بمكة قبل هجرته إلى المدينة فأسلم.

٧- الجند: معاذ بن جبل. كان معاذا فقيها فاضلا صالحا. أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة مع السبعين من الأنصار.

٨- البحرين: العلاء بن الحضرمي. ولاه النبي صلى الله عليه وسلم البحرين وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو واليا عليها، فأقره أبو بكر ثم عمر.

٩- نجران: أرسل إليها جرير بن عبد الله.

١٠ - جُرش: أرسل إليها عبد الله بن ثور وهو عبد الله بن ثور أبو مسلم الخولاني من كبار التابعين.

١١ - دومة الجندل: أرسل إليها عياض بن غنم.

---

(١) أحمد السباعي: تأريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٩ م، ج ١ ، ص ٨٢ .

جمع القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. من مآثر أبي بكر رضى الله عنه جمعه القرآن الكريم، ويرجع سبب جمع القرآن الكريم في عهده إلى حروب الردة، وبصفة خاصة بعد موقعة اليمامة التي كانت بين المسلمين والمرتدين من أهل الجزيرة، واستشهد عدد كبير من حفظة القرآن الكريم في موقعة اليمامة، ولما رأى عمر بن الخطاب كثرة من قتل من كبار الصحابة باليمامة خشي على ضياع القرآن الكريم، خاصة وأن المسلمين في مرحلة جهاد وفتوحات، وكان القرآن الكريم معظمه محفوظا في الصدور.

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال: "أرسل إليّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضى الله عنه إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قال أبو بكر: قلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري فرأيت الذي رأى عمر". قال زيد: وعمر عنده جالس لا يتكلم. فقال أبو بكر: إنك شاب عاقل ولا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فأجمعه، فوالله لو كلفني نقل جبل ما كان أثقل علي مما كلفني به من جمع القرآن. فقلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر. فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم

---

(٣) سورة الحجر، آية ٩ .

عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)[1] ،إلى آخرها. فكانت الصحف التي فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها[2].

لا شك أن رواية البخاري هذه في جمع القرآن الكريم تبين مدى إدراك الخليفة لأهمية جمع القرآن بعد وفاة عدد كبير من القراء على الرغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعله، كما تبين عظم المسؤولية التي تحملها زيد بن ثابت حتى عبر عن هذه المهمة بأنه لو كلف بنقل جبل من مكانه لكان أهون عليه، ولا شك أن هذا يبين مدى أمانة زيد بن ثابت، ذلك لأن عملية الجمع ليست بالهينة فهي تحتاج إلى تدقيق ومراجعة والسماع من كل ما يحمل من آيات الذكر العظيم، وهي مسؤولية عظيمة تحتاج إلى صبر ومثابرة، لأنه القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو خلفه، ولا شك أن هذا هو الذي جعل الله يشرح صدر أبي بكر وزيد لجمع القرآن الكريم . روى ابن سعد عن علي رضى الله عنه قال: "يرحم الله أبا بكر هو أول من جمع اللوحين"[3].

يعد هذا هو الجمع الأول للقرآن الكريم لأن هناك جمع ثاني أتبعه نسخ وزعت على الأمصار في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنهعنه كما سنوضح بعد.

ثانيا: تنفيذ البرنامج السياسي على المستوى العسكري:

بدأ أبو بكر رضى الله عنه بتنفيذ برنامجه العسكري في أول لحظة بويع فيها البيعة العامة، فكانت أول القرارات التي اتخذها بعد البيعة تتعلق بالجانب العسكري، ذلك أن أبا بكر تولى شأن المسلمين في ظروف عصيبة وأخطار محيطة، وعظمت بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبة المسلمين،

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٨ .

(٢) البخاري: صحيحه، كتاب الأحكام، باب يستحب للكاتب أن يكون أمينا عاقلا، حديث رقم ٧١٩١، ج ٤ ص٣٩٠. ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١٣، حديث رقم ٧١٩١، ص ١٩٥، ١٩٦، السيوطي، ص ٧١.

(١) ابن سعد: ج ٣ ص ١٩٣ .

ويتضح ذلك من رواية الإسحاقي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت:" لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب واشرأبت[١] اليهودية والنصرانية ونجم[٢] النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى جمعهم الله على أبي بكر[٣]"، ورواية الطبري عن هشام بن عروة عن أبيه قال: "ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ونجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارى والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقدهم نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم فقال الناس: إن هؤلاء جل المسلمين والعرب على ما ترى قد انتفضت بك فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال أبو بكر: والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته"[٤].

هكذا تبين الروايات مدى الخطر الذي أصبح فيه وضع المسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد اتفقت المصادر على أن اليهود كانوا على رأس أعداء المسلمين والنصارى، هذا فضلا عن ردة بعض القبائل العربية ، لذلك كانت الأمة الإسلامية في حاجة إلى قيادة حكيمة مثابرة، رائدة صابرة لتخرج بها من هذا المأزق والسير على مسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت هذه القيادة في شخص أبي بكر رضى الله عنه.

انفاذ جيش أسامة بن زيد:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعمل أسامة بن زيد، وأمره بالتوجه إلى حدود الشام وذلك في الرابع عشر من ربيع الأول العام الحادي عشر

---

(٢) اشرأبت: طلعت.

(٣) نجم: ظهر.

(٤) ابن هشام، ج ٤ ص ٢٨٠ ، وراجع ابن الأثير، ج ٢ ص ٢٢٦ .

(١) الطبري: ج٢، ص ٥١٧ .

الهجري، وأمره أن يوطئ الخيل في تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين[١]، للأخذ بثأر من قتل في غزوة مؤتة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلمقد ضرب البعث على أهل المدينة ومَن حولها، وفيهم عمر بن الخطاب، وعسكر جيش أسامة بالجُرْف، فاشتكى رسول اللّهصلى الله عليه وسلم ثم وجد من نفسه راحة فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصبا رأسه فقال: أيها الناس أنفذوا جيش أسامة، وقال صلى الله عليه وسلم: إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله إنه كان خليقا للإمارة، وأيم الله إنه لخليقا لها[٢]، وذلك لأن المنافقين طعنوا في إمارة أسامة وقالوا:"أمّر غلاما على جلة المهاجرين والأنصار"[٣]، وكان أسامة شابا لم يكمل العشرين من عمره.

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسر الجيش، وارتد كثير من العرب ونجم النفاق، فقال الناس لأبي بكر: إن جيش أسامة فيه معظم جند المسلمين، وقد انتقضت العرب فلا ينبغي أن تفرق عنك جماعة المسلمين، هكذا ما زال هناك صوت من يعترض على إرسال جيش أسامة لأمرين: الأول وهو بسبب ردة العرب واحتمال مهاجمتهم للمدينة وأهلها في قلة، والثاني: على إمارة أسامة لصغر سنه، وفي هذا الموقف العصيب يتخذ القائد قراره بكل قوة وعزيمة لا رجوع فيها متيمنا بقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قرره قبل وفاته في ضرورة إرسال جيش أسامة في المهمة المنوط بها في بلاد الشام فبعد البيعة مباشرة " نادى منادي أبي بكر بعد الغد من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتم بعث أسامة ألا لا يبقين أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف"[٤].

وثبت القائد في هذه اللحظات الحرجة وبدأ بإنفاذ جيش أسامة تنفيذا لأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل دقة في كل كبيرة وصغيرة مهما كلفه ذلك

---

(٢) ابن هشام: ج٤، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ابن الأثير، ج ٢ ص ٢١٥ .

(١) الطبري: ج ٢، ص ٥٠٣ ، ابن الأثير، ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) ابن الأثير: ج ٢، ص٢١٥ .

(٣) الطبري: ج ٢ ص ٥١٦ ، ٥١٧ .

لقوة إيمانه، وثبات يقينه، لهذا كانت إجابته للمعترضين في غاية القوة حيث قال: " والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته"[1].

خرج أبو بكر حتى أتى الجيش وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن. فقال: "والله لا تنزل ووالله لا أركب وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة" حتى إذا انتهى قال إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل[2]، وهذه قمة التواضع من خليفة المسلمين إذ إنه يمشي مترجلا وهو يودع الجيش، بل الأكثر من ذلك أنه يستأذن أسامة – قائد الجيش – أن يترك له عمر لأنه كان في الجيش فأذن له، وهذا أيضا ليوضح لمن مع أسامة من كبار الصحابة وممن اعتبره صغير السن، واعترض على قيادته ليعلمهم كيفية التعامل مع القائد حتى لو كان الأصغر سننا وضرورة الانصياع لرأيه خاصة في وقت الحرب، وها هو الخليفة بنفسه يستأذنه في أن يبقي معه عمر بن الخطاب.

القضاء على حركة الردة:

تجلت أحداث حروب الردة بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، ولا بد قبل الشروع في عرض حروب الردة من إطلالة على واقع تلك الفترة والتي ألمت بدولة الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وتقسيم من أرتد وتعريفهم، فمن المعلوم أن أول فتنة وقعت بعد وفاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، هي فتنة المرتدين، وقد ذكر أهل العلم – رحمهم الله تعالى – أن المرتدين كانوا

---

(١) الطبري: ج ٢ ص ٥١٧ .

(٢) الطبري: ج ٢ ص، ٥١٨ . ابن الأثير، ج ٢ ص ٢٢٦ .

صنفين، يقول في ذلك الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: " وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربان : منهم قوم كفروا بعد الإسلام مثل طليحة ومسيلمَة والعنسي وأصحابهم، ومنهم قوم تمسّكوا بالإسلام، ومنعوا الصدقات"[١].

وقد ذكر هذا التقسيم غير واحد من أهل الحديث والمؤرخين على حد سواء[٢].

ومن أهل العلم من جعلهم ثلاثة أصناف، فذكر في القسم الأول نوعان، قال ابن عبد البر: "وكانت الردة على ثلاثة أنواع: قوم كفروا وعادوا إلى ما كانوا عليه من عبادة الأوثان. وقوم آمنوا بمسيلمة وهم أهل اليمامة، وطائفة منعت الزكاة، وقالت: "ما رجعنا عن ديننا ولكن شححنا على أموالنا وتأولوا قوله تعالى:﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً﴾[٣]، فقالوا: المأمور بهذا رسول الله لا غيره.

وهذا القسم الثالث هو الذي وقع فيه المناظرة بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والحديث فيه يطول فقد قال أبو هريرة رضى الله عنه: لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بَكر رضى الله عنه، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر رضى الله عنه: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاَ الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. قال عمر رضى الله عنه: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضى الله عنه للقتال فعرفت أنه الحق. ثم قال عمر بعد ذلك: والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعًا في قتال أهل الردة [٤].

---

(١) الأم، جـ٤، ص٢٢٧ .

(٢) الطبري: تاريخ الطبري، جـ٢، ص٥١٦:٥١٧.

(٣) التوبةِ: آية ١٠٣.

(٤) متفق عليه.الطبري: التاريخ، جـ٢. ص٥٢٤.

استلم أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخلافة، وانتشر مع هذا الاستلام الارتداد في شبه جزيرة العرب، ولم يسلم من هذه الفتنة سوى مكة والمدينة والطائف[١]، وقد أصاب الارتداد أكثر ما أصاب تلك البقاع التي كانت بعيدة عن جو المدينة والحضارة والعلم.

فمن الإجراءات العسكرية السريعة التي اتخذها أبو بكر الصديق فور توليه الخلافة هو مواجهة حركة المرتدين والتصدي لها بكل قوة وحزم، وتنقسم حركة المرتدين إلى شقين هما مانعي الزكاة، ومدعي النبوة، وكلاهما خطر على الإسلام والمسلمين لذلك تصدى لهم الخليفة بكل قوة وحزم، ولم يتوان لحظة عن حق من حقوق الإسلام التي هي حق الله، ولا عن حق من حقوق العباد[٢]، لذا فقد كان العبء عليه ثقيلا فيسره الله سبحانه وتعالى عليه لإقرار الإسلام في النفوس وسنعرض لذلك بالتفصيل

أسباب الرّدة:

وللردة عدة أسباب منها أسباب قريبة واضحة للناس في المجتمع المدني آنذاك وهي على ثلاثة أقسام: قسم امتنع عن دفع الزكاة مع الإصرار والعزم على القتال إن أجبر على دفعها[٣]، والثاني أعلن الردة الكاملة كالمتبنئين أمثال الأسود العنسي في صنعاء، وطليحة بن خويلد الأسدي في بزاخة، ومسيلمة الكذاب في اليمامة، وسجاح التي كانت تقيم في شمالي اليمامة[٤]، والقسم الثالث أعلن الانفصال الكامل عن جسم الدولة أمثال لقيط بن مالك بعُمان، والنعمان بن المنذر بن ساوى التميمي بالبحرين[٥]، وهناك فئة انتظرت إلى ما ستؤدي إليه

---

[١] ابن الوردي: تاريخه: جـ١. ص١٣٧.

[٢] منى الشاعر: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص٩٠.

[٣] ابن حزم: المحلى، جـ١١ ص١٩٣

[٤] ابن حجر: فتح الباري بشرح البخاري: جـ٥ ص٣٠٣، ابن حزم: المحلى، جـ ١١ ص١٩٣.

[٥] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ ٢، ص١١٠.

الأقسام الثلاثة، فإن ظفروا كانت معهم، وإن ظفر أبو بكر كانت من عامة المسلمين[١].

أما الأسباب البعيدة والتي يجليها التحليل لموقف عرب الجزيرة العربية، وموقفهم من المدينة النبوية بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمكن تحليلها ومناقشتها واجمالها في النقاط التالية:

١- الصدمة بموت الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يكن هؤلاء القوم الذين دخلوا في الإسلام حديثا يعقلون أمر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢- رقة الدين وعدم فهم نصوصه، وقله إيمان هؤلاء الذين دخلوا الإسلام في الأعوام الأخيرة قبيل موت النبي صلى الله عليه وسلم، مع عدم إيمان هؤلاء المرتدين بإقامة دولة موحدة تكون عاصمتها المدينة كما وضح ذلك من رسالة مسيلمة الكذاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم".. إن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض.."[٢].

٣- الحنين إلى الجاهلية ورغبتهم في الهروب من التكاليف التي فرضها الإسلام عليهم، فهم إن غادروا تلك العادات التي كانوا عليها وتركوها فذلك تأسياً بزعامتهم، وخوفاً من البطش والقوة. فهم قد دخلوا في الإسلام وهم في شوق للعود لما كانوا عليه، وهم في نفوسهم حاجة مما تركوه.

٤- رغبة الخارجين من المرتدين في الخروج على السلطة الشرعية والنظام السياسي الذي ولد بالمدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيام أبو بكر مقامه، فضلا عن ظهور العصبية القبلية والطمع في الملك.

---

[١] ابن حجر: فتح الباري لشرح صحيح البخاري، جـ٥ ص٣٠٣

[٢] البلاذري: فتوح البلدان، ص ٩٧.

٥- العصبية والقبلية اللتان كانتا لا تزالان متأصلتين في نفوس القبائل، ويمثلها قول طليحة النمري حين يقول لمسيلمة الكذاب: "أشهد أنك كذاب، وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلي من صادق مضر"[١].

٦- التنافس على الزعامة، ما المتنبئون في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم إلا دليل على وجود زعامات دينية، تريد أن تبني لنفسها مجداً كما بناه الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن تتخذ من التنبؤ وسيلة للوصول إلى هذه الزعامة[٢].

٧- الارتباط برسول الله صلى الله عليه وسلم وبدخولهم الإسلام في حياته، وبعد وفاته لم يعد ارتباطهم بمن خلفه في المدينة واستغل بعضهم هذه الناحية فأعلن زعامته وقيادته، واتبعه الكثيرون، وهكذا عاد هؤلاء لما قانوا عليه من قبل في جاهليتهم ، والدليل على ذلك قولهم في دفع أموال الزكاة لأبي بكر *رضى الله عنه*: "قد كنا ندفع أموالنا إلى محمد فما بال ابن أبي قحافة يسألنا أموالنا والله لا نعطيه منها شئ أبدا"[٣].

٨- التكاليف التي جاء بها الإسلام، من عبادات ومعاملات، حين أتى الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوته، واستثقل حملها الأعراب حيث نهاهم عن الجاهلية والعصبية وما يقرب منهما من قول أو عمل. وقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم عن أمته بعض هذه الصفات في حجة الوداع فقال: "ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع"[٤]، ثم ما كان من أمر الفروض من لصلاة وزكاة وصوم وغيرها من التكاليف التي ناء بحملها

---

[١] الطبري: تاريخ الطبري، جـ٢ ص٥٠٨

[٢] الطبري: تاريخ الطبري: جـ ٢ ص٥٣٧،٥٣٠،٥٢٧ وغيرها.

[٣] الدواداري: الدر الثمين: جـ ٣ ص١٥٧.

[٤] وردت في ذلك المعنى أحاديث كثيرة جاءت عند العديد من أهل الحديث الشريف مثل أبو داود: باب المناسك. ابن ماجه: السنن، باب المناسك٧٦. وغيرهما.

أولئك الذين كانوا على ضعف في عقيدتهم، ولم يستقر الإيمان في قلوبهم بعد.

كل هذه الأسباب مردها إلى ضعف إيمان هؤلاء، والذي لم يتجاوز منهم الحناجر، ولم يقر في قلوبهم، هذا بخلاف من دخل في الإسلام وقرب من النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم وتعلم على يديه ووقر الإيمان في قلبه وعقله، أما هؤلاء الذين أسلموا بعد فتح مكة، واتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الوفود فقد لإقرار إسلامهم، بالرغم من أن الرسول أرسل إليهم من يقومون على هدايتهم من الصحابة ومن أشهرهم: معاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، وزياد بن لبيد البياضي[١]. وقد حارب الصديق *رضى الله عنه* من ارتد من العرب على الوجه التالي:

أ- **مانعو الزكاة وموقف الصديق رضى الله عنه منهم:**

بعد استخلاف أبي بكر رضي الله تعالى عنه وإنفاذه جيش أسامة انتفضت بعض قبائل العرب حديثي العهد بالإسلام، وخرجت قاصدة المدينة، وعاونهم المتنبئ طليحة الأسدي، فاجتمعت عبس وثعلبة بن سعد ومرة بالأبرق من الرَّبذَة[٢]، واجتمع إليهم ناس من بني كنانة، فضاق المكان عليهم، لذلك افترقوا فرقتين أقامت فرقة بالأبرق، وسارت فرقة إلى ذي القصة، وأمدهم طليحة بأخيه حبال، وانضمت إليهم قبائل دئل، وليث ومدلج، وأرسلوا وفودهم إلى المدينة، ليعرضوا على أبي بكر بذل الصلاة ومنع الذكاة"وأرسلوا إلى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعون الذكاة"[٣]، ذلك أن هؤلاء الناس ظنوا فيما يبدو أن الذكاة ما هي إلا

---

[١] الطبري: التاريخ ، جـ ٢ ص٥١٨.نهلة أنيس مصطفى: دولة الإسلام في ظل حكم الخلفاء الراشدين، ص١٢٢.

[١] الرَّبذَة: من قرى المدينة على بعد ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز، وبها قبر أبي زر الغفاري، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٩٧ م المجلد الثاني ج٤ ، ص ٣٨٨ .

[٢] ابن الأثير، ج ٢ ص ٢٣٢ .

إتاوة، وأنهم إنما كانوا يدفعونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد دخولهم في الإسلام، وأنه لا حاجة إلى دفعها بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، فليس لمن يخلفه أن يطالب بها.

فلما ظهرت حركة الردة قام أبو بكر رضى الله عنه في الناس خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "الحمد لله الذي هدى فكفى، وأعطى فأعفى، إن الله بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم والعلم شريد، والإسلام غريب طريد، قد رثّ حبله وخَلَق ثوبه وضل أهله منه، إن من حولكم من العرب قد منعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم، وإن رجعوا إليه أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا على ما قد تقدم من بركة نبيكم، والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفي لنا عهده، ويُقتل من قتل منا شهيدًا من أهل الجنة"، وقد أشار بعض الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب على الصديق بأن يترك مانعي الزكاة ويتآلفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم، وأن يُتَرَكوا حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم وهم بعد ذلك سيؤدونهاو يزكون عن أموالهم، فامتنع الصديق عن ذلك وأباه [1].

وهنا كان الموقف الخالد لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فماذا سيفعل أبو بكر في هذا الموقف المفاجئ من بعض القبائل العربية التي أرادت أن تخل بركن من أركان الإسلام الخمس؛ الا وهو الزكاة، ففي ثبات وقوة، لا يزعزعها شك ولاتردد، تكلم أبو بكر ورد على الوفود قائلا: " والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه"[2]، والعقال كما يقول البلاذري: " صدقة السنة"[3] وفي صحيح البخاري روي" أن أبا هريرة قال: لما توفي النبي واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى

([1]) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٢٣١

[1]) ابن الأثير، ج ٢ ص ٢٢٣ .

[2]) البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٠٣.

الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله" قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق[1].

وقد جعل الله الحق في قلب أبي بكر رضى الله عنه وعلى لسانه، وجاء موقفه من هؤلاء المرتدين حازما في فترة هي الأخطر على الإسلام ودولته الناشئة في المدينة، وإصراره على محاربة من أرتد سواء من مانعي الزكاة أو من تبع المتنبئين على حد سواء نصرة كبرى للإسلام، ولو لم يقم بهذا الموقف وتهاون في أمرهم، لكبرت شوكتهم ولعاد الأمر إلى الجاهلية مرة أخري وهو الأمر الذي عصم به الإسلام على يدي أبي بكر الصديق رضى الله عنه، وكان ملهما في قراره من المولى ﷻ[2].

كما يبين مدى إدراكه الحربي والعسكري لقدرات هؤلاء الناس الذين انتقص إيمانهم وتزعزع، كما تبين رواية البخاري مدى التزام المسلمين رأي الخليفة بعد تشاورهم معه، ولكنه رأى أن هذا أمر يخص العقيدة فلا تنازل عنه مهما كلفه ذلك، لذا نجد انصياع الأمة خلفة، تؤيد رأيه وتستعد لمواجهة مانعي الذكاة، ويدل على ذلك الحوار الذي دار بينه وبين عمر بن الخطاب والذي انتهى بإقرار عمر برجاحة موقف الخليفة في اتخاذه ذلك القرار العسكري بالحرب والجهاد ضد مانعي الزكاة؛هذا كان موقف قائد وخليفة المسلمين أبي بكر الصديق، وهو

---

(١) البخاري: صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، حديث رقم ٦٩٢٤، ج٤، ص٣٢٩،٣٢٨ .

(٢) نهلة أنيس مصطفى: دولة الإسلام في ظل حكم الخلفاء الراشدين، ص١٢٣.

موقف قوي ثابت يؤكد مدى قوة إيمانه وثباته على العقيدة التي لن يفرط في أمر من أمورها[١].

محاربة مانعي الزكاة (موقعة ذي القصة):

بعد رد الصديق رضى الله عنه للوفود في أمر منع الزكاة توقع الإغارة منهم على المدينة، مما يؤكد بعد نظره ونظرته الثاقبة للأمور ،فانصرفت وفود القبائل المانعة للزكاة من المدينة بعدما رأت عزم الصديق وحزمه، فقرأ الصديق في وجوه القوم ما فيها من الغدر، وعلم أن القوم يضمرون الشر، فقال لأصحابه: "إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلاً تُؤتَونَ أم نهارًا! وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يُأمّلون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم فاستعدّوا وأعدّوا"، ووضع الصديق خطته فألزم أهل المدينة بالمبيت في المسجد حتى يكونوا على أكمل استعداد للدفاع، ونظم الحرس الذين يقومون على أنقاب المدينة ويبيتون حولها، حتى يدفعوا أي غارة قادمة، وجعل أمراء الحراسة في المدينة خيرة صحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود ﷺ، وبعث أبو بكر رضى الله عنه إلى من كان حوله من القبائل التي ثبتت على الإسلام من أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة، يأمرهم بجهاد أهل الردة فاستجابوا له حتى امتلأت المدينة بهم، وكانت معهم الخيل والجمال التي وضعوها تحت تصرف الصديق رضى الله عنه، ومما يدل على كثرة رجال هذه القبائل وكبر حجم دعمها للصديق أن جهينة وحدها قَدِمت في أربعمائة من رجالها ومعهم الظهر والخيل، وساق عمرو بن مرة الجهني مائة بعير لإعانة المسلمين، فوزّعها أبو بكر في الناس[٢].

---

(١) منى الشاعر :الخلفاء الراشدون، ص٩٢.

(٢) الطبري: التاريخ، جـ٢. ص٥٢٦. ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص ٢٣٣.

وبعد ثلاثة أيام من رجوع وفود المرتدين طرقت بعض قبائل أسد وغطفان وعبس وذبيان وبكر المدينةَ ليلاً، وانتبه حرس الأنقاب لذلك، وأرسلوا للصديق بالخبر، فأرسل إليهم أنِ ألزموا أماكنكم ففعلوا، وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم، فهرب العدو فأتبعهم المسلمون على إبلهم، فظن القوم بالمسلمين الوهن، فبات أبو بكر رضى الله عنه ليلته يتهيأ فعبَّى الناس، ثم خرج يمشي، وعلى ميمنته النعمان بن مقرّن، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرّن، وعلى الساقة سويد بن مقرّن معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين همسًا ولا حسًا حتى وضعوا فيهم السيوف فاقتتلوا ليلتهم، فما طلعت الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقُتل أخو طليحة الأسدي، وأتبعهم أبو بكر وكان أول الفتح، ووضع بها النعمان بن مُقَرن في عدد، ورجع إلى المدينة فذل بها المشركون[1].

بعد هذا النصر الذي أحرزه المسلمين، وثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة، وفعل من وراءهم فعلهم، وعز المسلمون بوقعة أبي بكررضى الله عنه، وحلف الصديق رضى الله عنه ليقتلن في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين، وأن ينتقم للمسلمين الشهداء، وأن يؤدب هؤلاء الحاقدين، ونفّذ قسمه وازداد المسلمون في بقية القبائل ثباتًا على دينهم، وازداد المشركون ذلاً وضعفًا وهوانًا، وبدأت صدقات القبائل تفد على المدينة، فكان ذلك مما أفاء الله به على أهل الإسلام في حرب المرتدين، وكان كلما طلع على المدينة أحد جباة الزكاة قال الناس: "نذير" فيقول أبو بكر: "بل بشير"، وإذا بالقادم يحمل معه صدقات قومه، وفي تلكم الأثناءانتعش المسلمين وقويت عزيمتهم وكان أول من جاء بالصدقات إلى الخليفة وفود بني تميم وبني طيء، وكان ممثليهم صفوان والزبرقان بن بدر، وعدي بن حاتم الطائي[2].

---

(٢) الطبري: ج ٢ ص ٥٢٤ ، ٥٢٥، ابن الأثير، ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص٢٣٣

فلا شك أن النصر الذي أحرزه أبو بكر الصديقرضى الله عنه في موقعة ذي القصة كان له أثر عظيم على نفوس المسلمين، فقداستفاد أبو بكر من الفرصة التي سنحت له بطرد المرتدين من ذي القَصَّة إلى الرَّبذَة، وكان قد عاد أسامة بن زيد بجيشه ظافرًا، وصنع كل ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمره به، وما أوصاه به أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وأصبحت المدينة في مأمن من الخطر، ووزع أبو بكر الغنائم على الناس، وقد نال الصديق رضى الله عنه ما أراد من إرسال بعث أسامة، واعتقد العرب بقوة المسلمين،فاستخلفه أبو بكر على المدينة وقال له ولجنده: أريحوا وأريحوا ظهركم، ثم خرج بالذين كانوا على الأنقاب، فقال له المسلمون: "ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تُعرّض نفسك! فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلاً فإن أصيب أمرت آخر فقال: لا والله لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي[1]، وسار إلى ذي حسىً وذي القصة حتى نزل بالأبرق، فقاتل من بهفاقتتلوا فهزم الحارث، وعوف، فهزم الله المشركين،وأخذ الحطيئة أسيرا، وأقام أبو بكر على الأبرق أياما، وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين وصدقاتهم. ولما انهزمت عبس وذبيان رجعوا إلى طليحة وهو ببُزَاخَةوكان قد رحل من سميراء إليها، فأقام عليها، وعاد أبو بكر إلى المدينة[2].

ولا نستطيع مهما تحدثنا عن هذ الموقف الصلب من أبي بكر أن نعطيه حقه ولكن سنختم حديثنا عن هذ الموقف بقول عبد الله بن مسعودرضى الله عنه:" لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن من الله علينا بأبي بكر أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون، وأن نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية، فأما الخطة المخزية فأن

---

(٢) ابن الأثير، ج ٢ ص ٢٣٣ .

(١) الطبري، ج ٢ ص ٥٢٥،٥٢٦ ، ابن الأثير ، ج ٢ ص ٢٣٣ .

يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة، وأن يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم وأن ما أخذوا منا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديار هم"[١] ولا شك أن هذه الرواية تدل مدى البعد الحربي والتخطيط الاستراتيجي لدى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

وقد برهن الصديق بمواقفه البطولية في حرب المرتدين الذين أغاروا على المدينة النبوية على صدق معدنه ورباطة جأشه في مواجهة العدو، فلم يكن ينأى بنفسه عن حرب المرتدين ويدفع بجنده بل كان يخرج بنفسه للجهاد، حاملا أمانة المسؤولية على عاتقه، شاحذا همم الصحابة في الدفاع عن دينهم ودولتهم، ولم يقصيه كبر عمره في الخروج المتكرر حتى يدفع عن المدينة هؤلاء الأعداد، إلى أن جاءت طلائع جيش المسلمين محملة بالنصر مع أسامة بن زيد رضى الله عنه ودخل المدينة، واستقوى بهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه[٢].

ب – حركة المتنبئيين:

ألوية الجهاد ضد مدعي النبوة:

وكانت خطة أبي بكر الصديق لمحاربة المرتدين تؤكد على بعد نظريته الحربية، حيث اتخذ من ذي القصة مركزا حربيا وقاعدة تحرك للجيوش الإسلامية والتي ستخرج للمرتدين للقضاء عليهم واستئصال الكفر والشرك من الجزيرة العربية، وقسم الجيش الإسلامي إلى أحد عشر لواءً، وجعل على كل لواء أميرًا، وأَمَرَ كل أمير جند باستنفار من مر به من المسلمين التابعين من أهل القرى التي يمر بها، وجعل على القيادة لعامة لهذه الألوية الأحد عشر، خالد بن الوليد وهو الذي استبشر فيه أبو بكر خيرا، وكل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه خير.

---

(٢) البلاذري: المصدرالسابق، ص ١٠٣ ، ١٠٤، ابن الأثير، ج ٢ ص ٢٣١.

(٢) نهلة أنيس مصطفى: دولة الإسلام في ظل حكم الخلفاء الراشدين، ص ١٢٥، ١٢٦.

وعندما قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه بتجهيز الجيوش التي أقرها لحرب المرتدين قام واتباعا لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم بإصدار تعاليمه لهؤلاء القادة في توخي الحذر من الأعداء وأخذ الاستعدادات التامة للحفاظ على أرواح المسلمين وعدم تعريضهم للتهلكة، وكذلك عدم تعرض الجيوش الإسلامية لمن لا يرفع عليهم سلاح وأن يختبروهم بالآذان ، وألا يقطعوا شجرا، وكتب كتابا عاما لكافة القبائل المرتدة، ووصى فيه أمراء الجند بما يتبعونه مع هؤلاء المرتدين ونقتطف من كتابه رضى الله عنه تلك المقطتفات: "بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة أقام على إسلامه أو رجع عنه. سلام على من اتبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.. وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره.. وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته أن لا يقاتل أحداً، ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري.."[1]، ومن منطقة ذي القصة التي أتخذها الصديق مقرا لقيادته بدا ينفذ هذه الجيوش الأحد عشر وقادتها كل إلى وجهته وهي:

١- **<u>لواء خالد بن الوليد</u>**: مهمته الانطلاق، والوصول إلى بزاخة، وملاقاة طليحة بن خويلد الأسدي، ثم الوصول إلى البطاح وملاقاة قوات مالك بن نويرة هناك، ثم التحرك من تجمع حول سجاح والقضاء عليها وعلى من تبعها، ثم التوجه بعد ذلك إلى اليمامة وتدمير قوات مسيلمة الكذاب، على أن يعاونه في القضاء على مسيلمة عكرمة بن أبي جهل بجيشه.

---

[1] الطبري: تاريخ الطبري، جـ٢، ص٥٢٦. ابن خلدون: المبتدأ والخبر، جـ ٢، ص ٤٩٥.

٢- **لواء عمرو بن العاص**: ومهمته الوصول إلى قبائل قضاعة ووديعة والحارث، وإرجاعها لساحة الدولة الإسلامية، وإقرارها بحكم الخلافة في المدينة النبوية.

٣- **لواء خالد بن سعيد بن العاص**: مهمته التحرك لمؤازاة جيش عمرو بن العاص من جهة الغرب، والوصول إلى بلاد الشام، قاطعاً تبوك، ومؤكدا على إقامة حكم دولة الإسلام في تلك المناطق.

٤- **لواء عكرمة بن أبي جهل**: يسير ليصل إلى اليمامة، والقضاء على قوات مسيلمة الكذاب، ومتابعة التقدم نحو خليج عُمان، ثم الالتفاف بمجاورة ساحل بحر العرب، والوصول إلى حضرموت، وإن لم يستطع مواصلة هذه الطريق الطويلة يكلفه القائد الأعلى بمهام جديدة على ضوء توقفه والمواقف المستجدة[١].

٥- **لواء العلاء بن الحضرمي**: التحرك باتجاه الشرق، والوصول إلى البحرين، وإلى دارين، والقضاء على المرتدين هناك، ثم الاتجاه نحو الشمال.

٦- **لواء شرحبيل بن حسنة**: مهمته الوصول إلى اليمامة، ومساعدة القبائل العربية الموجودة في تلك المنطقة، حتى الوصول إلى قبيلة كندة، ولعل بداية الفتوحات في بلاد الشام على عهد أبي بكر الصديق رضى الله عنه كانت بداية من تلك النقطة.

٧- **لواء حذيفة بن محصن الغلفاني**: مهمته الوصول إلى هوازن واخضاعها، ومتابعة المسير في عرض الصحراء، ثم يتابع للوصول إلى مهرة.

٨- **لواء طريفة بن حاجز**: مهمته الوصول إلى بني سليم وإخضاعهم.

---

[١] ذكر ذلك محمد ضاهر وتر في كتابه الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م. ص٩٢.

٩- **لواء عرفجة بن هرثمة البارقي**: مهمته التحرك مرورا بشرقي الطائف، ثم الانعطاف نحو الشرق، والوصول قريباً من عمان، ثم الانعطاف نحو الغرب والوصول إلى اليمن، وعليه أن يجتمع مع حذيفة بغية التنسيق والتعاون.

١٠- **لواء المهاجر بن أبي أميّة**: مهمته التحرك باتجاه الجنوب، والمرور بالطائف وصولا إلى صنعاء ثم الانعطاف مع ساحل اليمن باتجاه الشرق، والوصول إلى مكان قريب من مهرة.

١١- **لواء سويد بن مقرن المزني**: مهمته التحرك باتجاه الجنوب وبمحاذاة ساحل البحر ماراً بمكة وتهامة وبعض مدن اليمن، والوصول إلى عدن، يوازيه من جهة الشرق لواء المهاجر بن أبي أمية.

وكان قائد جيش المسلمين خالد بن الوليد، وقائد المرتدين طليحة بن خويلد الأسدي مع قبائل بني أسد وغطفان وقوة صغيرة من قبيلة طيء، يساعده في ذلك كتائب لـ عيينة بن حصن من بني فزارة.[١].

وكانت عدة الجيوش المتجابهة من المسلمين والمرتدين، فجاء قوام الجيش الإسلامي في أربعة آلاف مقاتل[٢]، أما جيش المرتدين فيقدر في سبعة آلاف مقاتل[٣]، وكانت اول مجابهات الجيش الإسلامي محاربة طليحة الأسدي، والتي انتهت بعد عدة لقاءات حربية انتهت بفراره، أما طليحة فمضى هاربا حتى نزل على قبيلة كلب وأسلم وأتى مكة في عهد أبي بكر معتمرا، وقال أبو بكر فيه عندما أتى المدينة: "خلو عنه فقد هداه الله للإسلام"، وقد بايع عمر بن الخطاب في خلافته[٤]، أما عن أهم المعارك التي خاضها المسلمون وكان لها تأثير في القضاء على حركة الردة فتتمثل في:

---

[١] محمد ضاهر وتر: الريادة في حروب أبي بكر، ص٩٣.

[٢] الطبري: التاريخ: جـ٢، ص٥٣٢ وما بعدها.

[٣] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، جـ٢، ص٤٩٦.

[٤] الطبري: التاريخ، جـ٢، ص٥٣٠.

مالك بن نويرة في البطاح وسجاح بنت الحارث:

فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم عماله في بني تميم وكان منهم مالك بن نويرة، ولما كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت تميم ما عدا القليل ومنهم صفوان بن صفوان فكان قد أرسل صدقات قومه لأبي بكر *رضى الله عنه*، وبينما هم في شغلهم ما بين مرتدهم ومسلمهم، جاءتهم سجاح بنت الحارث التميمية، قد أقبلت من الجزيرة وادعت النبوة وكانت تقود أخوالها من تغلب وكان خالها نصرانيا من نصارى تغلب ترك دينه وتبعها وجمع حولها ربيعة من تغلب، وكانت سجاح تريد غزو أبي بكر الصديق رضى الله عنه في المدينة [١]، فأرسلت إلى مالك بن نويرة تطلب الموادعة، فأجابها وردها عن غزوها، بل وحرضها للتوجه لحرب بني يربوع، واتفقوا على النصرة والحرب، وكانت أول وجهاتهم اليمامة، حيث أفادت بما جاءها من وحي بزعمها المأفون فقالت لهم" عليكم باليمامة، ودفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملامة" [٢].

غير أن مالك بن نويرة لم يخرج معها ناحية اليمامة وظل مقيما بجنوده في منطقة البُطاح، هذا بالرغم من أن عددا كبيرا من تميم عادوا للإسلام، وفي أثناء ذلك كان خالد بن الوليد رضى الله عنه قد انتهي من القضاء على حركة طليحة بن خويلد وتوجه ناحية البُطاح للقضاء على بقايا المرتدين وعلى رأسهم مالك بن نويرة، واستقبله رؤوس بني تميم ممن كانوا على الإسلام بالسمع والطاعة، وتوجهوا معه تلقاء مالك بن نويرة وحدث فيها ما عرف بغزوة البُطاح [٣]، وقد

---

[١] ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص ٢٤٠:٢٤١.

[٢] الطبري: التاريخ ، جـ٢، ص٥٣٤.

[٣] والبُطاح منطقة تقع إلى الشرق من المدينة، والجنوب الشرقي من جبلي أجأ وسلمى، وهي منازل لبني يربوع من بني تميم إلى أن جاء الإسلام فاعتنقته تلك القبائل إلا القليل منها. وقد أكثر الشعراء من ذكر تلك المعركة منهم متمم بن نويرة، ووكيع بن مالك . الحموي: معجم البلدان: جـ١، ص٤٤٥:٤٤٦. عفاف صبرة: الخلفاء الراشدون، ص٧٩. نهلة أنيس مصطفى: دولة الإسلام في ظل حكم الخلفاء الراشدين، ص١٥٣.

تلاقى قائد الجيش الإسلامي خالد بن الوليد رضى الله عنه، وقائد قوات المرتدين مالك بن نويرة في قبيلة بني يربوع، وبعض القبائل الأخرى المجاورة كبني حنظلة وبني تغلب[١].

تحرك خالد بن الوليد رضى الله عنه بجيشه من منطقة نقرة باتجاه البطاح، وعلى ما يظهر فإن مالك بن نويرة لم يكن في نيته القتال، وخاصة عندما وجد نفسه شبه وحيد بعدما عاد غالبية أهل تميم للإسلام، والدليل على ذلك أمر مالك لمن كان معه بتفريق معسكرهم وعدم الاجتماع وقال لهم: "يا بني يربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح، وقد نظرت فيه فرأيت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة، وإذا الأمر لا يسوسه الناس فإياكم ومناوأة قوم صنع لهم، فتفرقوا ودخلوا في هذا الأمر فتفرقوا على ذلك"[٢]، وكان خالد بن الوليد ملتزما بما أمره به أبو بكر الصديق *رضى الله عنه* أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلا، فإن أذن القوم فكفوا عنهم، وأن لم يؤذنوا فأقتلوا وانهبوا وإن أجابوكم إلى داعي الإسلام فسائلوهم عن الزكاة، فإن أقروا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم، غير أن مالكا لم يستقبل خالد بن الوليد وظل على عدته الحربية مستعداً لهذه المعركة، وعندما دنا خالد من موقعه أستطاع بكل سهوله أسر مالك بن نويرة ومن كان معه في جنده، وقد حدث ذلك بدون مقاومة تكاد أن تذكر كانت هذه المعركة من أبسط المعارك وأسهلها، ويعتبر دخول خالد إلى منطقة البطاح دخولاً لا مقاومة فيه ولا حرب تذكر سوى بعض المناوشات التي سرعان ما قضي عليها، وقد أختلف الأمر فيما بين الرجال الذين أسروا مالكا هل أذنوا أم لا؟ فمنهم من شهد بآذانهم، ومنهم من لم يشهد، فأودعهم خالد بن الوليد رضى الله عنه في خيامهم حتييرى رأيه فيهم، وكانت الليلة التي أسر فيها مالك بن نويرة ليلة شديدة البرد، فأمر خالد مناديا فنادى " أن أدفئوا أسراكم"، والعبارة كما يقول ابن الأثير: "في لغة كنانة تعني

---

[١] ابن أعثم: الفتوح: جـ١، ص٢١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٤٢.

[٢] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٤٢.

القتل، فظن القوم أنه أراد القتل، ولم يرد إلا الدفء، فقتلوهم وقتل قتل ضرار بن الأزور مالكا"[1].

وقد تعددت الروايات التي تقول أن بعض الأسرى عادوا للإسلام ومنهم مالك بن نويرة، وحمل البعض ومنهم الفاروق عمر رضى الله عنه تبعة مقتل مالك بن نويرة لخالد بن الوليد رضى الله عنه، وخاصة بعدما تزوج خالد بن الوليد أم تميم زوجة مالك بن نويرة، وقد كثرت الآراء في ذلك الآمر بين الصحابة أنفسهم، أن قد قتل في هذه الموقعة أناس يشهدون بأن لا إله إلا الله محمدا رسول الله، وقد وقف الفاروق عمر من خالد بن الوليد موقفا متشددا، وشرح خالد بن الوليد للصديق *رضى الله عنه* موقفه واعتذر إليه، فعذره وتجاوز عنه وعنفه على أمره من زواجه بزوجة مالك، لأن هذا أمر كانت تأباه العرب وتكرهه وقت الحرب، وقد أتى المدينة النبوية متمم بن نويرة وقدم على أبي بكر يطلب بدم أخيه، ويسأله أن يرد عليهم سبيهم، فأمر أبو بكر برد السبي ودفع دية مالك من بيت المال، ولعل ما ذكرة ابن الأثير من خبر متتم بن نويرة مع الفاروق عندما أتى المدينة يوضح لنا ما أثير من جدل عن خالد بن الوليد في أمر مقتل مالك بن نويرة، حيث ناقش في حوار يعني مفادة أن مالكا قد مات على الشك والتردد، ولم يمت على الإسلام، وأن أخذ أخيه الدية من قبيل القتل الخطأ. وبهذا أسدل الستار على أمر مالك بن نويرة[2].

مسيلمة الكذاب في اليمامة:

مسيلمة بن حبيب الحنفي، وكان بنو حنيفة قد وفدوا على النبي*صلى الله عليه وسلم* وأقروا بإسلامهم بين يدي النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم وكان من بينهم مسيلمة غير أنه لم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ظل في رحالهم يحفظ ظهرهم، بالرغم من أن النبي أعطي له مثل ما أعطى من حضر

---

[1] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٤٢.

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٤٣. عفاف صبرة: الخلفاء الراشدون، ص٨٠.

من الوفد عندما ذكر له، وقال صلى الله عليه وسلم: " رسول الله أما إنه بشركم مكانا، يحفظ صنيعة أصحابه، وذلك الذي يريد صلى الله عليه وسلم" أما الكذاب فيذكر أنه قال: " إن جعل الأمر لي من بعده تبعته، فلما رجع إلى بلاده إدعى النبوة، وأنه أشرك مع النبي صلى الله عليه وسلم في الأمر فاتبعه قومه، وأعاد على قومه ما ذكره عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: " ما كان ذلك إلا لما يعلم أني قد أشركت معه" وأخذ يسجع لهم السجعات، وكأنها قرآنا يتنزل عليه، وقام بإلغاء الصلاة، وأحل شرب الخمر والزنا وتجرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وادعى أنه تنازل له عن نصف الأرض، وكتب للنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " من مسيلمة إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإني قد أشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشا قوما يعتدون"، فرد عليه النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم قائلا: "من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من تبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين" [١].

معركة عقرباء. في شمالي اليمامة، وسهل عقرباء يقع شماليّ وادي حنيفة، ووادي حنيفة يقطع هذا السهل من الشرق إلى الغرب، وفي جنوب وادي حنيفة يقع تل صغير يشرف على سهل عقرباء. وفي طرف هذا السهل تقع "حديقة الموت" وهي حديقة بها الأشجار المثمرة، محاطة بسور منيع[٢].

بعد أن نفذ مهمته بكل كفاءة، جاءته الأوامر بالتحرك من هذه المنطقة باتجاه اليمامة لقتال مسيلمة[٣]،بعد أن نفذ مهمته بكل كفاءة، جاءته الأوامر بالتحرك من هذه المنطقة باتجاه اليمامة لقتال مسيلمة شكل خالد جيشاً كبيراًشكل خالد جيشاً كبيراً وكان يتألف من لواء خالد بن الوليد، وقوات الأنصار والمهاجرين

---

[١] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٢٠٣:٢٠٤.

[٢] الطبري: تاريخ الأمم والملوك: جـ٢ص٥٠٨، الحموي : معجم البلدان: ٤جـ، ص١٣٥

[٣] البلاذري: فتوح البلدان: ٩٨:١٠٠، ابن الأثير: الكامل جـ٢، ص٢٩٩:٣٠٠

التي تخلفت قليلاً لظنها أن خالداً تجاوز حدود الأوامر المعطاة له من قبل الخليفة، وتشكيل شرحبيل بن حسنة. ثم أعطى التعليمات القتالية وأسند المهام إلى الوحدات مستنداً إلى توجيهات القائد الأعلى وإلى الظروف الراهنة، وقوة العدو وإمكانياته [١].

تحرك هذا الجيش من منطقة البطاح، باتجاه وادي حنيفة من الجهة الجنوبية، وكان على الميمنة زيد بن الخطاب، وعلى الميسرة أسامة بن زيد، وعلى الجناح البراء بن مالك، وعلى القلب قائد الجيش بالذات وكان شعار الجيش: يا أصحاب سورة البقرة، وعدده حوالي عشرة آلاف مقاتل، وعسكرت قوات المرتدين من اليمامة باتجاه المعسكر الإسلامي في سهل عقرباء، على الضفة الشمالية لوادي حنيفة، وكان على الميمنة المحكم، وعلى المسيرة الرجّال بن عنقوة وعلى القلب مسيلمة، وكان عدد هذا الجيش حوالي أربعين ألف مقاتل[٢].

قامت قوات المسلمين بهجوم على طول الجبهة المعادية ضد المرتدين، وحاولوا أن يخترقوا الصفوف، لكن صمود جبهة المرتدين أوقفهم ، استغل مسيلمة فشل هذا الهجوم، فقام بهجوم معاكس نجح فيه إلى حد بعيد، حيث استطاع أن يزيح عدوه، وأن يحتل جزءاً من الأرض. وبدا على المسلمين التقهقر والفوضى[٣]، كان النجاح النسبي الذي أحرزه المرتدين، الذين ما لبثوا أن غرتهم مظاهر هذا النجاح، فباشروا بالنهب والسلب، وترك مواقع القتال. وهذه فرصة أتاحت لخالد بن الوليد أن يعيد تنظيم قواته من جديد حيث خاطب فيهم تشكيلاتهم القبلية، فحرك في نفوس زعماء هذه القبائل، فأثار فيهم روح الحمية والأثرة[٤].

وبعد الانتهاء قام بهجوم التثبيت والحركة، إذ ثبت قائد القلب الكتلة الرئيسية من جيش مسيلمة، وقام قائد الميمنة زيد بن الخطاب فخرق ميسره الرجّال قائد ميسرة

---

[١] البلاذري: فتوح البلدان: ٩٨:١٠٠، ابن الأثير: الكامل جـ٢ص، ص٣٠٠:٢٩٩

[٢] الطبري : تاريخ الأمم والملوك: جـ٢، ص٥١١

[٣] البلاذري: فتوح البلدان: ص٩٩.

[٤] الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ص٥١٣.

مسيلمة حتى وصل إلى مقر قيادته فقتله[١]وحاول قائد هذه الجبهة أن يتقدم ويخرق الصفوف لكنه لم يستطع، وكثرت عليه الضربات من كل صوب حتى سقطت الراية من يده، وقد جاهد جهادا مستميتا من أجل الحفاظ عليها حتى استشهد، فأخذ الراية سالم مولى أبي حذيفة وحماها، وتقدم المقاتلون وثبت هذا الجيش أمام الضربات المتتالية، وكثرت الخسائر من القتلى والجرحى من الطرفين، حتى جرى الدم في خندق سمي فيما بعد "خندق الدم"[٢].

هدأ القتال فترة، ثم استؤنف بالمبارزة، فخرج خالد ينادي للمبارزة، فخرج إليه رجال من المرتدين، فدفف عليهم جميعاً، وكان بوده أن يصل إلى مسيلمة الذي ظل حذراً دون أن يقترب من خالد بن الوليد، وبحركة سريعة أراد أن يقضي عليه فهرب من أمامه، وبهذا الهروب صاح قائد الجيش الله أكبر، فتبعه المسلمون وهم يرددون هذا الشعار، فتراجع المرتدون أمام ضغط وهجوم المسلمين، ثم انقلب هذا التراجع إلى انسحاب، وهنا استغل المسلمين هذه اللحظات، فبقي على التحام مباشر مع الهاربين، وتبعهم حتى ألجأهم إلى حديقة كانت في سهل عقرباء، فدخلوها وأغلقوا بابها علها تحميهم من سيوف ورماح المسلمين[٣]. وقتل في هذه المطاردة العدد الكبير من المرتدين كما قتل قائد الميمنة "المحكم" وبهذا فقد بقي جيش مسيلمة دون قائدي جناحين، وتفككت عرى القيادة والانضباط، وسادت الفوضى[٤].

حاصر المسلمون المرتدين في الحديقة، وحاولوا اقتحام الحديقة التي كانت مسوّرة، وبابها موصدا يحرسه عدة مقاتلين، والحصار في هذه الحالة يتنافى مع سرعة الانتصار، ذلك أن الحصار يتطلب مدة طويلة، حتى يستسلم العدو، لكن السرعة مطلوبة قبل أن يأتي التعزيز من بعض القبائل، وقبل أن يعيد المرتدون

---

[١] الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ٢جـ، ص٥١١، ابن أعثم: الفتوح: جـ١، ص٣٥.

[٢] الطبري: تاريخ الأمم والملوك: جـ٢، ص٥١٣ ، ابن أعثم: الفتوح، جـ١، ص٤٠ -٤٤.

(٣) ابن أعثم الكوفي: الفتوح، جـ١، ص٣٦:٣٧

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ١، ص٣٥٨.

تنظيم صفوفهم، سيما الذين لم يدخلوا الحديقة. وكان من رأي قادة الهجوم الإسلامي اقتحام الحديقة قبيل أن تلتئم صفوف المرتدين في الخارج [١] وقاد البراء بن مالك مجموعة الاقتحام، وعلا السور، وقفز إلى داخل الحديقة، فقتل بعض الحراس، وفتح الباب. فتدفقت جموع المقاتلين المسلمين، وخرقوا صفوف المرتدين، فتجزأت قواتهم، وسهل في هذه الحالة القضاء على البقية الباقية في هذه الحديقة [٢].

أصر مسيلمة قائد جيش المرتدين على متابعة القتال، وثبت أمام جيشه، وبدت ساحة المعركة في حالة من الفوضى والدماء أريقت حتى ملأت ساحة الحديقة وكلا الطرفين مصرين على استكمال القتال وقد أذنت الشمس بالرحيل، والقتال لا يزال متواصلاً ومتابعاً[٣]، في هذه اللحظة تسلل وحشي من بين جنود المسلمين. واقترب رويداً رويداً من مقر قيادة مسيلمة، حتى إذا أيقن أنه أصبح في المدى المجدي من رمية حربته، هزّها، وصوّبها باتجاه الكذاب، ورماها فأصابت صدره، فوقع على الأرض ينازع سكرات الموت فأقبل أبو دجانه فدفف عليه، وفصل رأسه عن جسده [٤].

انتشر مقتل مسيلمة في جموع المقاتلين المرتدين انتشار النار في الهشيم، وقوّى المسلمون هذا النبأ، وما من لحظات حتى انهارت قوى هذا الجيش، وتحطمت معنوياته بمقتل قائده ونبيّه كما في زعمهم، وانكفأ يقاتل عن ضعف. وفي هذا الوقت انقض المسلمون على من تبقى من المرتدين فأبادوهم،. وكانت مقتلة عظيمة، ومعركة قاصمة، أعادت إلى الجزيرة العربية وحدتها وقوتها واستشهد كثير من الصحابة وحملة القرآن[٥].

---

[١] ابن أعثم: الفتوح جـ١، ص٣٨، محمد ضاهر وتر: الريادة في حروب أبي بكر، ص٩٣.

[٢] محمد ضاهر وتر: الريادة في حروب أبي بكر، ص٩٥.

(٣) ابن أعثم: الفتوح، جـ١، ص١٣٨،

[٤] ابن أعثم: الفتوح، جـ١، ص٣٨ ، الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ١، ص٣٥٨

[٥] ابن أعثم: الفتوح، جـ١، ص٣٩ ، اليافعي: مرآة الجنان، جـ١، ص٩٦

وبعد هذه المعركة الفاصلة في تاريخ حروب الردة، والتي أعادت التوازن للموقف الإسلامي، والاتحاد للجزيرة العربية تحت قيادة المدينة النبوية، تلك المدينة التي مثلت مركز القيادة الراشدة لحكم دولة المسلمين، وكانت الأنباء تتواتر عليها، من المراكز القتالية الأخرى، حيث جاءت أخبار القائد عرفجة بن هرثمة البارقي المتوجه لإخضاع ارتداد قبيلة مهرة في جنوب الجزيرة بالقرب من حضرموت، تفيد بخضوعهم وانضوائهم تحت راية الدولة الراشدة وعودتهم للإسلام[١].هذا فضلا عن الأخبار المتواترة بما كل من انتصار العلاء بن الحضرمي في البحرين، وانتصار المسلمين على قبيلة كندة، تلك القبيلة العربية التي رفضت دفع الزكاة، وحن شيوخها للعودة إلى حياة الزعامة والقيادة كما كانوا في الجاهلية، وقادهم الأشعث بن قيس بالرغم من إسلامه، ألا أن اتحاد القوات الإسلامية استطاعت استدراجه والتغلب عليه بالحيلة والدهاء وبذل الأمان له ولعشرة من قبيلته، فما كان منه إلا خيانة من معه، وفتح باب الحصن للمسلمين، وكان بذلك القضاء على ردة هؤلاء العرب الذين كان دافعهم الأول التهرب من الزكاة، والعودة لفوضى الجاهلية[٢].

وبهذه الانتصارات انسدل الستار على حروب الردة، تلك الحروب التي واجهها أبو بكر الصديق رضى الله عنه بكل حزم وقوة وبسالة، ولولا موقفه هذا كانت الأحوال تبدلت وتغيرت لما لا تحمد عقباه بالنسبة لوجود دولة الإسلام في الجزيرة العربية، وقد كان لتلك الحروب نتائج مهمة أدركها الدارسون لتاريخ تلك الفترة نلخصها في الآتي:

- إعادة وحدة القبائل العربية تحت راية الإسلام، وتكوين الجيوش الإسلامية، وامتداد الفتح إلى بلاد فارس، وإلى بلاد الروم.

---

[١] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٢٨

[٢] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٢٨، ابن أعثم: الفتوح، جـ١، ص٧١ وما بعدها.

- كانت حربا ضروسا شملت أنحاء الجزيرة كلها، فلم يسلم بيت أو قبيلة إلا قتل منها أو فقد أو أسر، فكان أن حاول أبو بكر رضى الله عنه جمع شملهم بتوجيههم إلى الفتوحات الإسلامية، وجمعهم تحت رايات واحدة وقيادات واحدة في الفتوح لكي تلتئم تلك الجروح، وتنسى تلك الأحقاد.
- ممالا شك فيه أن حروب الردة صقلت أبا بكر الصديق رضى الله عنه ليكون قائداً استراتيجياً كبيراً، يقود العمليات الحربية على جميع الجبهات، وهي نفسها التي جعلت خالد بن الوليد قائداً كبيراً، يتولى قيادة الجيش بصورة مباشرة.
- وهناك عامل السرعة نتيجة لحروب الردة، إذ لا يعقل ولا يصدق أن ينتصر جيش قليل بهذا الزمن القصير، وأن يستولي على أرضين واسعة ومدن كثيرة وأن يدك عروشاً، وينزل تيجاناً، وحتى إذا ما قيس بالعمليات الحربية الحديثة فإن الاستيلاء على تلك الأراضي يلزمها وقت كبير، ومع ذلك فقد استطاعت القوات العربية أن تنتقل من حدود الجزيرة، وتجوس ديار العراق على طول امتداد نهر الفرات من أسفله إلى أوسطه، وتدق ديار الشام، وتصل إلى بلاد الجنوب من سورية إلى أرض حوران واليرموك[1]، وذلك في الفتوحات الإسلامية التي انطلقت من المدينة المنورة لنشر دعوة الإسلام.

الفتوحات الإسلامية في عهد ابي بكر رضى الله عنه:

الدعوة الإسلامية دعوة عالمية جاءت إلى العالم أجمع، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[2]،

---

[1] محمد ضاهر وتر: الريادة في حروب أبي بكر، ص٩٥ وما بعدها. عالج د. محمد ضاهر نتائج حروب الردة معالجة حربية هامة، وقد أوردنا بعض من نتائج دراسته للتأكيد على نظرة المفكر العسكري لتلك الحروب.

[2] سورة التوبة آية ٣٣ .

وعثمان بن طلحة حارث الكعبة[١]، ثم كانت هذه الهدنة فاتحة خير للكثيرين من الذين دخلوا في الإسلام[٢].

٤- مرت الدولة الإسلامية بعد هدنة الحديبية بتطورات كبيرة كان لها تأثيرها القوي في الفتح وانتشار الإسلام، إذ تتضمن هذه المرحلة عدة أحداث كان لها تأثيرها في تطور الدولة الإسلامية، وتغير موازين القوى في الجزيرة العربية، بل والخروج بالدعوة الإسلامية إلى خارج حدود الجزيرة العربية مما يؤكد أيضا عالمية الدعوة، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارس ذلك عمليا، انطلاقا من فتح مكة، مرورا بغزوة خيبر، وغيرها من الغزوات التي كان لها تأثيرها في إثبات قوة وحجم الدولة الإسلامية في تلك المرحلة من تاريخها[٣].

٥- على أثر هدنة الحديبية تقلص نفوذ الوثنية، واليهودية في الجزيرة العربية، وتصدى المسلمون ليهود خيبر، الذين أصبحوا أداة للتآمر ضد المسلمين، ثم كانت خطوة انتشار الإسلام بالاصطدام مع الروم في غزوتي مؤتة و تبوك ، مما يدل على مدى تطور الدولة الإسلامية، في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح لها ثقل كبير في المنطقة[٤].

٦- لا شك أن البعوث والسفراء الذين أرسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأمراء والملوك تمثل مرحلة جديدة تمر بها الدولة الإسلامية، حيث أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم البعوث والسفراء إلى الأمراء والملوك

---

(١) ابن الأثير: ج ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦.

(٢) منى الشاعر: السيرة النبوية، ص ٢٣٥ ، الخلفاء، ص ١٢٤ .

(٣) منى الشاعر: السيرة النبوية، ص ٢٣٥ ، الخلفاء، ص ١٢٥ .

(٤) منى الشاعر: السيرة النبوية، ص ٢٣٥ .الخلفاء، ص ١٢٥ .

لتبليغ الدعوة إلى الآفاق، تنفيذا لحكم الشريعة الإسلامية، والتي كلف صلى الله عليه وسلم بتبليغها إلى الناس كافة.

فتوح العراق وفارس:

كان على أبي بكر الصديق رضى الله عنه بعد تثبيت دعائم الدولة داخليا، واطمئنانه لتثبيت عقيدتها في نفوس المسلمين من العرب، أن ينفذ أمر ربه في تبليغه دين الله للناس كافة، فكان لابد وأن يبدأ بالمناطق المتاخمة للجزيرة العربية، ولذلك يجب التأكيد على دحض أي رأي أو فكرة أو اعتقاد يحاول أن يضع عوامل ودوافع خاصة، مثل الاحتياج الاقتصادي للعرب آنذاك، دفعت المسلمين للخروج، ولهذا وجب القول على أن هؤلاء الأجلاء من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما خرجوا من الجزيرة العربية إلا إعلاءً لكلمة لا إله إلا الله، محمدا رسول الله[١].

وكان يحكم العراق الفرس، وكان بينهم وبين الروم عداوة لاختلافهم على زعامة العالم آنذاك، وتنازع الفرس فيما بينهم، وضعفت دولتهم بموت كسرى أبرويز، ثم أعقبه عدة ملوك ساد في زمنهم الفوضى والخلل في الحكم، وكان على المسلمين وفي مقدمتهم الخليفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وأن يتحملوا ما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمانة نشر الإسلام في أعناقهم، فأدركوا وبعد القضاء على حروب الردة في الجزيرة، واستعادة وحدتها وانسياح الجيوش الإسلامية على حدود الدولة الفارسية، أنه قد آن الأوان لفتح العراق وبلاد فارس، ولا سيما أنه يعلم ضعف هذه الدولة وما وصلت إليه من الفوضى والاضطراب، والاختلاف الكبير بينها وبين دولة الروم اللتين كانتا على الأقل لن تقوما بالاتحاد فيما بينهما في مواجهة المسلمين[٢].

---

[١] عفاف صبرة: دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين، ص٩١.

[٢] نهلة أنيس مصطفى: دولة الإسلام في ظل حكم الخلفاء المسلمين، ص١٦٤.

مسير خالد إلى العراق وصلح الحيرة سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م:

ومن خلال تلك المعطيات، ورؤية المسلمين لها، أصدر أبو بكررضى الله عنه أوامره بعد انتهاء الردة إلى خالد بن الوليد أن يطأ أرض فارس فقال: "سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند (وهي الأُبُلَة) وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم"[١].

حدد أبو بكر الصديق رضى الله عنه لخالد بن الوليد رضى الله عنه مهمة الفتح، وأمره أن يبدأ من الجنوب من أسفل العراق باتجاه الحيرة، متخذاً طريقه إلى اليمامة، ثم النباج، ثم الحفير، فالأُبُلَة، كما كلف من قبل المثنى بن حارثة الشيباني أن يغير بقبيلته بني بكر على الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، ثم حدد أبو بكر رضى الله عنه حجم الجيش الذي سيقاتل في أرض العراق، وأوصى أن يكون كله من المتطوعين الذين نذروا أنفسهم للجهاد واستبعد الذين ارتدوا من قبل[٢].

هذا وقد أرسل أبو بكر رضى الله عنه أيضاً جيشاً آخر بقيادة عياض بن غنم، وأعطاه نفس المهمة، حيث أمره أن يدخل العراق من أعلاه، وأن يكون تحركه من المدينة إلى دومة الجندل باتجاه الحيرة التي ستكون ملتقى الجيشين حيث ستوحد القيادة وتكون جميع القوات آنئذ بإمرة الذي يحتل الحيرة، ويسبق في الوصول إليها[٣].

وفي حال نجاح هذين الجيشين ووصولهما إلى الهدف المحدد فإن على أحد الجيشين أن يمكث ويقيم في الحيرة، وأن يتقدم الآخر لإتمام الفتح، وبهذا فقد رسم أبو بكررضى الله عنه في تصوره خطة فتح العراق كاملة بعد انتهاء المرحلة الأولى بنصر المسلمين، ملامح المرحلة الثانية من القتال ألا وهي التوغل في

---

[١] الطبري: تاريخ الأمم والملوك: جـ٢، ص٢٥٥

[٢] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٥٤:٥٥٣

[٣] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٥٤

بلاد فارس والوصول إلى المدائن عاصمة الفرس آنذاك في أرض العراق، وفي هذه المرحلة على أحد الجيشين أن يبقى في الحيرة كحماية لظهر الجيش الذي يتقدم باتجاه أرض فارس بغية توطيد الحكم، وتطهير الجيوب الخلفية من بقايا الفرس والعرب[١].

كذلك يتضح أن الخليفة كان متمكنا من معرفته لمسرح الأحداث الذي توجه إليه جنوده، بل من طبائع أهل المكان لذلك قال لخالد " سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند وهي الأبلة وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم"[٢]، كما قال لعياض أن يقصد العراق ويبدأ بالمصيخ ويدخل العراق من أعلاه ويسير حتى يلقى خالدا[٣]، وتنفيذا لأوامر الخليفة فقد خاض المسلمون في جبهة العراق عدة معارك أهمها: ذات السلاسل، نهر مكيل، الولجة، أليس، الحيرة، الأنبار، عين التمر، دومة الجندل، الحصيد، الخنافس، المصيخ، المثنى، الزميل، الفراض[٤].

كان عدد الجيش بقيادة خالد ثمانية عشر ألف مقاتلٍ. دخل العراق في عشرة آلاف، وانضم إليه بعد الدخول قادة القوات العراقية وكانوا أربعة، مع كل واحد ألفا مقاتل، وهم المثني بن حارثة الشيباني، ومذعور بن عدي، وحرمله بن مريطة التميمي وسلمى بن سلمى القين التميمي[٥]، أما عدد الجيش بقيادة عياض بن غنم، فلم تذكر المصادر حجم هذا الجيش، وإنما يفهم من التكليف الذي أمر به أبو بكر الصديق إلى هذين الجيشين أن جيش عياض يقل عدداً عن جيش خالد[٦].

---

[٣] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٥٤، محمد ضاهر وتر: الريادة، ص ١٠١.

(١) الطبري: ج ٢ ص ٥٥٩ .

(٢) الطبري: ج ٢ ص ٥٦٠ ، ابن الأثير، ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٣) ابن الأثير :الكامل في التاريخ، ص٣٩٩،٣٨٤

(٣) الطبري: تاريخ الأِمم والملوك: جـ٢، ص٥٥٤

[٥] الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٢، ص٥٥٣، وما بعدها

وكذلك فإن الجيش الفارسي، لم تتعرض المصادر إلى حجمه أيضاً، وإنما يمكن الاستدلال على الحجم من الخسائر إذ خسر هذا الجيش في معركة المذار ثلاثين ألفاً، وفي أليس سبعين ألفاً، وكذلك فإن لكل معركة وقعت في أرض العراق عدداً من الجنود يختلف عن المعركة الأخرى، وبالإضافة إلى ذلك فإن عدد الجيش الذي يقوده أحد قادة الفرس إنما يبلغ عشرة آلاف. فإذا كانت هذه الدلائل كافية فإن الجيش الفارسي كان في كل معركة يتفوق بعدده على الجيش العربي. وإذا جمع عدد الذين اشتركوا في القتال في أراضي العراق من الفرس والعرب في الجيش الفارسي لشكلوا رقماً بالتأكيد أعلى من رقم الجيش العربي[1]. ولعلنا نأتي هنا ببعض المعارك التي خاضها العرب مع الفرس في فتوحات العراق على عهد أبي بكر الصديق على سبيل المثال لا الحصر وأهمها:

موقعة الأبلة أو ذات السلاسل (كاظمة) ١٢هـ/٦٣٣م:

تحرك المسلمون من اليمامة باتجاه الشمال بقيادة خالد بن الوليد، وناور خالد بن الوليد ليخفي وجهته فوصل الحفير أولا، وقد أراد بتوجهه للحفير أولا تضليل الجيش الفارسي، والتأثير على حالته النفسية والمعنوية بتشتيته وإنهاك قوته. ثم عاد إلى كاظمة. وتحرك الجيش الفارسي من الأبله باتجاه الجنوب بقيادة هرمز، وتوقع أن يلتقي بالمسلمين وخالد بن الوليد في كاظمة. وعندما وصلها فلم ير أثراً لخالد، ولما علم أنه تحرك باتجاه الحفير تبعه، غير انه استطاع أن يسيطر على منافذ المياه بالسهل، فلما عاد خالد إلى كاظمة استقر بجيشه وخطط لإدارة المعركة في سهل كاظمة. وبالرغم من أن هرمز قائد الفرس كان قد سيطر على الماء في كاظمة ألا أن قائد المسلمين أستطاع أن يجعل من ذلك الأمر مدعاة في أن يستبسل الجند في القتال لآجل الماء، وقال لأصحابه:" حطوا اثقالكم ثم جادلوهم على الماء، فلعمري ليصيرن لأصبر الفريقين وأكرم الجندين"[2].

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ٢، ص٥٦٢،٥٥٨

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٣٨٥/٢، ٣٨٦

التقى الجيشان في سهل كاظمة، وهو يقع أمام البلدة. وهو مرج سهلي مستطيل، وفي الشمال الطريق الموصل إلى الأبلة، وفي الجنوب الطريق الموصل إلى اليمامة، بدأت المعركة بالمبارزة بين قائدي الجيشين المتقاتلين، وما لبث خالد أن قضى على خصمه، فاتبعه مباشرة بهجوم صاعق وسريع أدى إلى ارتداد الفرس إلى الخلف، واستمر الضغط، وخرقت جبهتهم، فلم يستطيعوا القيام بالهجوم المعاكس، واحتل معسكر الفرس الذين انسحبوا وتراجعوا، وجرت مذبحة كبيرة وخاصة لأولئك الذين ربطوا بالسلاسل لكي لا يفروا من ميدان المعركة، وكان للقعقاع بن عمرو دور كبير في هذا النصر، عندما حمل بجماعة من فرسان المسلمين على حامية هرمز، وانتهت المعركة بأول انتصار للمسلمين على الفرس حيث ثبتت فيها قوة الجيش الإسلامي وجرأته على خوض المعارك أمام أعتى الجيوش آنذاك عدة وعتادا، حيث دق المسلمون بهذه المواجهة الحاسمة أول مسمار في نعش الإمبراطورية الفارسية الكبرى[1].

فتح الحيرة ربيع الأول ١٢هـ/٦٣٣م:

أحس أمير الحيرة الآزاذبه بالخوف نظرا لاقتراب خطر المسلمين منه، وكانت أخبار خالد بن الوليد رضى الله عنه وبطولاته وانتصاراته قد طبقت أفاق البلاد، وكان خالد بن الوليد رضى الله عنه قد تابع تحركه باتجاه الحيرة، وكان حاكمها قد تهيأ وخرج من المدينة لملاقاة المسلمين، وقرر آزاذبه الدفاع عن المدينة بمساعدة ملك الحيرة إياس بن قبيصة الذي كان اسماً فقط؛ إنما الحاكم الفعلي هو الفارسي آزاذبه. حاول الحاكم الفارسي منع القوات العربية من التقدم، فأرسل ابنه فسد مجرى النهر خشية أن يفكر خالد باستخدام السفن التي استولى عليها من أمغيشيا في النقل والعبور؛ لكن المسلمون لم يتوقفوا فقضوا على من قابلهم مع ابن الآزاذبه، وفجر النهر وجرت المياه، ولما علم بذلك هذا الحاكم هرب وترك المدينة، ودخل المسلمون ظافرين منتصرين، وبقيت بعض القصور التي

---

[1] الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ٢/٥٥٦، ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٢/٣٨٥، ٣٨٦،

يسكنها الأمراء العرب الذين تحصنوا بداخلها فحوصروا حصارا شديدًا، من قبل قادة جند المسلمين، وقد أمرهم خالد بدعوة الناس للإسلام، فإن أجابوا قبلوا منهم، وإن أبوا أجلوهم، لكن القوم أبوا وعمدوا برمي المسلمين بالحذف، فرشقهم المسلمين بالنبال، وشنوا عليهم غارات، فما كان أمامهم إلا طلب الصلح والجزية، وصالحوه على مئة وتسعين ألفا، وكتب لهم عهد أمان واشترط عليهم أن لا يبغوا على المسلمين غائلة، وأن يكونا عيونا على أهل فارس[1]، وبهذا تحقق بعض أمل للمسلمين وخليفتهم في فتح العراق العربي، وبقي الجزء الأهم وهو فتح بلاد فارس، وخاصة أن دهاقين المناطق المجاورة، تهافتوا متتابعين على خالد *رضى الله عنه* في مدينة الحيرة والتي اتخذ منها مركزا له طلبا للصلح، وعقدوا معه عقد الجزية، وأصبحوا موالين للمسلمين.

فتح دومة الجندل بالعراق ١٢هـ/٦٣٣م:

كان احتياج عياض بن غنم للمدد سببا في أمر الخليفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه لخالد بالتوجه إلى دومة الجندل لنصرة جند المسلمين بها، وكان في نية خالد بن الوليد رضى الله عنه وجنده أن يتم فتوحاته ويستولي على الشمال العراقي لولا أن جاءته تلك الأوامر بخبر عياض بن غَنْم طالباً المدد والمساعدة [2]. فما كان منه إلا أن توجه فوراً مع جزء من جيشه إلى دومة الجندل، والتي كانت على درجة كبيرة من التحصين ، يقود جيشها المدافع عنها أكيدر بن عبد الملك، والجودي بن ربيعة في جمع غفير من قبائل العربية التي تحالفت للوقوف في وجه المسلمين، هذا الأمر الذي جعل عياض بن غنم غير قادر على فتحها، تنبه المدافعون عن المدينة لتحرك ابن الوليد رضى الله عنه، فأصابهم الخوف ونصحهم أكيدر بالصلح، لكنهم لم يسمعوا لكلامه. أعاد خالد تشكيل الجيش بعد

---

[1] الطبري: تاريخ الأمم والملوك،جـ٢، ص٥٦٣، ٥٦٤، الخضري: اتمام الوفاء، ٤٦، ٤٧.

[2] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٧٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٣٩٥.

انضمامه لجيش عياض بن غنم، فأمر عياض أن يكون من الجزء الجنوبي، وأن يقطع طرق الجزيرة العربية، وأن يسد المنافذ من كل الاتجاهات، وأن يكون الحصار كاملا. ونفذ المسلمون الحصار، وطال الحصار فنفذت مؤونة المحاصرين، ورأى الجودي أن لا مناص من هذا الحصار إلا بالخروج من الحصون، ومهاجمة القوات المحاصرة من الشمال والجنوب، وهذا ما كان يريده خالدا رضى الله عنه، فما أن خرج الجودي من المدينة وابتعد عنها، حتى أمر خالد بالهجوم السريع والعنيف، وما إن مضت لحظات معدودات حتى كان الجودي والقبائل الموالية تفر كقطيع الأغنام. وأُسر الجودي ومن معه من الزعماء وضربت أعناقهم أمام المقاتلين الذين لا يزالون داخل الحصن يدافعون عن المدينة. وهنا خارت عزيمتهم، وظل خالد *رضى الله عنه* ضاغطاً ومهاجماً حتى فتح المدينة. ثم عاد خالد بصحبة عياض إلى الحيرة[1].

الفتوحات بعد دومة الجندل:

استغلت القيادة الفارسية هذا الظرف العارض الذي ابتعد به خالد بن الوليد *رضى الله عنه* لينقذ عياضاً في دومة الجندل، وأخذت تعد العدة، وتؤلب القبائل العربية التي فجعت بقتلاها وأسراها، وتكوَّن بذلك جيشٌ كبير بقيادة بهمن الذي قسمه إلى قسمين أحدهما بقيادة روزبه الذي تحرك من المدائن إلى الحصيد والثاني بقيادة زرمهرالذي تحرك أيضاً من العاصمة إلى خنافس، وكان على هذه القوات أن تجمع القبائل بمجرد الوصول إلى منطقة القبائل؛ لكن هذه القبائل كانت متباعدة عن بعضها، فمنها ما هو بالمصيخ، ومنها ما هو بالثني والزميل. ترك خالد رضى الله عنه الحيرة بعد أن عين لها عياضاً، وتقدم نحو عين التمر التي غادرها منذ مدة إلى دومة الجندل، فنظم الجيش، وقسمه إلى ثلاثة تشكيلات أحدهم بقيادة القعقاع بن عمرو، والثاني بقيادة أبي ليلى بن فدكي، والثالث بقيادة

---

[1] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢ ، ص٥٧٩.

خالد بن الوليد رضى الله عنه[١]. وحددت المهام. فالأول عليه أن يتصدى لروزبه ويحتل الحصيد، والثاني أن يتصدى لزرمهر ويحتل الخنافس. نجح الأول في تدمير عدوه، وأبطأ الثاني في تحركه وملاقاة عدوه، فانسحب إلى مصيخ، وكذلك تجمعت كل القوات الفارسية والعربية المتحالفة في هذا المكان. وهنا أيضاً أعيد تشكيل جيش المسلمين على أساس جيش واحد، ليقابل ذلك التجمع الكبير، وليتمكن من التفوق. وسارت التشكيلات لتلتقي جميعها بالمصيخ[٢]. وفي نقطة الالتقاء هاجم المسلمون المقاتلين من الفرس والعرب، وأصابوا منهم مقتلاً، وركز خالد *رضى الله عنه* الفتك بالعرب المتحالفة فنال من هذيل، وقتل منهم مقتلة عظيمة[٣].

اتجهت القوات المهزومة من العرب والفرس، وتجمعت في الثني والزميل، وكان من خطة خالد رضى الله عنه ألا يترك لهم مجالاً للراحة، ولا لإعادة وتنظيم قوتهم فأتبعهم بجيش قسمه إلى ثلاثة جيوش. جيش في الوسط وميمنة وميسرة وسار بسرعة، وما إن وصل الثني حتى أمر بمهاجمة التجمع المختلط، فقضى عليه. ثم تابع تحركه وضغطه من الزميل إلى الثني، فأتم تدميره للقوات الفارسية، والقبائل العربية المتحالفة[٤].

تحرك المسلمون بعد نجاحهم إلى الفراض، واحتشدواعلى الضفة الغربية لنهر الفرات؛ أما القوات المتحالفة من الفرس والروم والعرب، وهذه هي المرة الأولى التي يشارك فيها الروم ضد المسلمين في حرب [٥]، فكانت على الضفة الشرقية. دعا كل فريق الآخر إلى عبور النهر، وأخيراً عبرت القوات المتحالفة، وكان المسلمون متخذون أهبتهم استعدادا لقتالهم، وما إن عبرت تلك القوة حتى

---

[١] الطبري: تاريخ الأمم والملوك: جـ٢، ص ٥٧٩،٥٨٠.

[٢] ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص٣٩٧.

[٣] ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص٣٩٧.

[٤] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٣٩٨، ٣٩٩.

[٥] عفاف صبرة: الخلفاء الراشدون، ص١٠٣.

هاجموهم بسرعة خاطفة، ثم جزأهم، وفصل كل مجموعة عن الأخرى، واستطاع أن يقضي خالد *رضى الله عنه*بعبقريته الحربية عليهم جميعا. ثم انسحب وعاد إلى الحيرة [١].

بقي خالد بن الوليد رضى الله عنه في الفراض فترة، ثم رجع إلى الحيرة، ومنها سار إلى مكة في رحلة خاطفة سريعة أدى فيها حج عام ١٢هـ، ثم عاد مرة أخرى إلى الحيرة ببلاد العراق، ليؤكد بذلك الوجود العربي الإسلامي في حكم العراق، وانخراطها في بوتقة الدولة الإسلامية تحت حكم الخليفة الراشد أبي بكر الصديق *رضى الله عنه*، غير أن الأمور تبدلت بعدما تلقى خالد بن الوليد الأوامر من القيادة العليا في المدينة النبوية، بالتحول إلى الجبهة الأخرى، والتي تستكمل بها منظومة نشر الإسلام والفتوحات الإسلامية، حيث أمره أبو بكر *رضى الله عنه* بالمسير إلى بلاد الشام لمواجهة الروم[٢].

الفتوحات في بلاد الشام.

جاء فتح الشام بعد فتح العراق في زمن أبي بكر الصديق، وقد كان أبو بكر يتوق إلى فتح الشام؛ إلا أنه فوجئ بالمثنى قادماً عليه يستحثه على الحرب في العراق، ويزين له فتح الأراضي العراقية والقضاء على حكام الفرس[٣]، ولهذا لما فرغ من العراق وجه جيوشه إلى بلاد الشام مباشرة[٤].

وقد اتخذ أبو بكر الصديق رضى الله عنه الإجراءات والأعمال العسكرية، والتي تميزت برؤىً واضحةٍ، لتخطيط عسكري كبير ، شملت حسن اختياره لقادة الجيوش التي كلفها بالفتح، وكيفية توجيههم إلى مناطق تكليفهم بما يساعدهم من نصائح في هيئة أوامر من القائد العام، تعينهم على استكمال مهمتهم، ورعايتهم لمن

---

[١] الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٨٣.

[٢] نهلة أنيس مصطفى: دولة الإسلام في ظل حكم الخلفاء الراشدين، ص١٧٩.

[٣] البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٤٢.

[٤] البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٠، الخضري: إتمام الوفاء، ص ٥٤ وما بعدها.

سيلقونهم من أهل تلك البلاد، وراعى في نصائحه الأهمية الروحية للإسلام، وبني ذلك على تعبئة عامة للقوى والوسائط المتوفرة، وأسس سليمة مبنية على القواعد العملية العلمية الصحيحة والدعائم التي تشربها من حروب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أرسل أبو بكر الصديق إلى عمرو بن العاص يستشيره في أمر التوجه إلى جبهة الشام، وكان أبو بكر قد وجهه إلى عمان، فكتب إليه يقول" قد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك، فكتب إليه عمرو أني سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها فأمره "[1]؛ هكذا يكون الخليفة فيستشير قائده ويخيره في الوجهة التي يرى فيها مصلحة الدولة، وتكون القيادة الواعية المتفهمة عندما يستجيب عمرو للخليفة ويطلب منه أن يوجهه إينما تكون مصلحة البلاد والعباد.

ومن دلائل اهتمام أبو بكر الصديق رضى الله عنه بأمر الشام، إرساله في طلب استدعاء خالد بن الوليد رضى الله عنه لمساعدة جند المسلمين بها قبل استكمال فتح بلاد العراق؛ لكنه اكتفى بالبلاد والأراضي العراقية المجاورة لشبه جزيرة العرب، والتي تكفل الحماية المبدئية للجزيرة العربية وعاصمة الإسلام في المدينة النبوية، ويتجه بقوات أكبر لاستكمال فتح الشام.

قادة الفتح:

عين أبو بكر قادة من كبار الصحابة الذين يشهد لهم بالكفاءة وحسن القيادة والتصرف وهم:

١- جيش بقيادة يزيد بن أبي سفيان وهو أول الجيوش التي تقدمت لبلاد الشام، ومهمته فتح دمشق، وقد سلك إليها من طريق تبوك، وكان قوامه أولا ثلاثة آلاف، ثم مدة الخليفة بمدد فصار تقريبا سبعة آلاف.

---

[1] الطبري: ج ٢ ص ٥٧٧ ، ابن الأثير، ج ٢ ص ٢٧٦ .

بست تجمعات يبلغ عدد كلّ تجمع خمسمائة مقاتل أي بمجموع ثلاثة آلاف. اشتبك أبو أُمامة مع هذا الجمع، وقُتل أحد قادة تلك التجمعات[١].

غير أن حرص يزيد بن أبي سفيان على الانتصار في تلك المعارك الأولية والتي ترفع من الروح المعنوية للمجاهدين فقد أمد أبو أمامة الباهلي بمدد بلغ ما يقرب من خمس مئة مجاهد[٢]، وظل هو خلف صفوف تلك الطليعة بقيادة إبيأمامة، لكي يكون ردءا لهذه الكوكبة من الجند التي جاهدت في موقعة عربة، وأيضا لكي لا يدفع بكل جنده دفعة واحدة أمام جند الروم، فالمهام أماهم مازالت طويلة، وكان أن انتصر أبي أمامة، وهرب الروم، وبدأت المطاردة، والتجأ الجيش المهزوم إلى مكان يقال له دائن، فتبعهم يزيد بجيشه ولم ينفصل عن القوات الرومية وظل على تماس مباشر معهم. وحاول الجيش الرومي إعادة ترتيب جنوده بعد مطاردات المسلمين لهم، إلا أن القوات الإسلامية لم تسمح لهم بإعادة التنظيم، أو حشد القوى، فهاجمهم يزيد بكامل جيشه فقضى عليهم[٣].

تعتبر هذه المعركة أول المعارك التي وقعت بين جيش المسلمين من العرب وبين والروم على أرض الشام، وهنا حرص يزيد على كسر شوكة الروم من أول معركة، وفعلاً فإن هذا التلاحم قد أوقع الرعب في قلوب الروم، لما وجدوا عليه المسلمين القوة والجرأة في القتال، وأيضا قد جرّأ المسلمون على اقتحام المواقع الرومية، وظلوا بعدها ينتقلون من نصر إلى نصر.

معركة اليرموك:

قد علمت الإدارة الرومية بقيادة إمبراطور الروم هرقل(٦١٠-٦٤١م) [٤]، بما صار إليه الأمر على الجبهة الإسلامية، وأن المسلمين حشدوا الجنود للزحف

---

[١] ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٢، ص٤٠٦.

[٢] الواقدي: فتوح الشام، جـ١، ص٣٧

[٣] الأزدي: فتوح الشام، ص٥٢.

[٤]عفاف صبرة: تاريخ الدولة البيزنطية، دار المسيرة ، ط١، الأردن ٢٠١٢، ص١٤٨.

على بلاد الشام، وتوغلت جيوشه فيه وقاموا بانتصارات خاطفة على الروم، وعلى إثر هذه الأنباء انتقل هرقل من القسطنطينية إلى أنطاكية أولا ثم إلى حمص، لكي يكون قريبا من مسرح الأحداث، ويكون وجوده دافعا لجنوده في مواصلة القتال وصد المسلمين، وقد أعلن حالة الاستنفار الكبرى في بلاده، وأخذ في إعداد جيشه بعدة وعتاد كانت على درجة كبيرة من التسلح، وقام بإعداد الخطط العسكرية اللازمة لمواجهة المسلمين، وكانت كل هذه الأخبار قد تواترت إلى المسلمين.

وما إن علمت القوات الإسلامية بالتجهيزات البيزنطية، حتى كاتبوا عمر بن العاص رضى الله عنه ليتشاوروا فيما بينهم على خطط المرحلة التالية، فأشار عليهم عمرو بأن يتجمعوا على نهر اليرموك، وكان أبو عبيدة رضى الله عنه، قد أرسل إلى أبي بكر الصديق ليعلمه بما هم مقدمون عليه وأن الأوضاع بالشام جد خطيرة، فأرسل أوامره إلى خالد بن الوليد رضى الله عنه، بسرعة الرحيل إلى بلاد الشام لمساعدة جيوشها في مقابلة جحافل الروم الزاحفة إليهم. وأن يترك قيادة الجيوش للمثنى بن حارثة الشيباني[١].

وبالفعل بدأت القوات الإسلامية في الحذر والحيطة خشية أي هجوم بيزنطي مباغت عليها، وأخذوا في الانسحاب بجيوشهم ليتلاقوا على نهر اليرموك. فكان أن تجمع به أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه بجيشه، وشرحبيل بن حسنة رضى الله عنه بجيشه، وعمرو بن العاص رضى الله عنه بجيشه، وجاء يزيد بن أبي سفيان من دمشق بجيشه، ولقد بشر بهذه المعركة أبو بكر الصديق رضى الله عنه قبيل وفاته[٢].

---

[١] خلاصة تاريخ ابن كثير: ص٩١.

[٢] هناك اختلاف بين المؤرخين في تاريخ حدوث هذه المعركة. فالطبري وابن كثير يقولان إنما حدثت في سنة ١٣هـ/٦٣٦م؛ أما ابن عساكر ومن أخذ منهم مثل الوليد بن مسلم فقالوا بحدوثها عام ١٥هـ/ ٦٣٨م . الطبري: التاريخ، جـ٣، ص١٠٢، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق: جـ١،ص٤٨٣.

بلغ ذلك هرقل فكتب إلى بطارقته أن اجتمعوا وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب، وعين عليهم قائده تيودور فنزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم. انتقل المسلمون من عسكرهم الذي اجتمعوا به، فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم فقال عمرو: أيها الناس، أبشروا، حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير![1].

تسلم خالد القيادة العسكرية وبث في قلوب المؤمنين الإيمان بنصر الله وقوى عزائمهم، وقام أبو عبيدة أمين الأمة رضى الله عنه بوعظ المسلمين، وقام عمرو بن العاص بدور هام من حيث إرشاد المقاتلين بإرشادات قتالية هامة، فهكذا نجد المعسكر الإسلامي في اليرموك متماسك الأطراف والقيادة، ولم يكن هناك أي تأثير لتغير القيادة في المعركة ما بين علمين من أعلام الإسلام هما سيف الله المسلول وأمين الأمة[2].

نهج خالد بن الوليد خطة حربية جديدة وهي تقسيم الجند إلى ستة وثلاثين كردوسا، كل كردوس ألف رجل وجعل عليهم أميرا يتولى قيادتهم، وجعل أبو عبيدة رضى الله عنه، على القلب، وعلى الميمنة عمرو بن العاص رضى الله عنه، ومعه شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه، وعلى الميسرة يزيد بن أبي سفيان رضى الله عنه، وكان هو على رأس جيش المسلمين في اليرموك، ولم يلبث الفريقان أن اشتبكوا في قتال ضار انتهي بانتصار المسلمين نصرا مؤزرا، واندحار الروم الذين أخذوا في الفرار من المعركة، وأعمل فيهم القتل والأسر، وتناهت تلك الأخبار إلى هرقل المقيم آنذاك بأنطاكية بعد خروجه من حمص، على أثر أخبار المعركة التي دارت بين عمرو بن العاص وخلد بن الوليد، ضد الروم في سهل أجنادين، وقد دحر فيها المسلمين الروم، ولما بلغت أخبار

---

[1] البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٢١. خلاصة تاريخ ابن كثير: ص٩١.

[2] عفاف صبرة: الخلفاء، ص ١٠٩.

الدولة الإسلامية إلى أقاليم شتى، لذلك اختار بعد أن استشار كبار الصحابة عمر بن الخطابرضى الله عنه، وسيتضح ذلك بالتفصيل في عهد عمر رضي الله عنه.

الخليفة الراشد الفاروق عمر رضى الله عنه (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م):

نسبه ونشأته

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، ويكني بأبي حفص، يجتمع نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جده السابع من جهة أبيه وفي جده السادس من جهة أمه.

ولد رضي الله عنه بمكة بعد عام الفيل (٥٧١م) بثلاث أو أربع عشره سنه أي عام ٥٨٤م، أو ٥٨٥م وتربي في قريش فرعي الغنم واشتغل بالتجارة وسافر إلي بلاد الشام فاكتسب من التجارب والخبرات ما كان له أبلغ الأثر في صقل أفكاره وتوسيع مداركه.

وكانت له رضي الله السفارة في الجاهلية، فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينها أو بينها وبين غيرها أرسلته سفيراً، وإذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافراً أو مفاخراً[1].

والفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أحد السابقين الأولين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد كبار علماء الصحابة وزهادهم وأحد أصهار النبي صلى الله عليه وسلم.

روي له عن النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة وتسعة وثلاثون حديثاً، وروي عنه كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم، عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وأبو ذر، وابن عباس وغيرهم.

إسلام عمر:

أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه جهراً وأسلم الناس خفية، وهاجر جهراً وهاجر الناس سراً، وقد صدقت دعوه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال:

---

(١) السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص ١٠٨.

اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام. لقد كان لإسلامه رضي الله عنه قوة ودعماً للمسلمين فقد كانوا يصلون سراً، وبإسلامه صلوا جهراً وعلانيه إلي جوار الكعبة، وبإسلامه عاد المهاجرون الأولون من الحبشة إلي مكة، وبإسلامه قويت شوكه المسلمين. وحديث إسلامه رضي الله عنه ترويه لنا المصادر فتقول: يقول عمر: خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته قد سبقني إلي المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة فجعلتني أتعجب من تأليف القرآن، فقلت والله هذا شاعر كما قالت قريش، فقرأ: إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر، قليلاً ما تؤمنون، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع[1].

وقال: كنت أشد الناس علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما أنا في يوم حار بالهاجرة في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل فقال: عجباً لك يا بن الخطاب !! إنك تزعم أنك و أنك وقد دخل عليك الأمر في بيتك، قلت: وما ذاك ؟ قال: أختك أسلمت، فرجعت مغضباً حتي قرعت الباب، قيل من هذا ؟، قلت: عمر، فتبادروا فاختفوا مني، وكانوا يقرأون صحيفه بين أيديهم، فقامت أختي تفتح الباب، فقلت: يا عدوة نفسها أصبأت ؟ وضربتها بشيء كان في يدي علي رأسها، فسال الدم وبكت، فقالت: يا بن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل فقد صبأت، قال: فدخلت حتي جلست علي السرير، فنظرت إلي الصحيفة فقلت: ما هذا ؟ ناويلنيها، قالت: لست من أهلها، إنك لا تطهر من الجنابة وهذا كتاب لا يمسه إلا المطهرون، فما زلت بها حتي ناولتنيها ففتحتها فإذا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما مررت باسم من أسماء الله تعالي ذعرت فالقيت الصحيفة، ثم رجعت إلي نفسي فتناولتها فإذا فيها ﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾ فذعرت فقرأت إلي: ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾ فقلت أشهد ألا لا إله الا الله، فخرجوا إلي مبادرين

---

[1]- انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى – ج ٣ ص ٢٧٠. والسيوطي : تاريخ الخلفاء – ص ص ١١٠:١١٦

الله عليه وسلم المشاهد كلها، وكان له دوره المشهود في بدر وأحد والخندق كما كان له اللواء في غزوه خيبر[1]

وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحاديث الدالة علي منزلته وقدره بين صحابته فقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما في السماء ملك إلا وهو يوقر عمر ولا في الأرض شيطان إلا وهو يفرق من عمر.

وأخرج ابن ماجه والحاكم عن أبي بن كعب قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: أول من يصافحه الحق عمر، وأول من يسلم عليه، وأول من يأخذ بيده فيدخل الجنة[2]

ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي الرفيق الأعلى فزع الفاروق ولم يكد يصدق ما حدث، فهدأ الصديق رضي الله عنه من روعه وخرجا سوياً ليحسما الموقف ويرعيا شئون المسلمين في فترة من أدق فترات تاريخهم.

وفيه قال الصديق رضي الله عنهما: ما علي ظهر الأرض رجل أحب إلي من عمر، ومن ثم كان وزيره ومستشاره وقاضيه ورفيق جهاده خلال خلافته علي المسلمين، ولثقة الصديق في الفاروق رضي الله عنهما عهد له بالخلافة ليكون ذلك العهد أول عهد مكتوب يولي به خليفة المسلمين.

خلافة الفاروق:

واستقبل الفاروق رضي الله عنه خلافته للمسلمين ودولة الإسلام قد اتسعت أرجاؤها، وزادت أعباؤها، وتعددت المسئوليات الملقاة علي عاتقها باعتبارها قوه جديدة أخذت تتبوأ مكانتها اللائقة بها في المنطقة، وقت أن شاخت الإمبراطورية البيزنطية، وهرمت دوله الأكاسرة، وانهارت هيبتها الحضارية.

---

[1]- السيوطي : تاريخ الخلفاء – ص ١١٧ وقارن ص ص ١١٨، ١١٩

[2]- المصدر نفسه

بدأ الفاروق رضي الله عنه من حيث انتهي الصديق، فقد كان رضي الله عنه حريصاً علي وحدة الأمة الإسلامية، حريصاً علي الحفاظ علي البناء التي أقامه وحافظ عليه مع صحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم دعا عثمان بن عفان، وأمره أن يكتب عهداً للفاروق بالخلافة فكتب ذو النورين:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة للمسلمين، أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً منه[1].

وكان الصديق رضي الله عنه حين عهد الي الفاروق دفع بالعهد للناس ودخل عليه المهاجرون والانصار يراجعوه في أمر استخلافه لعمر، فأمر أن تجمع له الناس، فلما اجتمعوا خاطبهم قائلاً: أيها الناس: قد حضرني من قضاء الله ما ترون، وإنه لا بد لكم من رجل يلي أمركم ويصلي بكم ويقاتل عدوكم، فإن شئتم اجتهدت لكم رأيي، ووالله الذي لا إله الا هو لا ألوكم في نفسي خيراً، فبكي وبكي الناس وقالوا: يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا، وسأل الصديق رضي الله عنه رجال الأمة: أترضون بمن استخلف؟ فإني والله ما آلوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، فقالو: سمعنا وأطعنا.

ثم أحضر أبو بكر عمر فقال له: إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصاه بتقوى الله ثم قال:" يا عمر إن لله حقا بالليل ولا يقبله بالنهار، وحقا بالنهار ولا يقبله بالليل وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة. ألم تر يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق، وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا حق أن يكون ثقيلا. ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته

---

[1]- هناك روايات متعددة لهذا العهد، قارن الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٤٢٩ وابن قتيبة : الإمامة والسياسية ج١ ص ٢٤ وانظر حميد الله وثائق من عهد النبوة والخلافة الراشدة ص ٣٢٦.

عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا. ألم تر يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء، ليكون المؤمن راغبا راهبا، لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه. ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو ألا أكون منهم وإنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سيئ فإذا ذكرتهم قلت أين عملي من أعمالهم، فإذا حفظت وصيتي فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزة"[1].

هكذا رسخت وأكدت هذه الوصية التي أوصى بها أبو بكر عقد الخلافة لعمر بن الخطابرضى الله عنه، والذي بمقتضاه مارس شؤون الحكم في الدولة الإسلامية بعد وفاة أبي بكررضى الله عنه، وليبدأ مع الفاروق رضى الله عنه عهد من أهم عهود خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشدين.

واستهل الفاروق رضي الله عنه خلافته بعد البيعة الكبرى له بأن جلس في الناس وبيده الجريدة التي احتوت عهد الصديق رضي الله عنه وعقده بالخلافة له فقال: أيها الناس اسمعوا و أطيعوا قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أعلن للناس مناهجه في الحكم وقال: أيها الناس إني قائل كلمات فأمنوا عليهن: إنما مثل العرب كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر حيث يقود، أما أنا فورب الكعبة لأحملنهن علي الطريق، فكانت هذه أول كلمات نطق بهن من علي منبر المسجد في المدينة.

وتولي الفاروق عمر رضي الله عنه أمر المسلمين، وبذل جهوداً كبيرة في وضع أسس التنظيمات الإدارية والاقتصادية والقضائية للدولة الإسلامية، ففي المجال الإداري دون الدواوين و أقام الجهاز الإداري للدولة، وفي المجال الاجتماعي حدد القواعد التي سار وفقها المجتمع الإسلامي علي أسس من التكافل والتراحم، ونظر في الأسس الاقتصادية للدولة الإسلامية فرأي ضرورة إحصاء الناس

---

(٢) ابن الأثير: ج٢، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

وحصر الجنود ومعرفه الدخل وتنظيم الإنفاق مراعاة لمطالب الأمة واحتياجات الجهاد، وإما فيما يتعلق بالقضاء فقد أرسي الفاروق أسسه من خلال دستوره الذي يعد الدستور الأول للقضاء واهتم بموضوع الحكم والسياسة فأسس للمسلمين مجلس الشوري الذي أناط به مسئولية اختيار وترشيح الحاكم الجديد، أما فيما يتعلق بالفتوحات الإسلامية، فقد ,واصل ما بدأ في عهد الصديق، ووصلت جيوش المسلمين إلي أراضي الدولة البيزنطية والدولة الفارسية، ودخل الإسلام إلي تلك البلاد بأسرها.

التنظيمات الإدارية:

نظر الفاروق رضي الله عنه أول عهد بخلافته المسلمين في تنظيم إدارة الدولة وهو في هذا لم يبدأ من فراغ بل اقتدي بالسوابق والشواهد والآثار، فيقول الطبري: في العام الخامس عشر للهجرة دون عمر الدواوين وفرض الفروض وأعطي العطايا علي السابقة.

ويمكن القول أن فكرة تدوين الدواوين في الدولة الإسلامية قد ارتبطت ارتباطاً مباشراً بالفتوحات الإسلامية، فقد دخل المسلمون أراضي جديدة والتقوا بشعوب تغايرهم في نظمها وتقاليدها، ثم إن الفتوحات الإسلامية حملت إلي أولي الأمر مشكلات برزت من مواجهة المسلمين لشعوب البلاد المفتوحة، كما أنها في نفس الوقت أعطت للقوانين الإسلامية فرصة هائلة للتطبيق سواء فيما يتعلق بسياسة الدولة أو أمورها العسكرية أو معاملاتها الاقتصادية، كما يجب أن نوضح أن العقلية الإسلامية حين نقلت حافظت علي أصولها ومقوماتها، وفي الوقت ذاته لم تتعال علي أهالي البلاد المفتوحة، ولم تغمض عينها عن أنظمتها، بل تفاعلت وتعاونت أينما وجدت ذلك مناسباً، ومن هنا شهدت الحضارة الإسلامية تطوراً وصقلاً سريعين في كافة مجالاتها.

أولا: الدواوين:

شهدت الدولة الإسلامية في عصره رضي الله عنه تدوين الدواوين، وهذا يعني أن الدولة بدأت تسجل أمورها الداخلية والخارجية، ذلك أن الدواوين كانت بمثابة الوزارات في العصر الحديث، وقد أنشأ الفاروق رضي الله عنه دواوين ثلاثة هي: ديوان العطاء، وديوان الجند، وديوان الخراج او الاستيفاء.

ديوان العطاء:

لما أراد عمر رضي الله عنه وضع الديوان، سأل الناس، فقال بمن نبدأ، قالوا بنفسك، قال لا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامنا فبرهطه نبدأ ثم الأقرب فالأقرب، ورأي علي بن أبي طالب أن يقسم المال في كل سنة فلا يمسك منه شيئاً، ورأي عثمان رضي الله عنه أن المال مال كثير يسع الناس وإن لم يحصوا حتي نعرف من أخذ ممن لم يأخذ دبت الفوضى، فقال الوليد بن المغيرة، أو خالد بن الوليد: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً، فأخذ بقوله، ودعا الفاروق رضي الله عنه ثلاثة من نسابة العرب: جبير بن مطعم، وعقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وأمرهم أن يكتبوا الناس علي منازلهم.

ورتب الناس في الديوان علي قواعد وأسس بحيث أصبح التقدم في الديوان يعود إلي السبق في الاسلام وجهاد الأعداء، وتأكيداً لقول الفاروق رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو، ما من أحد إلا له في هذا المال أعطيه أو منعه، وما من أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك، وما أنا فيهم إلا كأحدهم، ولكننا علي منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه[1].

---

[1]- الطبري : الرسل والملوك – ج ٤ ص ٤١١

تصدر قائمة العطاء عم النبي صلى الله عليه وسلم وفرض له خمسه وعشرين ألف درهم، ولعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في اثني عشر ألف درهم، وكتب لسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف درهم[1].

وجاء علي ابن أبي طالب كرم الله وجهة بعد أزواج النبي وفرض له في خمسه آلاف درهم، ولمن شهد بدراً من بني هاشم، وألحق الحسن والحسين بأبيهما وفرض لكل منهما في خمسه آلاف درهم.

ويلي هؤلاء من شهد المواقع إلي الحديبية، ثم من الحديبية الي القضاء علي المرتدين، ثم من بعد الردة إلي القادسية، ثم جعل أهل البلاء مراتب وجعل البارع منهم يتصدر قائمة هذا الفريق من العطاء.

كذلك فرض الفاروق عطاء لمن قربت داره أو بعدت عن العدو وفضل من قربت دارة لانهم ينازلون العدو، ويدافعون عن الإسلام، وفرض للنساء والصبيان والأطفال، كما فرض للرضيع، وتروي المصادر أنه أراد أن يجعل العطاء واحداً في أربعة آلاف درهم في العام، ألفاً يجعلها الرجل في أهله، وألفاً يزودها معه، وألفاً يتجهز بها، وألفاً يترفق بها، فمات ولم يفعل[2].

ديوان الجند:

كان إنشاء هذا الديوان ضرروة حتمتها الزيادة الضخمة في عدد جنود المسلمين، فقد قدرتهم المصادر علي عهد الفاروق عمر بما يزيد علي المائة ألف بين أجناد الشام والعراق ومصر، وقد ترتب علي هذه الزيادة ضرورة إحصائهم وترتيب أمورهم ورعاية مصالحهم والإشراف عليهم، وفيه يقول الماوردي: إن هذا الديوان يختص بالجيش من إثبات وعطاء.

---

[1]- ابن سلام : كتاب الأموال – ص ٣٢١

[2]- عن ديوان العطاء : انظر أبو يوسف، الخراج، ص ص ٥١:٤٧، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٦١٣:٦١٥، ابن سلام : كتاب الأموال – ص ٣٢٠، الماوردي : الاحكام – ص ٢٠٢

أما إثباتهم في الديوان فيجيب أن تتوفر فيمن يثبت فيه ثلاثه شروط:

١- الوصف الذي يجوز به إثباتهم

٢- السبب الذي يستحق به العطاء

٣- الحال التي يقدر وفقها عطاؤهم

اما الوصف فيجب أن تتوفر فيمن ينضم إلي ديوان الجند ما يلي:

١- البلوغ ذلك أن الصبي من جمله الذراري المفروض لهم في ديوان العطاء

٢- الحرية ذلك أن المملوك من جملة الذراري المفروض لهم في ديوان العطاء

٣- الإسلام للدفاع عن المله بإعتقاده، ويوثق بنصحه واجتهاده فإن أثبت فيهم ذميا لم يجز، وإن ارتد مسلم سقط.

٤- السلامة من الآفات.

٥- الأقدام علي الحروب ومعرفة القتال.

فإذا تكاملت هذه الشروط كان إثباته في الديوان مرتبطاً بالطلب والإيجاب فيكون منه الطلب إذا تجرد من كل عمل، ويكون لولي الأمر الإيجاب إذا دعت الحاجه إليه.

أما ترتيبهم في الديوان فيقوم علي أساسين:

أولهما: النسب وترتب فيه الأسماء حسب قرابة قبائلها من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وثانيهما: الشجاعة والإقدام في الحرب.

وثالث الشروط: وهو تقدير العطاء فيرتبط بحسب الكفاية.

وهكذا رأي الفاروق رضي الله عنه أن الانتظام في ديوان الجند يعني الالتزام بشروطه، وهي التفرغ التام للجندية والدفاع عن الإسلام، وقد شدد الفاروق علي الشرط الأول حتي يتفرغ الجند للجهاد وألا ينشغلوا بأعمال أخري كالزراعة والتجارة، وقد هدف الفاروق رضي الله عنه من ذلك لأمرين: الأول: عدم منازعه

أهل البلاد المفتوحة علي أراضيهم فهم أصحابها وهم القائمون علي زراعتها، الثاني: أنه خشي أن يتطور الأمر بأجناد الإسلام إلي تملك الأراضي فيتركوا الجندية مما يؤثر علي سير الفتوح.

ديوان الخراج أو ديوان الاستيفاء:

نشأ هذا الديوان بعد أن فتح المسلمون الشام والعراق، وأصبحت الدولة في حاجه ماسة إلي إحصاء خراج البلاد المفتوحة، وتنظيم وجوه الإنفاق ومعرفة كيفية هذا الإنفاق.

ثانيا: القضاء:

شغلت قضية العدل في الدولة الإسلامية بال الفاروق عمر رضي الله عنه فقد كان يهدف إلي تحقيق العدل في أرجاء الدولة ومن ثم شدد أوامره علي ولاة الأقاليم أن يرعوا العدل في أمصارهم، وأن يرعوا الله في الرعية فكان أول من استقضي القضاة في الأمصار.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم صحابته أصول القضاء، وكان يختبر من يوليه عليه، فقد وضع معاذ بن جبل علي قضاء اليمن، فتأكد من أنه يعرف أصول ما هو مكلف بالقيام به، والأسس التي يجب أن يقضي وفقها، سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم: بم ستحكم ؟ قال معاذ: بما أنزل الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن لم تجد؟ قال: سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فإن لم تجد؟، قال: اجتهد رأي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله [1].

ثم إن علياً كرم الله وجهه قد تعلم آداب القضاء علي يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سيره قاضياً علي اليمن فقال له: إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتي تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فقال علي: فما أشكلت علي قضية بعدها.

---

[1]- الماوردي : الأحكام، ص ص- ٦٦،٦٧

وكان الصديق رضي الله عنه يجلس للفتيا في المدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرز من بعده رجال في القضاء من بينهم عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس وغيرهم.

ونظر الفاروق للصديق رضي الله عنهما القضاء في المدينة لعام أو عامين ما اختصم إليه شخصان، فلما استخلف علي المسلمين أولي القضاء عنايه فائقة، وقام بفصله عن السلطة التنفيذية، وأرسل قضاته إلي الأمصار، وحدد سلطة ولاة الأقاليم بالنسبة لهم، ومنعهم من التعرض للقضاة، وذلك انطلاقاً من حرص الفاروق علي أن يضمن العدل للمسلمين في الأمصار المفتوحة مثلما يحفظه في عاصمة الخلافة.

وشهد القضاء في عهده رضي الله عنه خطوة هامة علي طريق التطور من ذلك ما كتبه إلي أبي موسي الأشعري حين ولاه قضاء الكوفة، وإلي معاوية بن أبي سفيان والي الشام، فكان ذلك دستوراً للقضاء في الإسلام.

ولم يقتصر جهد الدولة الإسلامية في إرسائها لقواعد العدل بين الناس علي إقامة نظام القضاء وإرسال القضاة المشهود لهم بالعلم والدين إلي الأقاليم، بل إنها رأت أن تنظر في مظالم الرعية، ومن ثم استنت نظام النظر في المظالم، وهو بمثابة قضاء للاستئناف يحفظ للرعية حقوقها ويرد الظلم عن المظلومين.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر في مظالم الناس ويجلس من أجل هذا في المسجد لينصف المظلوم ويرد الحقوق إلي أصحابها، ولم يقتصر العدل في الإسلام علي المسلمين بل شمل رعايا الدولة من أهل الذمة، حيث ضمن لهم الإسلام المساواة في الحقوق والواجبات أمام القانون الإسلامي وكفل لهم مع هذا حرية العقيدة.

وحرصاً من الفاروق رضي الله عنه علي ضمان العدالة بين الناس اهتم بالحسبة التي برزت كعلامة مميزة في سياسته الداخلية، والحسبة من قواعد الأمور الدينية، باشرها أئمة الصدر الأول بأنفسهم، وباشرها رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وجاء اهتمام عمر رضي الله عنه بها تأسيا بسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأكيداً علي رعاية الفضيلة والسهر علي إقامة أمور الدين وتطبيق أحكامه، وحماية مصالح الناس ورعاية الآداب العامة.

فقد كان رضي الله عنه يعس ليلاً في المدينة يطوف طرقاتها ليتأكد من استتباب الأمن فيها، وكان يتفقد أسواقها ليقف علي جودة المعروض من البضائع وصحة الموازين والمكاييل، مباشراً بذلك وظيفة المحتسب، وقد أولاها قضاته أيضاً وبذلك أصبح من الممكن الجمع بين وظيفة القاضي ووظيفة المحتسب.

ثالثا: الشوري:

جاء الإسلام بمبدأ إنساني غاية في العظمة والروعة، وهو مبدأ الشورى، بل سُميت سورة من سور القرآن الكريم باسم "الشورى"؛ دلالة على أهمية تحقق هذا الشرط في أي شأن من شئون المسلمين.

وعلى الرغم من اختلاف الفقهاء حول آليات تنفيذ هذا المبدأ من ناحية الاختيار أو الوجوب والإلزام، لكنهم مُجْمِعُون على ضرورة تَحَقُّقها بين المسلمين[1] مصداقًا لقوله تعالى: (وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) آل عمران: ١٥٩.

وتُعرَّف الشورى بأنها طلب الرأي ممن هو أهل له، أو هي استطلاع رأي الأمة أو من ينوب عنها في الأمور العامة المتعلقة بها[2]، وعليه فقد اتخذ المسلمون الشورى أصلاً وقاعدة من أصول الحكم وقواعده، وعليها قام ترشيح العدول من المسلمين لمن يرونه أهلاً للقوَّة والإمامة لتولِّي أمرهم؛ ومما يؤكِّد ذلك ويؤصِّله أن الرسول صلى الله عليه وسلملم يترك نصًّا مكتوبًا ولم يستخلف أحدًا ليتولَّى إمامة المسلمين، وإنما ترك الأمر شورى بينهم، وقد روى أبو وائل قال: قيل لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه: ألا تستخلف علينا؟ قال: "ما استخلف رسول الله

---

[1] القرطبى- الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص٢٤٨.

[2] جعفر عبد السلام: نظام الدولة في الإسلام، وعلاقتها بالدول الأخرى ص١٩٩.

صلى الله عليه وسلمفأستخلف، ولكن إن يُرِدِ اللهُ بالناس خيرًا فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم.[1]"

تعتبر الشورى أصلاً من الأصول الأولى للنظام السياسي الإسلامي، وامتدَّت لتشمل كل أمور المسلمين، وتأسيسًا على ذلك فإن الدولة الإسلامية تكون قد سبقت النظم الديمقراطية الحديثة في ضرورة موافقة الجماعة على اختيار مَنْ يقوم بولاية أمورها ورعاية مصالحها وتدبير شئونها، ممَّا يؤكِّد قيمة وفاعلية الإجماع عند المسلمين[2].

لذلك كانت الشورى من الأمور الضرورية الملحة التي يفرضها الإسلام على ولاة الأمور، ويمكن القول: إنها من أهم المظاهر الحضارية التي أسهم المسلمون في إيجادها وإرسائها في المجتمع الإسلامي، وتأثر بها الآخرون، خاصة في أوربا منذ القرن الثالث عشر الميلادي.

ويهمنا أن نلاحظ أن الخليفة في الإسلام لا يمكن أن يُعطي لنفسه حق التعبير عن الإرادة الإلهية، أي أنه لا يملك أن يُصدر تشريعًا، لأن سلطة التشريع لجماعة المسلمين أو مجموع الأمة[3]، وهذا بالطبع في حالة غياب نصٍّ صريح قطعي الدلالة من القرآن والسنة.

تطبيق الفاروق عمر مبدأ الشورى

من أبرز الأمثلة التي تُدلل على رُقي مبدأ الشورى وتفوقه على غيره من الآليات والوسائل المستحدثة في تولية الحاكم، ما لمسناه في واقع الخلفاء الراشدين، فعندما طُعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقارب الأجل، سأله الصحابة أن يترك عهدًا لمن سيخلفه فرفض، بيد أنه جعل البيعة في ستة من صحابة رسول

---

[1] رواه الحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة رضى الله عنهم، باب أبي بكر الصديق (٤٤٦٣).

[2] فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية ص٢٤، ٢٥.

[3] السنهوري- فقه الخلافة ص١٢٢.

الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين أجمعت الأمة على صلاحهم والالتفاف حولهم، ومن ثَمَّ قرَّر عمر رضى الله عنهأن يوقظ أمر الشورى بين المسلمين، فقال: "عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :إنهم من أهل الجنة .سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه منهم، ولست مدخله[1]، ولكن الستَّة: عليٌّ وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والزبير بن العوامرضى الله عنه حواريُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، وطلحة الخير بن عبيد الله رضى الله عنه، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا وَلَّوا واليًا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه، إن ائتَمَن أحدًا منكم فليؤدِّ إليه أمانته.[2]"...

وبعدما فرغ المسلمون من دفن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، اجتمع مجلس الشورى، وفي داخل هذا المجلس المحدَّد عددًا بستة أفراد، وزمنًا بثلاثة أيام، استطاع المجتمعون أن يفرغوا من الأمر بسلام، حيث تمكَّنوا من تولية عثمان بن عفان رضى الله عنه، وكان أولُ المبايعين المنافسَ الأول علي بن أبي طالب رضى الله عنه، وهذا دليل على رُقي نظام الشورى الإسلامي القائم على احترام حرية الأمة في الاختيار، فأهل المدينة قد وافقوا على ترشيح عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمن عَيَّنهم لأمر الخلافة، ولم يكن هذا الترشيح من عمر رضى الله عنه قسرًا للأمة وإجبارًا لها، ثم وافق أعضاء الهيئة الاستشارية، وهم في ذات الوقت المرشحون أنفسهم على استخلاف أحدهم وهو عثمان رضى الله عنه، ولم تكن موافقتهم وحدها هي المعتمد في تنصيب عثمان رضى الله عنه، بل استشير في هذا الأمر كلّ من كان بالمدينة من ساكنيها، أو من زوارها، أو القادمين

---

[1] لأنه كان ابن عمه وزوج أخته، فآثر ألا يختار أحداً من قرابته.

[2] الطبرى– تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص٢٩٣.

إليها من أمراء الأجناد وأشراف الناس[1]، ومن ثَمَّ فقد اجتمعت الأمة كلها، والمتمثلة في الأنصار والمهاجرين على عثمان رضى الله عنه وبايعوه.

وقد حرص عمر رضي الله عنه ألا ينفرد وحده باختبار من يلي من بعده خلافة المسلمين، بل اختار من أهل الحل والعقد من يستطيع أن يحسم الأمر لصالح المسلمين، كما أنه لم يجعلها في أحد من أبنائه حتي لا تكون وراثية فيهم، وإنما كان ابن عمر في هذا المجلس مشيراً وليس له من الأمر شيء، وقد استطاع رجال هذا المجلس ان يحسموا أمرهم ويرشحوا عثمان بن عفان خليفة للمسلمين.

ويبقى أن نشير إلى أن هذا النظام الإسلامي الباهر ظهر في وقت سيطرة الديكتاتوريات على أنظمة الحكم في العالم، سواء في بلاد الفرس أو الروم أو الهند أو الصين، وأن العالم لم يعرف هذه الشورى ولا حتى الديمقراطية إلا بعد ما يقرب من اثني عشر قرنًا من الزمان، وذلك بعد قيام الجمهورية الفرنسية وذهاب النظام الملكي فيها، ولهذا فالشورى –بلا جدال– تُعدُّ واحدة من أعظم إسهامات المسلمين للحضارة الإنسانية.

رابعا: مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام عمر رضي الله عنه:

توالت علي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحداث العظام خلال عصر الخلفاء الراشدين ورأت قوه الإسلام تتأكد بانتشاره في الجزيرة العربية في عهد الصديق، ثم خروج أجناد المسلمين فاتحين إلي العراق والشام ليعودوا بالنصر والخير أيام عمر.

ولقد اهتم الفاروق رضي الله عنه بالمدينة فأمنها واهتم بتعميرها، فعمر مساجد الله فيها، وأقام الدواوين، واهتم بأسواقها وأمن الناس علي حياتهم وأموالهم وأرزاقهم، وزاد الفاروق رضي الله عنه في المسجد النبوي ووسعه وفرشه بالحصباء وذلك في السنة السابعة عشرة من الهجرة.

---

[1] المصدر السابق ج٣ ص٤٢٢.

وامتد اهتمامه الي المسجد الحرام فأخر مقام إبراهيم إلي موضعه الحالي وكان ملتصقاً بالبيت، وهو رضي الله عنه أول من نور المساجد في رمضان، ووضع فيها القناديل، وقد مر علي بن أبي طالب علي مساجد المدينة في رمضان وفيها القناديل. فقال: اللهم نور علي عمر قبره كما نور علينا مساجدنا.

واهتم رضي الله عنه بالطرق ووضع عليها من يصلح من ينقطع بها وخاصة علي الطريق بين مكة والمدينة، وهو رضي الله عنه أول من أرسي نظام العسس، وهو الذي اتخذ داراً للدقيق ليحفظ فيها المؤن من الدقيق والسويق والزبيب والتمر والزيت ليعين بها المنقطع والمحتاج، وهو رضي الله عنه أول من اتخذ بيتاً للمال، وأول من أرخ للمسلمين، وحدد لهم هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كنقطة بداية له. قال الطبري: إن عمر رضي الله عنه أول من أرخ الكتب وختم بالطين وذلك في العام السادس عشر من الهجرة.

وبعد فقد أرسي قواعد النظم الإدارية ونظم أمور الدولة وساس الرعية في مهارة السياسي القدير وإيمان المسلم المتواضع، وكان يحاسب نفسه ويلومها طلبا في رضوان الله وغفرانه. رحم الله الفاروق عمر وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الفتوحات الإسلامية في عهد الفاروق عمر رضي الله عنه:

أنجزت الجيوش الإسلامية في عهد الصديق رضي الله عنه مهاماً جليلة في أرض العراق والشام، إلا أن الطريق أمامها كانت تتطلب المزيد من الجهد والرجال والأموال، والمزيد من الصبر والاحتمال. ومن ثم رأي الفاروق رضي الله عنه أن الاستمرار في عملية الفتوح يتطلب إعادة النظر في الخطة العامة للقتال بما يترتب عليه تغييرا في قيادة الأجناد.

ومهما كانت الأسباب الداعية للتغيير فإنها تعكس بلا شك بعد نظر الفاروق رضي الله عنه، ذلك أن الجيوش الإسلامية بالتنظيم الذي أدخله عليها حققت أهدافها وأتت بنتائج طيبة للمسلمين.

كانت جيوش المسلمين تحارب في العراق والشام، فكان خالد بن الوليد علي رأس جيوش المسلمين في الشام وقد انتصروا في اليرموك وتقدموا في طريقهم نحو دمشق.

أما جيوش المسلمين في العراق فقد أرسلوا إلي المدينة المثني بن حارثة يطلبون المدد من الفاروق فأمدهم بألف رجل وأمر عليهم أبا عبيد الثقفي، وأرسلهم مدداً إلي أجناد المسلمين في العراق لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل هذا الفتح.

أولاً: فتوحات الشام:

استمرت الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام بعد موت الصديق رضي الله عنه وخلافه الفاروق، وقد وصلت الأخبار إلي قواد المسلمين بموت الصديق وكانوا عندها يحاربون الروم باليقوصة، كما ورد الخبر إلي أبي عبيدة بقرار الفاروق رضي الله عنه بولايته حرب الشام، وولايته للأجناد وعزل خالد بن الوليد.

فتح دمشق ١٣ هـ-٦٣٤م.

تختلف الروايات حول فتح دمشق، فهناك من المؤرخين من يري إنها فتحت في ١٣هـ/٦٣٤م أو في ١٤هـ / ٦٣٥م. ومهما يكن من أمر هذه الروايات فإن فتح دمشق تم بعد انتصار المسلمين بقيادة خالد بن الوليد علي الروم في موقعه اليرموك، وقد تقدم المسلمون بعد هذا الانتصار نحو دمشق، وجند المسلمين يتقدمهم خالد بن الوليد، ويسانده علي مجنبتي الجيش عمرو بن العاص، وأبو عبيدة، وكان علي الخيل عياض، وعلي الرجالة شرحبيل بن حسنة؛ أما دمشق فكان عليها القائد البيزنطي نسطاس بن نسطورس، بينما كان جيش الروم وعلي رأسه هرقل قد عسكر في حمص.

وتقدمت جيوش المسلمين واطبقوا الحصار علي المدينة، ومنعوا عنها المدد الذي طلبه قائدها من هرقل، وكان المسلمون قد وضعوا خطة محكمة لإنقاذ مهمة الاستيلاء علي دمشق، فقد قطعوا الطريق على المدد إليها من حمص، وأحكموا

الشام فقد ترتب علي سقوطها أن انتهت إلي الأبد سيادة الروم علي سورية، وقد غادرها هرقل حزيناً يائساً، ويروي إنه قال وهو يغادر بلاد الشام عليك السلام يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائف.

كان علي المسلمين أيضاً أن يؤمنوا الفتح في منطقة الأردن وكان علي أجنادهم شرحبيل بن حسنة، وهنا تأتي الأوامر إلي معاوية بن أبي سفيان أن يسير إلي قيسارية بينما يسانده ويغطي ظهرة يزيد بن أبي سفيان من الجنوب. وكلف عمرو بن العاص بمجابهة الأرطبون قائد جيش الروم في فلسطين.

وتوجهت جيوش المسلمين بقيادة معاوية نحو قيسارية وحاربوا الروم واستطاعوا أن يحققوا نصراً مؤزراً حيث أنزلوا هزيمة ساحقة بالعدو، قدرت المصادر العربية خسائره في هذه المعركة بثمانين ألف مقاتل وقيل مائة ألف.

وصالح عمرو بن العاص أهل قيسارية علي مائة ألف درهم، ودخلها في رجب عام ١٩هـ / ٦٣٩م، ووصل الخبر إلي الرملة وعسقلان ونابلس وطبرية فعقدوا كلهم صلحاً مع المسلمين، وكذلك أهل بيروت وجبيل واللاذقية.

فتح بيت المقدس ١٥هـ /٦٣٦م.

تحصن الروم في إيليا والرملة وعلي رأسهم الأرطبون، وكان عمرو بن العاص يعد العدة لاستكمال فتح فلسطين، فكتب إلي الفاروق عمر رضي الله عنه يخبره بالموقف فلما وصله كتاب عمرو قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج.

وظل المسلمون يحاصرون إيلياء والرملة وطال أمد الحصار فأرسل عمرو بقوات إلي الرملة وأخري إلي غزة لمشاغلة جيش الروم، وتوجه في أجناده إلي أجنادين حيث كان جيش الروم معسكراً بها، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً وصفه المؤرخون بأنه كان كقتال اليرموك، وكثر القتلي في الميدان، وانفل الأرطبون وجنوده إلى إيلياء، فدخل المسلمون أجنادين محققين بذلك أولي خطوات النصر في الطريق إلي بيت المقدس.

وبينما جنود المسلمين في فسلطين والأردن معسكرين ما بين أجنادين وفحل وبيسان، وجند عمرو علي وشك الدخول إلي بيت المقدس التي فرت عنها حاميتها تاركه الدفاع عنها لرجال الدين وعلي رأسهم بطركها صفرنيوس. الذي رفض تسليم المدينة للجنود وإنما طلب أن يسلمها إلي خليفه المسلمين.

الفاروق بالجابية:

ويصل الفاروق عمر إلي الجابية والمسلمون علي حصار القدس وفد عليه جموع من أهل إيلياء يطلبون الأمان والصلح فعقد الفاروق لهم وأعطاهم ما أرادوا.

ويذكر الطبري أن سبب قدوم الفاروق إلي الجابية أن أبا عبيدة بن الجراح حصر القدس فطلب أهله الأمان وأن يصالحهم علي صلح مدن أهل الشام، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب إليه فسار عن المدينة.

صلح الفاروق رضي الله عنه لأهل إيلياء[1]

بسم الله الرحمن الرحيم: "هذا ما أعطي عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم، فإنهم آمنون علي أنفسهم وعلي بيعهم وصلبهم حتي يبلغوا مأمنهم، ومن شاء رجع إلي أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتي يحصد حصادهم، وعلي ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد علي ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان"[2].

نتائج مؤتمر الجابية:

شهدت الجابية تنظيمات وتسويات ما بعد النصر الذي تحقق للمسلمين بالشام، فقد تقلص النفوذ البيزنطي نهائياً في المنطقة، وانحصر ما تبقي من جنود الروم

---

[1]- إيلياء هو اسم مدينة القدس، معناه بيت الله، ياقوت الحموي : معجم البلدان : مادة إيلياء، ص ص- ٢٩٣- ٢٩٤.

[2]- الطبري : الرسل والملوك- ج ٤ ص ٦٠٩.

في منطقة فلسطين، فقد واصلت أجناد المسلمين سيرها شمالاً متتبعة فلول البيزنطيين وإمبراطورهم هرقل، وبذلك قطعوا الطريق علي جنودهم في الجنوب، كما أن المسلمين كانوا قد استولوا علي معظم مدن الشام فانحصر جند الروم في منطقة إيلياء والشريط الساحلي المؤدي إلي مصر، وهو الطريق الذي سلكه الأرطبون وحاميته بعد هزيمتهم فارين من القدس لاجئين إلي مصر.

وبعد أن أنهي عمر رضي الله عنه مهمته في الجابية سار حتي وصل إيلياء فدخلها ومضي حتي دخل المسجد وتقدم نحو محراب داود والمسلمون معه، فقرأ سجدة داود، فسجد وسجد المسلمون معه، ودخل الفاروق أولي القبلتين ليفك أسرها، وقد طاف بالمدينة يصحبه بطركها، وزار مختلف الأماكن المقدسة بها، كنيسة القيامة، وكنيسة قسطنطين، لكنه لم يصل بأيهما حتي لا يكون في ذلك سابقة يتبعها المسلمون، وقد أراد بذلك أن يرعي حرمة الاماكن المقدسة المسيحية مؤكداً احترام الإسلام للأديان الأخري.

أما فيما يتعلق بفلسطين فقد تفقد الفاروق أجناد المسلمين وناقش القضايا العامة والخاصة ببقاء الجنود المسلمين بالشام، كما أنه قسم الإقليم إلي منطقتين إداريتين جعل الأولي مركزها بيت المقدس وعين عليها أميراً علقمة بن مجزز، أما الثانية فكانت الرملة وأمر عليها عاملة علقمة بن حكيم، أما فيما يتعلق بمصر فإنه أذن لعمرو بن العاص بالمسير إليها، ثم قفل عائداً إلي الحجاز[1].

فتح مصر ٢٠هـ ٦٤٠م:

تعددت روايات المؤرخين حول فتح مصر فمنهم من يضعها عام ١٨هـ/ ٦٣٨م، ومنهم من يضعها في ٢٠هـ/٦٤٠م وهو الأرجح.

يقول ابن عبد الحكم صاحب كتاب فتوح مصر وأخبارها: " لما كانت سنة ثماني عشرة وقدم عمر الجابية خلا به عمرو بن العاص فاستأذنه في المسير إلي

---

[1]- الطبري : الرسل والملوك – ج ٣ ص ٦١٠.

مصر، وكان عمرو قد وصل مصر في الجاهلية، وعرف طرقها، ورأي كثره ما فيها"[1].

وقد حسن عمرو بن العاص للفاروق عمر رضي الله عنهما أهمية مصر وأهمية فتحها إذ قال له: إنك أن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وما زال به يقنعه بأهميتها لتأمين فتوح الشام حتي ركن له عمر وعقد له علي أربعة آلاف رجل كلهم من عك، وقيل في ثلاثة آلاف وخمسمائة.

مراحل الفتح:

توجه عمرو بن العاص في رجاله إلي مصر مخترقاً الشريط الساحلي إلي العريش، وكانت الفرما أولي معاركهم مع الروم، حيث واجهتهم أجناد الروم وقاتلوهم قتالاً شديداً استمر ما يقرب من الشهر، حتي فتح الله عليهم ذلك الموضع، ويروي ابن عبد الحكم: ان القبط كانوا بالفرما يومئذ لعمرو أعواناً[2].

القواصر وبلبيس وأم دنين:

غادر عمرو بن العاص الفرما وقد نصره الله متقدماً نحو القواصر ومنها إلي بلبيس بأرض الشرقية، فقاتله الروم بها شهراً آخر حتي فتح الله عليه، ثم مضي بعدها إلي أم دنين فقاتله الروم قتالاً عظيماً حتي أبطأ عليه الفتح، فكتب إلي عمرو بن الخطاب يطلب المدد فأمده الفاروق بأربعه آلاف مقاتل ثم أردف بأربعه آلاف أخري وعلي راسهم الزبير بن العوام.

حصن بابليون:

كانت أخبار تقدم الجيوش الإسلامية في أرض مصر قد بلغت المقوقس حاكمها البيزنطي، فخرج متحصناً في منطقة بابليون، وخندق حول الحصن لمنع تقدم المسلمين.

---

[1]- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها – ص ٤٦ وما بعدها.

[2]- المصدر نفسه – ص ٥٠.

وحاصر عمرو ورجاله وفيهم عمرو بن العاص وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد والمقداد بن عمرو الحصن، والح المسلمون في الحصار والقتال الذي امتد إلي سبعة شهور، وأمام هذا الموقف الحرج، رأي المقوقس أن يفتدي جنده ببذل بعض المال لكن المسلمين كانوا قد وهبوا أنفسهم للجهاد، وكان للزبير بن العوام دوره المشهود في اقتحام الحصن، وفتح بابه للمسلمين ليدخلوا، فلما دخلوا خاف المقوقس علي نفسه ومن معه، وطلب الأمان ودعا إلي الصلح، وقبل عمرو بن العاص ذلك.

وأرسل عمرو بن العاص عبادة بن الصامت أحد قواد الفتح وبعضاً من رجال المسلمين إلي رءوس القبط وفيهم المقوقس فخيروهم بين ثلاث: الأولي الإسلام، والثانية الجزية، فإن أبوا الأولي والثانية فالحرب.

ورأي المقوقس ورجاله قبول الصلح، فصالح عمرو بن العاص علي أن يفرض علي جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم، ليس علي الشيخ الغاني ولا علي الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النساء شيئاً. وعلي أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يعرض لهم في شيء منها.

وأحصوا القبط يومئذ من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الدينارين، ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة، فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا ورفعوا سته آلاف ألف نفس، فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة.

فتح الإسكندرية:

كتب المقوقس إلي امبراطور الروم يخبره بما آلت إليه الأحوال في مصر وبتقدم جيوش المسلمين فيها، وجاءه الجواب بضرورة التصدي لهم والابقاء علي مصر بيزنطية، لكن عمرو ورجاله كانوا قد تمكنوا من الأمور وبدأوا في استكمال فتحهم لمصر، فبعد سقوط بابليون، خرج عمرو متجهاً إلي الإسكندرية يسانده جماعة

من رءوس القبط، وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا الجسور، وصارت القبط لهم أعواناً ضد الروم.

وسارت قوات المسلمين في طريقها إلي الاسكندرية وقد فتح الله عليهم الكثير من المواقع التي مروا بها في طريقهم إلي عاصمة البلاد.

اخترقت القوات الإسلامية غرب الدلتا واستولوا علي ترنوط وسلطين والكريون حتي وصلوا إلي الإسكندرية فضربوا حولها حصارا طال أمده، وقد بذل المسلمون جهوداً كبيرة في فتح الإسكندرية حتي هزم الله الروم علي أيديهم ودخلوا المدينة.

ولما دخل عمرو رضي الله عنه الإسكندرية صالح المقوقس فيما يعرف بمعاهدة الإسكندرية ونصها:

١- أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد.

٢- أن تعقد الهدنة نحو أحد عشر شهراً من أول شهر بابة القبطي الموافق ٢٨ من شهر سبتمبر ٦٤٢م.

٣- أن يبقي العرب في مواضعهم مدة الهدنة علي أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أي سعي لقتال الإسكندرية، وأن يكف الروم عن القتال.

٤- أن تزول مسلحة الإسكندرية في البحر، ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعاً، ومن أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل علي أن يدفع عن كل شهر جزء معلوماً ما بقي في أرض مصر في رحلته.

٥- ألا يعود جيش الروم إلي مصر أو يسعي لردها.

٦- أن يكف المسلمون عن أخذ كنائس المسيحيين ولا يتدخلوا في أمورهم أي تدخل.

٧- أن يباح لليهود الإقامة في الإسكندرية.

٨- أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند لإنفاذ العهد.

ولما تم للمسلمين فتح المدينة وضع لها عمرو بن العاص نظاماً خاصاً في الدفاع عنها تحسباً لغدر الروم والعودة إليها، فجعل عليها رباط من الجند يقيمون ستة أشهر، ثم يعقبهم غيرهم شاتية ستة أخري، وكان عمر رض الله عنه يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط علي ثغر الإسكندرية، وكانت نصيحة الفاروق أن تكثف حامية الإسكندرية ورباطها، وذلك لأن الروم لا يؤمن جانبهم.

ودخل المسلمون عاصمة مصر، فطالعهم بهاؤها وجمال قصورها وأبنيتها وحماماتها ومنارتها وآثارها القديمة حتي هم عمرو بأن يتخذها عاصمة له.

وكتب إلي الفاروق يستأذنه في أن تكون الإسكندرية عاصمة لمصر الإسلامية فنصح الفاروق باتخاذ عاصمة جديدة لمصر الإسلامية لا يحول بينه فيها وبين المسلمين ماء، فكان اتخاذ الفسطاط عاصمة للإقليم، اختطها عمرو وبني فيها المسجد الجامع الأول في مصر، واتخذ فيها منبراً، واختط داره، واختطت القبائل العربية ممن شهد الفتح دورها، وعمرت الفسطاط لتكون مركز إشعاع للإسلام يعم نوره علي أفريقيا كلها.

فتح العراق وفارس:

تولي الفاروق عمر رضي الله عنه أمر المسلمين، وقد قدم عليهم في المدينة المنورة المثني بن حارثة يطلب المدد لأجناد المسلمين الذين واصلوا جهودهم بعد القضاء علي المرتدين في شرق الجزيرة العربية بالتوغل في أرض العراق.

وأمد الفاروق المثني بالأجناد وعلي رأسهم أبي عبيد الثقفي وخرجوا ليلحقوا بإخوانهم المرابطين علي حدود العراق، فلما وصلوا نظموا جيوشهم لملاقاة جيوش الفرس بإخوانهم المرابطين علي حدود العراق، فلما وصلوا نظموا جيوشهم لملاقاة جيوش الفرس بقيادة جابان، وكانت أولي المواجهات العسكرية لأجناد المسلمين مع أجناد الفرس في النمارق وغيرها تمهيداً لاستكمال فتح العراق.

موقعة الجسر:

لما علم رستم بهزيمة الجيش فى النمارق وكسكر جهز جيشا عظيما تحت قيادة بهمن المعروف بذى الحاجب ومعه الراية العظمى لفارس، والتقى الجيشان على نهر الفرات، وخير الفرس المسلمين بين أن يعبروا أو يعبر الفرس إليهم، واندفع أبوعبيد فاختار العبور، ولما نهاه ذوو الرأى من الصحابة لم يقبل، وقال: لا يكون الفرس أجرأ على الموت منا، وعبر المسلمون.

ولما كان أبو عبيد هو القائد الأعلى للجيش، فقد وافقه أصحابه على رأيه، وقرروا العبور، فنصب جسرا من الزوارق، وعبر أبوعبيد ودارت رحى القتال، وماجت الأرض، ونفرت خيول المسلمين من الفيلة، وترجل أبوعبيد والناس، وصافحوا العدو بالسيوف، ودافعت الفيلة، فقطعوا وضنها[1]،فسقطت رجالها، وقتل من كانوا عليها، وقابل أبوعبيد فيلا، فوطئه بيده، وقام عليه فأهلكه، فانهزم المسلمون واضطربوا لفقده، وتتابع من ثقيف سبعة يأخذون اللواء، بعد أبى عبيد، حسبما عينهم قبل وفاته، فماتوا جميعا.

ولما قتل حملة الراية من ثقيف حملها المثنى، ولكن المسلمين كانوا قد انهزموا، وفروا عنه، فأصبحت الحال سيئة، وزاد الطين بلة أن عبدالله بن مرثد الثقفى قطع الجسر حين فرار الناس، وقالوا: موتوا أو تظفروا، وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر، فتواثب بعضهم إلى نهر الفرات فغرق بعضهم. وحمى المثنى وفرسانه من المسلمين الناس من الإبادة، وطلب المثنى من الذين عبروا سباحة أن يعقدوا الجسر، فعقدوه.

وكان آخر من قتل على الجسر سليط بن قيس الأنصارى. وهلك من المسلمين يومئذ أربعة آلاف، بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقى ثلاثة آلاف، وقتل من

١الوضن هى بطانة منسوجة توضع على ظهر الدابة ليستقر الراكب عليها، أو هى حزام السرج. ابن منظور: لسان العرب ج١٣ ص٤٥..

الفرس ستة آلاف. وأراد بهمن العبور خلف المسلمين، فأتاه الخبر بأن الفرس ثاروا على رستم، فرجع إلى المدائن، وكان هذا من كرم الله للمسلمين[1].

والسبب فى هزيمة المسلمين يرجع إلى أمرين، مخالفة أبى عبيد لمن معه، فإنهم أشاروا عليه بعدم العبور، حينما خيرهم القائد الفارسى بهمن، واستعجال عبد الله بن مرثد فى قطع الجسر حين التقهقر، وقد أثارت هذه الهزيمة كلا من الخليفة والمثنى، فإنه لم يبق بالعراق من المسلمين إلا عدد قليل، لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فضلا عن الاحتفاظ بالأملاك المفتوحة.

تعقيب على معركة الجسر:

- كانت معركة الجسر أول معركة يخسرها المسلمون أمام الفرس، وتعد تجربة حية في حروبهم لإثبات قيمة كفاءة القيادة، إذ إن الإيمان والجشاعة وحدهما لا يكفيان لتحقيق الانتصار.

- إن الحماس المجرد الذي أبداه أبو عبيد قبل بدء القتال، لا مكان له في المعارك إذ لم تسانده أسس صحيحة، وتخطيط سليم.

- افتقد أبو عبيد إلى عنصر الأمن حين حشره بهمن جاذويه في مكان ضيق، وحرمه من حرية الحركة والانتشار الضروريين لخوض معركة ناجحة.

- على الرغم من تفوق الفرس في القتال، فإنهم لم يتمكنوا من أسر أحد من المسلمين، مما يدل على أن المقاتل المسلم احتفظ بميزاته في أشد المواقف حرجًا وشدة، وظل يقاتل حتى آخر رمق.

- لا شك بأن ثبات المسلمين في القتال، كان من العوامل التي دفعت الفرس للعودة إلى المدائن، ومنعتهم من مطاردتهم.

- أضحى استمرار التقدم مستحيلًا بعد هزيمة المسلمين في معركة الجسر دون إدخال إمدادات جديدة إلى المعركة، إذ إن الآلاف الثلاثة من المقاتلين الذين

١البلاذرى: فتوح البلدان ص٢٥٢.

نجوا من المعركة، واستمروا بالتواجد على أرض العراق، شكلوا أصغر قوة إسلامية منذ بدء الفتح، فضلًا عن إثخانهم بالجراح[1].

معركة البويب[2](وهو يوم مهران):

قلنا إن الحالة بالعراق أصبحت سيئة، نتيجة ليوم الجسر وخاف عمر أن تضيع الأملاك الإسلامية فى أول عهده، وهو الحريص على نشر الدين، فسارع بندب الناس إلى المثنى، وكان فيمن ندب قبيلة بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبدالله البجلى. وكتب عمر إلى أهل الردة، فلم يأته أحد إلا رمى به المثنى، وبعث المثنى بدوره الرسل فيمن يليه من العرب، فتوافوا إليه، حتى النصارى من نمر فقد اختاروا القتال مع قومهم، وبلغ الخبر رستم، ومن التف عليه، فأرسل جيشا بقيادة مهران الهمذانى إلى الحيرة، وعلم المثنى بذلك، فكتب إلى جرير وغيره أن يقصدوا العذيب. مما يلى الكوفة، فاجتمعوا هناك ومهران ومن معه قبالتهم وبينهما نهر البويب، فأرسل مهران إلى المثنى يخبره فى العبور، فاختار أن يعبر الفرس، فعبروا واشتد القتال، وكانت الحرب فى هذه الموقعة أشد ما صادفه المسلمون لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا عليهم، ولكى يلحق بهم ما لحق المسلمين فى يوم الجسر، سبق إلى جسر البويب فقطعه، فلم يتمكنوا من العبور، فتشتتوا فى البلاد، بعد أن أوقع المثنى بهم القتل أثناء الاضطراب الذى دب فى صفوفهم عندما علموا بقطع الجسر، وقتل مهران، وعدد من جيشه يقدر بعشرة آلاف، ويقدره بعض الرواة بمائة ألف[3].

وكانت معركة البويب من المعارك الحاسمة، فقد أوقعت الرعب فى قلوب الفرس، وأصبح المسلمون بعدها يغدون ويجيئون فيما بين دجلة والفرات، لا يقف فى وجههم محارب، وذهبت بعض الفرق الإسلامية إلى قرب المدائن نفسها، فلم

---

١ د. محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين ص١٨٧.

(٢) البويب : نهر صغير بالعراق.

٣تاريخ الطبرى: ج٢ ص٣٧٣.

تجد مقاومة واستولت فرقة على بغداد، وصارت بعض الفرق إلى تكريت فى أقصى الشمال، واستولت عليها بلا عناء.

وكان من بين عوامل الانتصار التصاق المثنى كقائد في ميدان المعركة بقواته حيث ربطته بهم محبة فياضة، وذلك من خلال أحاديثه معهم، وطوافه بفرسه الشموس على راياتهم، يحمسهم ويعطيهم توجيهاته، ويحرك مشاعرهم، فضلًا عن طوافه بينهم والمعركة دائرة، ولا يغفل عن ملاحظة أي حادث يمكن أن يؤثر على معنوياتهم، فيستدركه، من ذلك ما فعل حين أصيب أخوه مسعود إصابة قاتلة، ورأى أثر ذلك على المقاتلين، فطلب منهم مواصلة القتال، ورفع الرايات حتى ينضوي تحتها المقاتلون، فقال: "يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخي، فإن مصارع خياركم هكذا"، ولا يقل عن هذا قوله عن نفسه مستبشرًا بالشهادة: "ارفعوا راياتكم رفعكم الله، لا يهولنكم مصرعي".

<u>موقعة القادسية:</u>

رأى الفرس بعد هزيمتهم فى البويب أن سبب عجزهم وهزيمتهم فى العراق هو ما هم فيه من اختلاف بسبب الملك والسلطان، فقالوا لرستم ومنافسه الضيرزان: إما أن تجتمعا وإلا فنحن لكما حرب فقد عرضتمونا للهلكة، وما بعد بغداد وتكريب إلا المدائن، ففزعا إلى آزر ميدخت أو بوران يسألونها فى ولد من كسرى يوليانه عليهم، فوجدوا يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى، فملكوه عليهم وهو ابن إحدى وعشرين سنة، واجتمعوا عليه، وتبارى الرؤساء فى طاعته ومعونته.

وثار فى المملكة حماس جديد فقد عز على الفرس أن يصبحوا خاضعين لقوم كان بالأمس القريب من أتباعهم، فأنفذت الجيوش، واحتلت كثيرا من أراضى المسلمين، واقتربت من الحيرة نفسها.

وإزاء هذا لم يسع المثنى إلا الجلاء عن الحيرة، والتقهقر بجيوشه القليلة، فعسكر بذى قار[1]، وبعث إلى عمر بالخبر، فعزم الخليفة على توجيه ضربة قاضية إلى المدائن، وقال: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب. وكتب إلى المثنى يأمره بخروج المسلمين من بين العجم، والتفرق فى المياه بحيالهم على الحدود بين العرب والعجم، وأن يدعوا الفرسان وأهل النجدات من ربيعة ومضر، ويحضرهم طوعا أو كرها، وكتب إلى عماله من العرب أن ابعثوا إليه من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأى، فجاءته أفواجهم إلى المدينة إلا من كان قريبا إلى العراق فقد انضم إلى المثنى.

ولما اجتمع الناس إلى عمر خرج من المدينة إلى ماء على ثلاثة أميال منها يسمى صرار، فعسكر به، ولا يدرى الناس ما يريد أيسير أم يقيم. وكان عمر لشعوره بالخطر العظيم، والمسؤولية الملقاة على عاتقه فكر بالخروج مع الجيش إلى العراق، واستخلف على المدينة على بن أبى طالب، إلا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اجتمعوا حوله وناشدوه على البقاء، وأشاروا أن يبعث واحدا بعد آخر من الصحابة حتى يفتح الله على المسلمين، ويهلك عدوهم، فاستحسن عمر هذا الرأى، وجمع الناس وقال لهم: إنى كنت عزمت على المسير إلى العراق حتى صرفنى ذوو الرأى منكم، وقد رأيت أن أقيم، وأبعث رجلا، فأشيروا على برجل، فأشاروا إليه بالصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص، وكان على صدقات هوازن، وكان سعد قد انتخب لعمر ألف فارس كلهم له نجدة ورأى، وصاحب حيطة يحوط حريم قومه، فأحضر عمر سعدا، وأعطاه القيادة العليا على جيش العراق، وكان عدده أربعة آلاف.

---

(١) ذى قار : موضـــع على الحدود على البادية، كانت به موقعة بين الفرس والعرب فى الجاهلية انتصر فيها العرب.

وسار سعد بجيشه حتى وصل إلى زرود[1]، فأمر الناس بالنزول بها على مياه بنى أسد، وانتظر بها حسب أمر الخليفة حتى تأتيه القوى ويتلقى أمره بالزحف، ثم أمده بألفيمانى وألف نجدى، وكان المثنى ينتظر قدومه إلا أنهما لم يتقابلا لوفاة المثنى أثناء إقامة سعد بزرود.

ولم ينس المثنى قبل وفاته أن يرسل لسعد وصيته التى تعتبر خلاصة تجاربه وعصارة خبرته فى حروبه الطويلة مع الفرس، وقد فقد الإسلام بوفاة المثنى قائدا ماهرا لا يقل عن خالد بن الوليد فى الإقدام والتدبير السياسى والحربى.

ثم سار سعد من زرود بعد ذلك إلى شراف فنزلها، وأخذ ينظم قواته التى بلغت ثلاثين ألفا استعدادا للمعركة الفاصلة، ولما انتهى سعد من تعبئة الجيش وتنظيمه حسب أمر الخليفة سار إلى القادسية، التى كان يحوطها الفرات من جهة الشرق وخندق سابور من جهة الغرب، مما يلى صحراء العرب، وكانت القادسية واقعة على الطريق التجارى بين بلاد فارس وبلاد العرب، ويستمر ذلك الطريق إلى الحيرة الواقعة قبالة القادسية على الشاطئ الآخر ويربط بينهما جسر، ومن الحيرة يستمر ذلك الطريق إلى المدائن نفسها.

ووقف سعد بجنوده قبالة القادسية بقرب حصن قديس فى جنوب الجسر. المتقدم ذكره. وعسكر هناك ينتظر ما تفعله الفرس. وكان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه لحرب المسلمين، وبإشارة من عمر أرسل سعد بعثا إلى يزدجرد على رأسهم النعمان بن مقرن، ووصل النعمان بمن معه إلى أبواب يزدجرد يستأذنه فى المثول بين يديه فأذن لهم، فدخلوا وجلسوا، ثم دارت محاورة بينهم وبين الملك دعوه فيها إلى الإسلام، فتصير له حقوق المسلمين، أو دفع الجزية، فتكون له ولرعيته الذمة، أو التقدم للقتال، فغضب كسرى لهذه الجرأة، وقال لهم: لولا أن الرسل لا تقتل لأمرت بقتلكم، لا شىء لكم عندى إلا التراب، وأمر بوقر من تراب، ثم قال: من أشرفكم؟ قال

---

(١) زرود: موضع على طريق الحاج إلى الكوفة بين الثعلبية والجزيمية.

عاصم بن عمرو: أنا، فقال: أحملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن، ثم التفت إلى البعث فقال لهم: ارجعوا إلى صاحبكم فأخبروه أنى مرسل إليه رستم ليدفنه ويدفنكم معه فى خندق سابور، وأنكل به وبكم. وقد تفاءل البعث بهذا الوقر، وبشر سعد بالنصر والظفر.

أحداث موقعة القادسية:

بجيش قوامه عشرون ومائة ألف سار بهم رستم لملاقات المسلمين، فوصل الحيرة قبالة القادسية، ثم سار فعسكر عند بلدة النجف قبالة حصن قديس الذى عسكر عنده المسلمون. وبعث سعد الطلائع لتأتيه بأخبار الفرس، وطلب أن يأتوه برجل من جيش الفرس ليعرف منه عدد وعدة جيش الفرس، فغامر طليحة الأسدى ودخل جيش الفرس ليلا، وتجول فيه، ونظر فى عدده وعدته فبصر بفرس فاره لم ير فى جيش الفرس مثله، فقطع بسيفه مقوده، ثم ضمه إلى مقود فرسه، ثم خرج من معسكر الفرس يعدو بهما، فأحس بذلك بعض الجنود، فخرج فى طلبه ثلاثة من خيرة الفرسان، فلحق به أحدهم فقتله، ثم لحق به الثانى فقتله، فلما لحق به الثالث لم يقتله، وأخذه أسيرا كطلب سعد، فسار به إلى معسكر المسلمين، فسأله سعد عن الفرس فلم يجب فى بادئ الأمر، وبعد محاولات أخبر بعددهم وعدتهم ثم اعتنق الإسلام، وسمى نفسه مسلما، وأبلى بعد ذلك بلاء عظيما فى الحروب.

وقد مكث رستم بعد خروجه من المدائن نحو أربعة شهور، وهو يطاول المسلمين ولا يقاتلهم، رجاء أن يضجروا فيرجعوا من غير حرب راضين من الغنيمة بالإياب، بينما كان كسرى يحثه على القتال، ثم أن رستم كاد أن يميل إلى الصلح مع المسلمين، ولكن الفرس لم يطاوعوه، حتى لا يبق إلا السيف حكما.

ولما انتهى رأى الفريقين إلى القتال سأل رستم وفد المسلمين: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟، فقال المسلمون أعبروا أنتم إلينا، فأقام الفرس سدا على الفرات، وعبروا عليه واقترب الجيشان، وعبأ سعد جنوده، وأشرف على القتال من أعلا

داره لمرض منعه من القتال، وعين نائبا عنه وهو خالد بن عرفجة، ليبلغ الأوامر إلى القواد، ثم التحم الجيشان فى معارك غاية فى الشراسة فى ثلاثة أيام، سميت اليوم الأول بيوم أرماث، واليوم الثانى بيوم أغواث، واليوم الثالث بيوم عماس، وركز سعد فى أوله على ضرب الفيلة بواسطة الرماة المهرة وقال لهم: ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل، وأقلعوا عيونها، وأقطعوا وضنها- أى أحزام القتب- مما جعل الفيلة تنفر وتقتل أصحابها.

وفى اليوم الثانى: يوم أغواث. وصل للمسلمين مدد من الشام، بعثه أبوعبيدة بأمر عمر، وعليه هاشم بن عتبة، وكان على مقدمته القعقاع بن عمرو، فقويت الروح المعنوية عند المسلمين، وفى هذا اليوم جاء المسلمون بالإبل فبرقعوها حتى صار لها شكل غريب أخاف خيل الفرس، ولقيت منها ما لقيت خيل المسلمين من الفيلة فى اليوم الأول، وقتل فى هذا اليوم من زعماء الفرس بهمن جاذويه القائد فى موقعة الجسر قتله القعقاع، كما قتل أيضا الفيزران، وقتله الحارث بن ظبيان. واستمر القتال فى هذا اليوم إلى منتصف الليل، وقد استشهد فيها من المسلمين ألفين، وقتل عشرة آلاف من الفرس.

وكان شأن الفرس فى وهن يوما بعد يوم، حتى كان اليوم الثالث عصيبا على الفرس بعد أن قتل المسلمون فيلين من أفيالهم، ففرت باقى الفيلة مخترقة صفوف الفرس حتى أتت المدائن بهوادجها، وعليها الرجال لا يستطيعون ردها، فكان ذلك مما أضعف الفرس، فاشتد المسلمون فى الحملة عليهم بعد أن فرت الفيلة، وأقبل الليل والتى سميت بليلة الهرير، والمعركة لا تزال حامية الوطيس، وخشعت الأصوات فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وصهيل الخيل وزئير الفرسان، وحمل المسلمون حملة أزالوا بها الفرس، وقتل رستم قائد الفرس، ففر الفرس من أمام المسلمين، وقام الجالينوس على الردم وأمر الجيش بالعبور، فعبر من نجا منهم فتبعهم زهرة بن الحوبة، وأدرك الجالينوس وهو يجمع المنهزمين فقتله، وأخذ ضرار بن الخطاب الفهرى الراية العظمى لفارس ونصر الله المسلمين فى هذه

المعركة بعد أن لاقوا خطوبا كبيرة وأذاقوا الفرس خطوبا أشد، وكانت موقعة القادسية فى المحرم سنة ١٤هـ، وقيل كانت سنة خمس عشر[١].

وهذه الموقعة كانت أعظم وقعات المسلمين مع الفرس حيث لم تقم للفرس قائمة بعد هذه المعركة التى أطاحت بكل آمال الفرس، وبعث سعد إلى عمر بالبشارة والخمس، وأقام سعد بالقادسية شهرين جاء أمر عمر لسعد بن أبى وقاص قائد عام المسلمين بالمسير فتقدم سعد بن أبى وقاص إلى بابل فلقيته بقربها فلول القادسية فهزمهم، وتقدم مخترقا السهل الواقع بين النهرين، وآتاه رؤساء المقاطعات فى أثناء ذلك، فمنهم من رغب الدخول فى الإسلام، ومنهم من رغب فى دفع الجزية.

واستمر سعد يخضع بلاد بين النهرين، حتى دانت كلها للإسلام، وما زال سعد مقيما صيف تلك السنة فى ذلك السهل حتى أتته تعليمات الخليفة بالتقدم إلى العاصمة المدائن لفتحها.

فتح عاصمة الفرس (المدائن):

كانت عاصمة الإمبراطورية الفارسية المدائن وكانت عبارة عن مدينتين على شاطئ دجلة فكانت على الشاطئ الغربى المدائن الدنيا المعروفة بـ(بهرسير)، وعلى الشاطئ الشرقى المدائن القصوى الشرقية والمعروفة بـ(طيسفون)، وكان فيها إيوان الأكاسرة المشهور، وهى على بعد ١٣. ميلا من القادسية إلى الشمال. ووصل سعد إلى بهرسير وحاصرها حتى سئم أهلها الحصار فهربوا منها، فنزلها سعد وأنزل بها الجند، وكان الفرس قد قطعوا الجسور بين طيسفونوبهرسير، فانتدب سعد عددا من أصحاب النجدة وذوى البأس لاقتحام نهر دجلة، وقد دلهم بعض أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها إلى الجهة الشرقية، فاقتحم

١تاريخ اطبرى: ج٣ ص٥٤٢ وما بعدها.

المسلمون من خلال هذه المخاضة نهر دجلة، ورآهم الفرس وهم يعبرون بخيلهم ليلا، وحاولوا أن يمنعوهم، ولكن المسلمين صوبوا سهامهم نحوهم فولوا الأدبار، وتم لهم اقتحام النهر حتى وصلوا إلى العدوة الشرقية، وأصبحوا أمام جيش الفرس، ونشبت المعركة التى تعتبر معركة الموت أو الحياة، فأجهضهم المسلمون وأعجلوهم، واقتحموا عليهم مدينتهم، ودخلوا المدائن، واستولوا على كل ما كان فى بيوت الأكاسرة من الأموال بعد أن فتحت أبوابها صاغرة، وعجزت عن الدفاع، فترك كسرى يزدجرد المدينة هو وأسرته إلى حلوان الواقعة فى الشمال الشرقى من المدائن، على بعد مائة ميل تقريبا، كما فر عدد من الرؤساء وكبار رجال الدولة، تاركين ما فى قصورهم من كنوز ونفائس غنيمة للمسلمين.

وعقب ذلك تم إخضاع المدن الواقعة غربى دجلة، وقدم الدهاقين (شيوخ القرى) فروض الطاعة إلى سعد. ثم نزل سعد القصر الأبيض وهو يتلوا قول الله تعالى: "كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ"[1]. وقد اتخذها المسلمون قاعدة لأعمالهم الحربية، واتخذ سعد.رضى الله عنه. إيوان كسرى مسجدا للصلاة.

معركة نهاوند[2](فتح الفتوح):

كان عمر بن الخطاب لا يريد أن ينساح المسلمون فى أرض فارس الواسعة، خوفا عليهم من الفرس، واعتبر ذلك مغامرة خطيرة فى أرض غير معروفة للمسلمين، ولا عهد لهم بها، وانتهز الفرس توقف الهجمات الإسلامية فى أرض فارس، فأخذوا يتجمعون بكل ما لديهم من عدد وعدة فى مدينة نهاوند، ولما رأى ذلك التجمع للفرس الأحنف بن قيس أرسل إلى عمر مشيراً بضرورة القضاء على ملك الفرس، وأنه لن ينقطع رجاء الفرس فى النصر على المسلمين إلا إذا

١سورة الدخان: آية ٢٥– ٢٨.

(٢) نهاوند: مدينة عظيمة فى جنوب همدان بينهما ثلاثة أيام، وهى من أقدم بلاد الجبال فى فارس.

انساح المسلمون فى بلادهم، وأزالوا الملك عن فارس، وأخرجوه من مملكته وعز أمته.

اقتنع عمر برأى الأحنف- خاصة- بعد أن بلغه أنه قد تجمع بنهاوند ما يزيد على المائة وخمسين ألفا من الفرس، فكتب عمر إلى حذيفة بن اليمان أن يسير بجند الكوفة، وإلى أبى موسى الأشعرى أن يسير بجند البصرة، وإلى النعمان بن مقرن أن يسير بجنده، فإذا التقى فكل على جنده أمير، وعلى الجميع النعمان بن مقرن.

وسار المسلمون نحو "نهاوند"، ودارت المعركة سجالا بين الطرفين، وكلما حمى الوطيس تحصن الفرس بالحصون، وأشار النعمان على المسلمين بتصنع الهزيمة حتى يبعدوا الفرس عن الحصون، ثم يكرون عليهم، فيقضون عليهم ونجحت الخطة، وانتصر المسلمون، ودخلوا "نهاوند" عنوة، إلا أن النعمان استشهد فى المعركة، وكتموا عن الجند موته حتى لا تهن قوتهم وهم فى المعركة، وفتحوا أصبهان وقم. وبدأ المسلمون ينساحون فى أرض فارس، وتوغلوا فى أعماقها.

فسار سويد بن مقرن إلى همدان ففتحها، وسار سراقة بن عمرو نحو باب الأبواب[1] على سواحل بحر الخزر الغربية، وسار الأحنف ابن قيس على رأس جيش حتى دخل خراسان[2]، واتجه عثمان بن أبى العاص على رأس جيش إلى اصطخر، وسار عاصم بن عمرو التميمى على رأس جيش من أهل البصرة إلى إقليم سجستان، إلى غير ذلك من القواد الذين انساحوا فى أرض الفرس، وفى بلاد ما وراء النهر، وتم فتح خراسان، وقضى على الوجود الفارسى، وفى الحقيقة بعد معركة "نهاوند" لم تقم للفرس قائمة تذكر بعد ذلك حتى أطلق على هذه المعركة "فتح الفتوح"، لأن المسلمين لم يشتبكوا بعدها مع الفرس فى معركة

---

(١) باب الأبواب أو الباب: اسم مدينة عظيمة على بحر طبرستان.

(٢) خراسان: إقلم عظيم يقع شرق بلاد فارس، وعاصمته مرو وبه مدن عظيمة منها بلخ ونسا وهراة.

مثلها، بل أصبح الفرس يلقون زمام أمرهم إلى المسلمين، إما باعتناق الإسلام، أو بدفع الجزية لتكون لهم حقوق أهل الذمة فى البلاد.

وبهذا يتم للمسلمين فى عهد الفاروق رضى الله عنه فتح بلاد الشام ومصر والعراق، وتكون الفتوح الإسلامية فاتحة خير على سكان تلك المناطق، ليكون أبناؤها خير عون ومساندة لنشر الإسلام والحضارة الإسلامية.

ولقد أولى الفاروق رضى الله عنه هذه الأمصار عنايته الفائقة فنظر فى أحوالها وأحوال أهلها، وانتقى من يتولى أمرها من قواده الذين يستطيعون الرقى بتلك الأمصار وإيصال رسالة الإسلام الحقيقية إليها ليشعر أهلها بروح هذا الدين من التسامح والعدل والحرية.

ولقد شملت سياسة الفاروق لتطوير الدولة الإسلامية أمصار المسلمين، فكان إنشاء الكوفة والبصرة مراكز عربية إسلامية فى العراق، لنشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية، وحماية الدين ونشره، وعمل على احترام أهل البلاد المفتوحة فى إدارة دواوينهم، وتملك أراضيهم وزراعتها و إيماناً منه بحق من يزرع فى أن يملك أرضه، وحفاظاً على ثروات البلاد المفتوحة خشية تبددها وضياعها و خاصة وأن المسلمين حين فتحوا تلك البلدان لم يفتحوها بقصد التملك أو الثراء، وإنما كان فتحها جزء من رسالة الإسلام وجهاداً فى سبيل نشره.

وهو حين نظر فى قضية العدل جعلها عامة بين المسلمين فالعدالة بين الناس واجب الخليفة كما هى واجب عماله وأمرائه، ومن هنا كان تشدده فى اختيار الولاة، وكان تشدده فى محاسبتهم، ومن هنا كان والى الأقليم مسئولاً مسئولية مباشرة أمام خليفة المسلمين، وعليه حماية رعايا إقليمه من المسلمين وغير المسلمين، وبالإضافة إلى ذلك فهو مسئول عن جباية الخراج والجزية وفق أحوال الأقليم من ميسرة أو معسرة على الناس، ومن زيادة أو نقصان فى مصادر المياه.

واستن الفاروق رضى الله عنه تقليد متابعة العمال وإرسال المبعوثين لمراقبة أموال الأقاليم، ومقاسمة الولاة فى الخراج، انطلاقاً من حرص على المال العام، وليس تشكيكاً فى هؤلاء العمال، فكلهم رجال مشهود لهم بمكانتهم فى الدولة الإسلامية، وكلهم أهل ثقة، وإنما كان ذلك من قبيل الاطمئنان على أمور الرعية وحرص الدولة على أن يصل الحق إلى أصحابه.

وقد أثبتت سياسة الفاروق رضى الله عنه فى الأمصار كفاءتها وقد أتت هذه السياسة ثمارها حين انتشر الإسلام، وأقبل كثير من أهل البلاد المفتوحة على تعلم اللغة العربية وعلى أيديهم وعلى أيدى علماء الأمصار انتشرت الإسلام، وقامت الحضارة الإسلامية الزاهرة.

الفاروق يلقى ربه:

بعد هذه الأعوام العشرة ونيف من الجهاد والعطاء والبذل وبعد أن انتشر الإسلام وانتصر على أيدى المسلمين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد أن شهدت الدولة الإسلامية الأولى أزهى عصورها، وشهدت من التطور فى الحكم والسياسة والحرب والإدارة، يلقى الفاروق ربه شهيداً خاتماً هذه الحياة الحافلة بالشهادة فى سبيل الإسلام ؛ فحين أتى أجله طعنه غدراً وظلماً أبو لؤلؤة المجوسى، بخنجره الهرمزات فضرب الفاروق رضى الله عنه ست طعنات أحداهن تحت سرته وتلك هىالتى قتلته.

لقد كان مقتل الفاروق عمر رضى الله عنه مؤامرة خسيسة اشترك فيها ذلك المجوسىالفارسى وأعوانه الهرمزان وجفينة ؛ لقد اعتقدوا أن نهاية الفاروق عمر رضى الله عنه هى نهاية للدولة الإسلامية، لكن هيهات لهم ذلك فقد استمر الإسلام يظهر، ويقوى وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها رغم كيد الكائدين وحقد الحاقدين.

وظل الفاروق وقد طعن مهموماً بأمور الأمة، يطمئن عليها، ويسأل عن عدولها، ويعينهم فى مجلس الشورى ليتولوا اختيار الخليفة من بعده حتى يطمئن على دولة الإسلام والمسلمين.

ويستأذن عمر رضى الله عنه عائشة أم المؤمنين فى أن يدفن مع صاحبيه فى غرفتها فآثرته على نفسها، ويوارى الثرى بجوار رفيقيه الصديق رضى الله عنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت وصية عُمَرُ: "أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ أَنْ يَحْفَظَ لَهُمْ حَقَّهُمْ وَأَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ. وَأُوصِيهِ بِأَهْلِ الأَمْصَارِ خَيْرًا فَإِنَّهُمْ رِدْءُ الإِسْلامِ وَغَيْظُ الْعَدُوِّ وَجُبَاةُ الْمَالِ أَنْ لا يُؤْخَذَ مِنْهُمْ إِلا يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ.

وَأُوصِيهِ بِالأَعْرَابِ خَيْرًا فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ وَمَادَّةُ الإِسْلامِ وَأَنْ يُؤْخَذَ مِنْ حَوَاشِي أَمْوَالِهِمْ فَيُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ أَنْ يُوفِيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَأَنْ لا يُكَلَّفُوا إِلا طَاقَتَهُمْ وَأَنْ يُقَاتِلَ مَنْ وَرَاءَهُمْ"[1].

ويحظى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه باهتمام المؤرخين في كل العصور فلا يزال الشخصية السياسية والإدارية العبقرية في الإسلام، التي استطاعت ان تصوغ النظام الإداري وأن تصقل الفكر السياسي الإسلامي، وأن تضع نظاماً يكفل العدالة الاجتماعية في الأمة مما عجزت عن تحقيقه كثير من النظم الحديثة.

وينقضي عصر الفاروق عمر رضى الله عنه وقد ترك الأمة قوية، وترك الإسلام يعم بنوره أرض فارس والشام ومصر، وترك المسلمين وفيهم عدولهم، يرون رأيهم ويعالجون أمور الحكم والسياسة على مبدأ الشورى، كما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليعبروا بالأمة مرحلة حاسمة من مراحل تاريخها، ويتولى عثمان

---

[1] ابن سعد– الطبقات الكبرى ج٣ ص٢٥٨.

بن عفان رضى الله عنه أمور الأمة ليسير وفق منهج الخليفتين الراشدين من قبله. رحم الله الفاروق عمر وجزاه عن المسلمين خير الجزاء

الخليفة الراشد عثمان بن عفّان رضى الله عنه
(٢٤ – ٣٥هـ/٦٤٤ – ٦٥٦م)

أولا: سيرة عثمان قبل الخلافة وأهم صفاته

نسبه ولقبه وصفته الخلْقية:

هو عثمان، بن عفّان، بن أبي العاص، بن أميّة، بن عبد شمس، بن عبد مناف، وأمّه أَرْوى، بنت كُرَيز، بن ربيعة، بن حبيب، بن عبد شمس، بن عبد مناف، وأمّها أمّ حكيم البيضاء، بنت عبد المطلب(١)، وهي شقيقة عبد الله والد النّبيّ ﷺ، وقد أسلمت أمّه وماتت في خلافته، وكان ممّن حملوها إلى قبرها(٢)، وأمّا أبوه فهلك في الجاهليّة(٣).

ولقّب عثمانُ رضى الله عنه بذي النّورين لزواجه من ابنتيّ رسول الله ﷺ رقيّة وأمّ كلثوم، ولا يُعلم أنّ رجلا تزوّج ابنتي نبيّ غيره(٤)، ويكنى بأبي عمرو، وأبي عبد الله(٥).

وكان عثمان رضى الله عنه من أجمل النّاس(٦)، وقد وُصف أيّام خلافته بأنّه: "ضَرْبُ اللَّحْمِ، طَوِيلُ اللِّحْيَةِ، حَسَنُ الْوَجْهِ"(٧).

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٥٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٥٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٨، ص٢٢٩.

(٣) ابن قتيبة: المعارف، ص١٩١؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص٤٨٠.

(٤) البيهقي: السنن الكبرى، جـ٧، ص١١٥.

(٥) الترمذي: السنن، (كتاب المناقب، باب مناقب عثمان)، جـ٥، ص٦٢٤.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥٤٣، ح٥٢٢، والأثر عن أمّ موسى، وهي تابعية ثقة، وإسناده حسن.

(٧) البيهقي: شعب الإيمان، جـ٨، ص٢٥٤، ح٥٧٧٨؛ وهو من صحيح أحاديث ابن لهيعة المصري.

حياته ومكانته في الجاهلية:

نشأ عثمان رضى الله عنه على الفطرة السّويّة، فلم ينهمك مع الشّباب في الملاهي والملذّات، ولم يقترف الفواحش والمنكرات، ولم تجتذبه عبادة الأوثان، ولقد تحدّث عن نفسه في آخر أيّام حياته فقال: "وَاللهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلامٍ قَطُّ، وَلا قَتَلْتُ نَفْسًا[١]، وَلا شَرِبْتُ خَمْرًا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلامٍ، وَلا تَغَنَّيْتُ[٢]، وَلا تَمَنَّيْتُ[٣]، وَقَدْ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي هَذِهِ الْيُمْنَى فَمَا مَسِسْتُ بِهَا ذَكَرِي"[٤].

وكان عثمان رضى الله عنه ثريّا منذ الجاهليّة، فقد ورث تجارة عريضة عن والده، واهتمّ بتنميتها، فأصبح من رجالات بني أميّة الذين لهم مكانة في قريش كلّها، وكان المجتمع المكي الجاهلي يُقدّر فيه الرّجالُ حسب أموالهم، ويهابون حسب أولادهم وإخوتهم، ثمّ عشيرتهم وقومهم[٥].

ولمّا كانت شخصيّة عثمان رضى الله عنه جامعة لكثير من صفات الخير وميّالة إلى البرّ والإحسان للنّاس وعدم الاستطالة عليهم بالمال والجاه فقد نال مكانة مرموقة في قومه، ومحبّة كبيرة، ولحسن خلقه، ومعاملته؛ أحبّته قريشٌ وتحدّثت به، حتّى إنّ المرأة العربيّة كانت ترقّص طفلها وتقول[٦]:

أحبّك والرّحمن ** حبَّ قريش عثمان

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥١٢، ح٤٦٨، وإسناده صحيح.

(٢) تغنيت: كذبت.

(٣) وفي رواية المسند: "وَلا تَمَنَّيْتُ بَدَلا بِدِينِي مُنْذُ هَدَانِي اللهُ ﷻ".

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف جـ٦، ص٣٦٤، ح٣٢٠٥٥.

(٥) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جـ١، ص٦١٨.

(٦) ابن أبي الدنيا: النفقة على العيال، جـ١، ص٣٣٥.

إسلامه:

كان عثمان رضى الله عنهمن السّابقين إلى الإسلام، فقد أسلم قديما بدعوة أبي بكر رضى الله عنه، مع الزّبير بن العوّام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرّحمن بن عوف[١]، ولمّا جهر النّبيّ ﷺ بالدّعوة إلى الله واشتدّت قريش على المسلمين لم يَسْلم عثمان رضى الله عنهمن الإيذاء[٢]، فلمّا أشار النّبيّ ﷺعلى أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لم يعبأ عثمان رضى الله عنه بثروته الواسعة، وإنّما آثر دينه على دنياه، وسارع إلى الهجرة[٣]، فكان أولَ من خرج مهاجراً إلى الحبشة، وفي صحبته زوجته رقيّة بنت رسول الله ﷺ[٤].

جهاده مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم:

شهد عثمان رضى الله عنه غالبية مواطن الغزو والجهاد مع رسول الله ﷺ، وقد تخلّف عن غزوة بدر بإذن من رسول الله ﷺ، حيث كان يمرّض زوجته رقيّة التي فارقت الحياة عند سماع أهل المدينة بنصر بدر، ولذا جعله النبيّ ﷺ في البدريين، وأسهم له بينهم، كما استخلفه النّبيّ ﷺ على المدينة في غزوة ذات الرّقاع[٥].

ولمّا قصد النّبيّ ﷺ وأصحابُه زيارة البيت الحرام في السّنة السّادسة من الهجرة واعترضت قريشٌ سبيلهم وصمّمت على منعهم، أرسله النّبيّ ﷺ إلى قريش، فبلّغ رسالة النّبيّ ﷺ لأبي سفيان وعظماء قريش، وسمحوا له أن يطوف بالبيت، فرفض قائلاً: "ما كنت لأفعل حتّى يطوف به رسول اللّه ﷺ"، فلمّا سمعت قريشٌ

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ١، ص٢٥٠؛ ابن الأثير: أسد الغابة، جـ٣، ص٥٧٨.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٥٥.

(٣) ثبت في الصحيح أنّه هاجر الهجرتين. البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥١، ح٣٤٩٣.

(٤) ابن سيّد النّاس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، جـ١، ص١٤٩.

(٥) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥٢، ح٣٤٩٥. ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٣٤؛ الصالحي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، جـ٤، ص١٧٦.

هذا الكلام احتبسوه، فأُشيع بين المسلمين أنّه قد قتل[1]، فاتّخذ النّبيّ ﷺ إجراء سريعاً لمواجهة صلف قريش، فدعا أصحابه للبيعة تحت "الشّجرة"، فبايعوه بيعة الرّضوان، في غياب عثمان رضى الله عنه[2].

وعندما وقعت الفتنة وخرج ضعاف الدّين وأهل الشّغب على عثمان رضى الله عنه جعلوا يفترون عليه ويتنقّصون من قدره ومن جهاده مع النّبيّ ﷺ حتّى جاء أحدهم من مصر فقرّر ابنَ عمر رضى الله عنهبتغيُّب عثمان عن بدرٍ، وفراره يومَ أُحُدٍ، وتغيُّبه عن بيعة الرّضوان في الحديبية، ولمّا صدّقه ابن عمر فيما يقول طفق يكبّر الله على ذلك، فأدرك ابن عمر رضى الله عنهأنّه مخدوع، وبيّن له وجه الحقيقة في مواقف عثمان فقال: "أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ مَرِيضَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، وَسَهْمَهُ"، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ اليُمْنَى: "هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ"، فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فقال: "هَذِهِ لِعُثْمَانَ"، وأمره ابن عمر رضى الله عنهأن يحدّث المصريين بهذا الجواب الحقيق، وقال له: "اذْهَبْ بِهَا الآنَ مَعَكَ"[3].

أبرز صفات عثمان في الإسلام:

كان عثمان رضى الله عنه من خيار النّاس في الجاهلية والإسلام، ولم يزده الإسلام إلا عزّا، على أنّ أبرز ما عرف به في الإسلام يتمثّل في الآتي:

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣١، ص٢١٦، ٢١٧، ح١٨٩١٠.

(٢) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٠٨٠، ح٢٧٩٨؛ مسلم: الصحيح، جـ٣، ص١٤٨٣، ح١٨٥٦.

(٣) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥٢، ح٣٤٩٥.

(١) حياؤه وعفّته:

لقد فاق عثمان رضى الله عنه جميع الصّحابة في الحياء، ولذا قال النّبيّ ﷺ في حقّه: "وَأَصْدَقُهُم حَيَاءً عُثْمَانُ"(١)، بل كان رسول الله ﷺ يستحي منه ويقول: "أَلاَ أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلاَئِكَةُ"؟(٢)، وقد ذكر الحسن البصري (١١٠هـ/٧٢٨م) شدّة حياء عثمان رضى الله عنه فقال: "إِنْ كَانَ لَيَكُونُ فِي الْبَيْتِ وَالْبَابُ عَلَيْهِ مُغْلَقٌ، فَمَا يَضَعُ عَنْهُ الثَّوْبَ لِيُفِيضَ عَلَيْهِ الْمَاءَ، يَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ أَنْ يُقِيمَ صُلْبَهُ"(٣).

(٢) الكرم والسّخاء:

كان عثمان رضى الله عنه من خزائن الله في أرضه(٤)، وقد قام بدورٍ كبير في إعانة الفقراء وتوفير احتياجاتهم من الأطعمة والمياه(٥)، وفعلُه ببئر رومة(٦) ليس بالمجهول، فعندما قدم النّبيّ ﷺ المدينة وجد أصحابه يستعذبون الماء من تلك البئر التي يملكها يهوديّ يغالي في بيع مائها للمسلمين، فحثّ النّبيّ ﷺ أصحابه على شرائها، وقال: "مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ دِلاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ

---

(١) الترمذي: السنن، جـ٥، ص٦٦٥، ح٣٧٩١؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ٢٠، ص٢٥٢، ح١٢٩٠٤.

(٢) مسلم: الصحيح، جـ٤، ص١٨٦٦، ح٢٤٠١.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥٥٤، ح٥٤٣، والأثر رجاله ثقات.

(٤) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٤٢.

(٥) محمد عبد العال محمد حسن: الأزمات الاقتصادية عند المسلمين في العهد النبوي، بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد: ٣٤، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، جـ٤، ص٢٩٨٢.

(٦) بئر رومة: تقع في وادي العقيق، وما زالت معروفة في آخر حرّة المدينة الغربية.

لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ"؟ فاستجاب عثمان رضى الله عنه لرغبة النّبيّ ﷺ واشتراها من صلب ماله[١]، بعشرين ألف درهم[٢]، وجعلها سبيلا لسائر المسلمين[٣].

وعندما عزم النّبيّ ﷺ على توسيع المسجد النّبويّ نادى في أصحابه: "مَنْ يُوَسِّعُ لَنَا بِهَذَا الْبَيْتِ فِي الْمَسْجِدِ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ"؟ فَابْتَاعهُ عثمان مِنْ مَالِه فَوَسَّع بِهِ الْمَسْجِدَ[٤].

ولمّا كان المسلمون في عُسرة اقتصاديّة سنة تبوك، فقد أنفق عثمان رضى الله عنه نفقة عظيمة حتّى كان أكثر المنفقين على ذلك الجيش، فعندما حثّ النّبيّ ﷺ أصحابه على النفقة بقوله: "مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ"، جهّزهم عثمان رضى الله عنه[٥]، وجاء بألف دينار فنثرها في حجر النّبيّ ﷺ فقلّبها مراراً وهو يقول: "مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ"[٦].

وعندما أصيب النّاس بأزمة اقتصاديّة في عهد الصّدّيق واجتمعوا إليه، وشكوا له قحوط الأمطار، وانعدام النّبات، أمرهم بالصّبر والانصراف، وأكّد لهم قرب انفراج الأزمة، "إِنَّكُمْ لا تُمْسُونَ حَتَّى يُفْرِّجَ اللَّهُ ﷻ عَنْكُمْ"، فتحقّق رجاء الصّدّيق ويقينه في ربّه، فلم يلبث النّاس إلا قليلا حتّى قدمت من الشّام قافلةٌ لعثمان فيها مِائةُ راحلةٍ محمّلة بالبُرّ والطّعام، فاجتمع التّجّار إلى باب عثمان رضى الله عنه ليشتروا منه الطّعام ثمّ يبيعوه للفقراء، فأدخلهم داره ورحّب بهم، وأوقفهم على

---

(١) الترمذي: السنن، جـ٥، ص٦٢٧، ح٣٧٠٣؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥٣٥، ٥٣٦، ح٥١١.

(٢) الدّينوري: المجالسة وجواهر العلم، جـ٢، ص١٠٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣٩، ص٢٠.

(٣) ابن حبان: الصحيح، جـ١٥، ص٣٦٢، ح٦٩٢٠.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٤٧٩، ح٤٢٠.

(٥) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٠٢١.

(٦) الترمذي: السنن، جـ٥، ص٦٢٦، ح٣٧٠١؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣٤، ص٢٣٢، ح٢٠٦٣٠.

الطّعام، ثمّ سألهم كم تُربحوني على شرائي من الشّام؟ فقالوا: للعشرة اثنا عشرَ، وما زالوا يزيدونه حتّى جعلوا للعشرة خمسةَ عشرَ، فردّ عليهم عثمان رضى الله عنه بأنّه قد زيد على ذلك، فقالوا: مَا بقى في المدينة تجّارٌ غيرُنا، فمن ذا الّذي زادك؟ فقال: زادني الله ﷻ بِكلّ دِرْهَمٍ عشرةً، أعندكم زيادةٌ؟ فقالوا: اللّهمّ لا، قال: فإنّي أُشهِد الله أنّي قد جعلتُ هذا الطّعام صدقةً على فقراء المسلمين(١).

(٣) تعلّق عثمان بالقرآن العظيم:

لقد حفظ عثمان رضى الله عنه القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ، وعرَضَه عليه كاملا قبل وفاته، ورَوَى قول النّبيّ ﷺ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"(٢).

ولعثمان رضى الله عنه أقوالٌ في القرآن الكريم تدلّ على تعلّقه به، وحبّه له، وحياته به، حيث قال: "إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمٌ لا أَنْظُرُ فِي الْمُصْحَفِ"، و "لَوْ أَنَّ قُلُوبَنَا طَهُرَتْ مَا شَبِعْنَا مِنْ كَلامِ رَبّنَا"(٣)، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف، فقيل له في ذلك فقال: "إنّه مباركٌ جاء به مبارك"(٤)،

(٤) العفو والصّفح والحلم واللين:

لقد اشتهر عثمان رضى الله عنه بالعفو والصّفح والحلم واللين، ويكفي في ذلك أنّه خرج لصلاة الغداة يوما فزحمه الباب الذي يدخل منه، فأشار على غلمانه والمحيطين به بكشف السّبب، فأتوه برجل يمنيّ مسلّح بخنجر أو سيف، فسأله عثمان رضى الله عنه عن أمره، فصرّح بأنّه أراد قتله لأنّ عامله على اليمن ظلمه، فتعجّب عثمان من أمره، وقال: "أَفَلا رَفَعْتَ ظُلامَتَكَ إِلَيَّ، فَإِنْ لَمْ أُنْصِفْكَ أَوَ أُعَدِّيكَ عَلَى عَامِلِي أَرَدْتَ ذَاكَ مِنِّي"؟ واستشار من حوله في أمر هذا الجاني، فأشاروا عليه بضرورة معاقبته، لأنّه عدوّ أمكن الله منه، ولكنّه عفا عنه، وأطلق

---

(١) الآجري: الشريعة، جـ٤، ص٢٠١٣، ح١٤٨٦؛الخركوشي: شرف المصطفى، جـ٥، ص٤٧٠، ٤٧١.

(٢) البخاري: الصحيح، جـ٤، ص١٩١٩، ح٤٧٣٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، ص٢٤٠.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين، ص٤٧٥.

سراحه بكفالة رجل من قومه، وما ضربه سوطا، ولا حبسه يوما، غير أنّه منعه من دخول المدينة مدّة خلافته[1].

وكان عثمان رضى الله عنه يدرك أنّ حلمه قد جرّأ عليه النّاس، فعندما عزم على زيادة المسجد الحرام وتوسعته سنة ٢٦هـ/٦٤٦م، ابتاع من قوم وأبى آخرون، فهدم عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصيّحوا به، فأمر بحبسهم، وقال: ما جرّأكم عليّ إلا حِلْمي، قد فعل هذا بكم عمر فلم تصيّحوا به، ثمّ كلّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي –وكان من عظماء قريش– فأخرجوا[2].

وهذه الأخلاق الفاضلة إنّما تفيد مع أهل الخير والصّلاح، وأمّا أهل الشرّ والإفساد فلا تزيدهم إلا جراءة واستهتارا، وسيتّضح هذا الأمر عند الحديث عن موقف عثمان رضى الله عنه من الخارجين على خلافته، ولهذا سنرى ابن عمر رضى الله عنه يقول: "لَقَدْ عِبْتُمْ عَلَى عُثْمَانَ أَشْيَاءَ لَوْ أَنَّ عُمَرَ فَعَلَهَا مَا عِبْتُمُوهَا"[3].

---

(١) ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ٢، ص١٣٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٩٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ٣، ص٣١٥.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٦، ص٣٦٢.

ثانيا: استخلاف عثمان ومنهجه في الحكم

عندما أصيب الفاروق على يد أبي لؤلؤة المجوسي ألحّ النّاس عليه بالاستخلاف، لكنه لم يجبهم إلى طلبهم، وقال: "أَتَحَمَّلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا! لَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنْهَا الْكَفَافُ لاَ عَلَىَّ وَلاَ لِي، فَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي – يَعْنِى أَبَا بَكْرٍ – وَإِنْ أَتْرُكْكُمْ فَقَدْ تَرَكَكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّى، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"(١).

غير أنّ الفاروق لم يستسلم لآلام الطّعنات والجراحات التي ألمّت به، ولم ينشغل بنفسه عن أمر المسلمين، بل ثبت ينصح للمسلمين، ويرتّب لهم أمر اختيار الخليفة القادم بتماسكٍ عقليّ وثبات جنان لا يصنعه إلا إيمان عميق، ورشّح ستّة نفر ليختار المسلمون الخليفة من بينهم فقال: "مَا أَجِدُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْ هَؤُلاَءِ النَّفَرِ، أَوِ الرَّهْطِ، الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَسَمَّى عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ(٢)، وقال: يَشْهَدُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ –كَهَيْئَةِ التَّعْزِيَةِ لَهُ– وأوصى الخليفة من بعده بالمهاجرين والأنصار وأهل الأمصار والأعراب وأهل الذّمّة(٣).

ورأى عمر أنّ أسهم عبد الرّحمن وعثمان وعليّ أرجح من غيرهم فجمعهم فقال: "إِنَّ قَوْمَكُمْ إِنَّمَا يُؤَمِّرُونَ أَحَدَكُمْ أَيُّهَا الثَّلاثَةُ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَلا تَحْمِلْ ذَوِي قَرَابَتِكَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ يَا عُثْمَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ فَلا تَحْمِلَنَّ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَإِنْ

---

(١) البخاري: الصحيح، جـ٦، ص٢٦٣٨، ح٦٧٩٢؛ مسلم: الصحيح، جـ٣، ص١٤٥٤، ح١٨٢٣.

(٢) استبعد عمر سعيد بن زيد العدوي من المرشحين للخلافة مع أنّه من العشرة المبشرين بالجنّة، لكونه من عشيرته، وخشية أن يراعى في الإمارة بسببه. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، ص١٥٥. ومبالغة في التّبرّي من الأمر لقرابته منه. ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص٦٧.

(٣) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ يَا عَلِيُّ فَلا تَحْمِلَنَّ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ"[١].

واستدعى الفاروق صهيبا فقال له: "صَلِّ بِالنَّاسِ-ثَلاثًا- وَأَدْخِلْ هَؤُلاءِ فِي بَيْتٍ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ، فَمَنْ خَالَفَهُمْ فَلْيَضْرِبُوا رَأْسَهُ"[٢]، كما كلّف أبا طلحة الأنصاري رضى الله عنه أن يختار خمسين رجلا من الأنصار ويستحثّ هؤلاء الرّهط حتّى يختاروا أحدهم[٣].

ولمّا فرغ المسلمون من دفن عمر رضى الله عنه اجتمع الرّهط المرشّحون للخلافة، فأشار عليهم عبد الرّحمن بن عوف أن يجعلوا أمرهم إلى ثلاثة منهم، فاختار سعدٌ عبد الرّحمن، واختار الزّبير عليّا، واختار طلحةُ عثمانَ، ثمّ تدرّج عبد الرّحمن للخطوة التّالية، فاقترح على عثمان وعليّ أن يتبرّأ أحدهما من الأمر، ويتولّى مهمّة اختيار الخليفة، فسكت الشّيخان[٤]، فأعلن عبد الرحمن خروجه من تلك المنافسة[٥]، وعرض عليهما أن يتولّي مهمّة إجراء الاستفتاء واختيار الأفضل للخلافة، وأعطاهما عهد الله على القيام بالأمر بنزاهة تامّة فوافقاه[٦].

وعندما علم النّاس بتفويض عبد الرّحمن لاختيار الخليفة مالوا إليه يشاورونه في الأمر[٧]، فنهض لاستفتاء النّاس ومعرفة آرائهم حول عثمان وعليّ، فظلّ دائبا

---

(١) البيهقي: السنن الكبرى، جـ٨، ص٢٥٩، ٢٦٠، ح١٦٥٨٠؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٣٤٤.

(٢) ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، جـ١٥، ص٧٧٦، ح٣٨٩٨.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص٥٠٤.

(٤) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٥) البخاري: الصحيح، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٦) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٧) البخاري: الصحيح، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

للسّؤال ثلاثة أيّام بلياليها لا يدع أحدا من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد[١]، ولا وفود العرب ولا صالحي التّابعين إلا سأله عن رأيه في الخليفة المرتقب، فاجتمعت غالبية أصواتهم على عثمان[٢].

كما أجرى عبد الرحمن مقابلات مع النّفر المرشّحين للخلافة واحدا تلو الآخر في الليلة التي أُعلن اسمُ الخليفة في صبيحتها[٣]، فكان كلّما دعا رجلا منهم ذكر مناقبه، ثمّ قال: "إِنَّكَ لَهَا لأَهْلٌ فَإِنْ أَخْطَأْتُكَ فَمَنْ؟ فَيَقُولُ: إِنْ أَخْطَأْتَنِي فَعُثْمَانُ"[٤].

ولمّا أُذّن للفجر اجتمع النّاس للصّبح كما يجتمعون للجمعة انتظارا لمعرفة الخليفة ومبايعته، فأمر عبد الرّحمن النّفر المرشّحين أن يجلسوا بين يدي المنبر، وانتظر حتّى طلعت الشّمس، ثمّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وكشف للنّاس عن الخطّة التي قام بها في استفتاء النّاس ومعرفة آرائهم[٥]، وأخذ العهد والميثاق على المرشّحَين بالسّمع والطّاعة لمن يتولّى الأمر[٦]، ثمّ أعلن أمام الجميع أنّ غالبية أصوات المرشّحين وأصوات النّاس قد اجتمعت على عثمان[٧]، ورفع يدَه فبايعه، فبايع له عليٌّ[٨]، وتبعه المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون[٩]، ولم يعترض أحدٌ على عبد الرحمن، ولم يخالف أحدٌ على

---

(١) كان أمراء الأجناد قد وافوا تلك الحجّة مع عمر ﷺ. البخاري: الصحيح، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٢) الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥.

(٣) البخاري: الصحيح، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٤) الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٥، ح٥٩٦.

(٥) الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥.

(٦) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٧) الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥.

(٨) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٩) البخاري: الصحيح، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

عثمان[١]، وكانت مبايعته لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣هـ/ ٦ نوفمبر ٦٤٤م، واستقبل بخلافته المحرّم سنة أربع وعشرين[٢].

وكان عثمان رضى الله عنه جديرا بتولّي الخلافة بعد الفاروق، وقد صحّ عن ابن عمر ﷺ أنّه قال: "كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ"[٣].

إعلان عثمان لمنهجه في الحكم:

كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قد بايع عثمان بن عفّان رضى الله عنه "عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ"، وبايعه على ذلك المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد وعامّة المسلمين[٤]، وقد أكّد عثمان على ما بايع عليه النّاس فخطب بعدما بويع فقال: "إِنِّي قَدْ حُمِّلْتُ وَقَدْ قَبِلْتُ، أَلا وَإِنِّي مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، أَلا وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ وسُنّة نبيّه ﷺ ثَلاثًا: اتِّبَاعُ مَنْ كَانَ قَبْلِي فِيمَا اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ وَسَنَنْتُمْ، وَسَنُّ سُنَّة أَهْلِ الْخَيْرِ فِيمَا لَمْ تَسِنُّوا عَنْ مَلإٍ، وَالْكَفُّ عَنْكُمْ إِلا فِيمَا اسْتَوْجَبْتُمْ، أَلا وَإِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ قَدْ شُهِّيَتْ إِلَى النَّاسِ، وَمَالَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، فَلا تَرْكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا وَلا تَثِقُوا بِهَا، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِثَقَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا غَيْرُ تَارِكَةٍ إِلا مَنْ تَرَكَهَا"[٥].

وقد بدأ عثمان رضى الله عنه مهام خلافته بإقرار عمّال الفاروق، فلم يعزل منهم أحدا عاما كاملا أخذا بوصيّة الفاروق عمر رضى الله عنه[٦]، ويستخلص من

---

(١) الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٦٣؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٨٩.

(٣) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٣٧، ح٣٤٥٥.

(٤) البخاري: الصحيح، جـ٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٩٣؛ المالقي: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ص٤٢.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم في أخبار الملوك والأمم، جـ٤، ص٣٣٨.

الكتب التي أرسلها عثمان للولاة وقادة الجند وعمّال الخراج والعامّة[١] أنّه سيسير على سياسة عمر رضى الله عنه، ويركّز على قيم العدل السّياسي والاجتماعي والاقتصادي، بإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم وأخذ ما عليهم، وإعلاء شأن مبدأ الرّعاية السّياسيّة لا الجباية وتكثير الأموال[٢].

وكانت قضيّة مقتل الهرمزان أوّل ما عرض لعثمان رضى الله عنه، فأخذ فيها برأي عمرو بن العاص، وتكفّل بالدّية، وأهدر دم القتيل[٣]؛ وقيل إنّ عثمان رضى الله عنه أمكن القماذيان بن الهرمزان من عبيد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وأمره أن يقتله، وأيده على ذلك الصحابة والمسلمون، وسبّوا عبيد الله، إلا أنّهم طلبوا منه العفو من غير عزيمة عليه، فلمّا رأى أنّهم لا يمنعونه من قتله تركه لله ولهم، فأعجب النّاس بصنيعه، فاحتملوه على رؤوسهم وأكفّهم حتّى بلغ منزله[٤]، ولا يصحّ هذا الادعاء[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٩٠.

(٢) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٤٦.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٣٥٥. وأورد ابن حجر هذه القصة من طريق الكرابيسي في أدب القضاء، وصحح إسنادها إلى سعيد بن المسيّب: الإصابة، جـ٦، ص٤٤٩.

(٤) المالقي: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ص٤٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٤٤٨.

ثالثا: جمع القرآن في عهد عثمان.

تفرّق القرّاء في الأمصار في عهد عثمان رضى الله عنه، وأخذ أهلُ كلّ إقليم بقراءة من اشتهر بينهم من الصّحابة، فقرأ أهل الشّام بقراءة أبيّ بن كعب، وأهل الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة بقراءة أبي موسى الأشعري، فكان بينهم اختلافٌ في حروف الأداء ووجوه القراءة، وتنازع النّاس في تفضيل قراءة على أخرى، وعظم الأمر، حتّى كادت الفتنة أن تقع في جميع البلدان الإسلاميّة بما فيها مكّة والمدينة[1].

فقد "جَعَلَ الْمُعَلِّمُ يُعَلِّمُ قِرَاءَةَ الرَّجُلِ، وَالْمُعَلِّمُ يُعَلِّمُ قِرَاءَةَ الرَّجُلِ، فَجَعَلَ الْغِلْمَانُ يَلْتَقُونَ فَيَخْتَلِفُونَ، حَتَّى ارْتَفَعَ ذَلِكَ إِلَى الْمُعَلِّمِينَ، حَتَّى كَفَرَ بَعْضُهُمْ بِقِرَاءَةِ بَعْضٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُثْمَانَ، فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ: "أَنْتُمْ عِنْدِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَتَلْحَنُونَ، فَمَنْ نَأَى عَنِّي مِنَ الأَمْصَارِ أَشَدُّ فِيهِ اخْتِلافًا، وَأَشَدُّ لَحْنًا، اجْتَمِعُوا يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ وَاكْتُبُوا لِلنَّاسِ إِمَامًا"[2].

وصدق حدس عثمان رضى الله عنه فقد كانت الأمصار النّائية أشدّ اختلافا ونزاعا من المدينة والحجاز، وكان حذيفةُ بن اليمان رضى الله عنهيُغازي أهل الشّأم في فتح أَرْمِينِيَةَ، وَأَذْرَبِيجَانَ مع أهل العراق فأفزعه اختلافُهم في القراءة، فقدم على عثمان فقال: "يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ اخْتِلاَفَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى"، فأرسل عثمانُ إلى حفصة: "أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي المَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ"، فأرسلتْ بها إليه، فأمر زيدَ بن ثابتٍ، وعبدَ الله بن الزّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرّحمن ابن الحارث بن هشامٍ[3]، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّهط القرشيّين الثّلاثة: "إِذَا

---

(1) أكرم عبد خليفة حمد الدليمي: جمع القرآن، ص١٧٧، ١٧٨.

(2) ابن أبي داوود: كتاب المصاحف، ص٩٥.

(٣) استظهر هؤلاء النساخ بأبيّ بن كعب ﷺ في الإملاء. ابن حجر: فتح الباري، جـ٩، ص١٩.

اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ"، ففعلوا، وردّ عثمان الصّحف إلى حفصة، وأرسل إلى كلّ أُفق بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ أو مصحفٍ، أن يحرق"[١].

ولمّا شقّق عثمان رضى الله عنه المصاحف الأخرى وأحرقها رضيَ الصّحابة صنيعه وأعجبوا به، ولم يعبه أحدٌ بذلك[٢]، وأحرقوا مصاحفهم المخالفة له، ولم يتخلّف عن ذلك –في بادئ الأمر– إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فإنّه شقّ عليه صرفه عن كتابة المصاحف[٣]، وقال: "يَا أَهْلَ العِرَاقِ، اكْتُمُوا المَصَاحِفَ الَّتِي عِنْدَكُمْ وَغُلُّوهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾[٤]، فَالقُوا اللَّهَ بِالمَصَاحِفِ"[٥].

وقد عدل عثمان رضى الله عنه عن ابن مسعود إلى زيد بن ثابت في نسخ المصاحف؛ لأنّ زيدا أحدثُ القوم بالعرضة الأخيرة التي عرضها النّبيّ ﷺ على جبريل عام توفي، وكان إماما في الرّسم بكتابته للنّبيّ ﷺ، كما مارس كتابة المصحف عندما ندبه الصّدّيق لجمع القرآن، وأمّا ابن مسعود فكان إماما في الأداء دون الرّسم؛ لأنّه لم يكن من بين كتبة الوحي الذين كتبوا للنّبيّ ﷺ[٦]، وكان زيدٌ أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كله في حياة رسول الله ﷺ، ولم يحفظ منه عبد الله في حياة النّبيّ ﷺ إلا نيّفا وسبعين سورة، ثم تعلّم الباقي بعد وفاة الرّسول ﷺ، فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله ﷺ حيّ أولى بجمع المصحف

---

(١) البخاري: الصحيح، جـ٤، ص١٩٠٨، ح٤٧٠٢.

(٢) البخاري: التاريخ الكبير، جـ٧، ص٣٥٠؛ ابن أبي داوود: كتاب المصاحف، ص٦٨.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، جـ٩، ص١٩.

(٤) سورة آل عمران: من الآية ١٦١.

(٥) الترمذي: السنن، جـ٥، ص٢٨٤، ح٣١٠٤.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١، ص٤٨٨؛ أكرم عبد خليفة حمد الدليمي: جمع القرآن، ص١٨٢، ١٨٣.

وأحقّ بالإيثار والاختيار، مع أنّ عبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل[١].

وقد بعث عثمان إلى ابن مسعود يأمره بالقدوم عليه في المدينة فاجتمع عليه أهل الكوفة، وطالبوه بعدم المسير إلى الخليفة، ووعدوه بالنّصرة والمنعة، فأبى إلا المسير وحده وردّ النّاس، وهو يقول: "إِنَّهَا سَتَكُونُ أُمُورٌ وَفِتَنٌ، لا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَنَا أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهَا وَلَهُ عَلَيَّ طَاقَةٌ"[٢]، ولمّا التقى به الخليفة وعظه وحذّره الفرقة فاستجاب ورجع إلى الجماعة وحثّ أصحابه على ذلك[٣].

ولم يكن جمع الصّدّيق وعثمان ﷺ واحدا؛ فإنّ جمع أبي بكر كان لخشيته أن يذهب شيءٌ من القرآن بذهاب حملته؛ لأنّه لم يكن مجموعا في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النّبيّ ﷺ، وجمع عثمان كان لمّا كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتّى قرأوه بلغاتهم على اتّساع اللغات، فأدّى ذلك إلى تخطئة بعضهم البعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصّحف في مصحف واحد مرتبًا لسوره، واقتصر في سائر اللغات على لغة قريش محتجّا بأنّه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسّع في قراءاته بلغة غيرهم، دفعًا للحرج والمشقّة في ابتداء الأمر، فرأى أنّ الحاجة قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة[٤].

ولمّا تمّ نسخ المصاحف ردّ عثمان رضى الله عنه الصّحف إلى أمّ المؤمنين حفصة ﷺ إيفاء بالعهد الذي أعطاها إيّاه، فلم تزل عندها حتّى أرسل إليها مروان بن الحكم يطلبها، فلم تعطه حتّى ماتت، فعند ذلك عزم على عبد الله بن

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، جـ١، ص٥٣.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ١٣، ص٢٥٠.

(٣) ينظر: أكرم عبد خليفة حمد الدليمي: جمع القرآن، ص١٩١.

(٤) ابن حجر: فتح الباري، جـ٩، ص٢١.

عمر حتّى أخذها منه فأحرقها[١]، لئلا يكون فيها شيءٌ يخالف المصاحف الأئمة، التي أنفذها عثمان رضى الله عنهإلى الآفاق[٢].

رابعا: مواصلة الفتوحات في عهد عثمان رضى الله عنه

لم يستسلم الفرس للفتوحات الإسلاميّة التي تمّت في عهد الفاروق، ولم تكن طاعتهم إلا مجرد هدنة يرتّبون فيها أوضاعهم حتّى تواتيهم الفرصة لإعادة أمجادهم وطرد المسلمين، كما بدأ زعماء الرّوم في البحث عن الوسائل التي تمكّنهم من استرداد ملكهم في البلاد التي دانت لهم، وقد رأى الطرفان في مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرصة مواتية لهم، لكن الخليفة عثمان رضى الله عنه وقف لهم بالمرصاد، وعزم على إخضاع المتمرّدين، ومواصلة أعمال الجهاد والفتوح، وإقامة قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد المفتوحة، وإنشاء قوّة بحريّة لافتقار الجيش الإسلامي إليها. ومن أهم الفتوحات في عهده ﷺ.

أولا: إعادة فتح البلاد التّابعة للفرس:

(١) إخضاع أذربيجان وأرمينية:

انتفض أهل أذربيجان على واليهم عتبة بن فرقد عقب وفاة عمر رضى الله عنه، فغزاهم أمير الكوفة[٣] الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي، وتمكن من

---

(١) ابن أبي داوود: كتاب المصاحف، ص٥٧؛ أبو زرعة: تاريخ أبي زرعة الدمشقي، رواية أبي الميمون بن راشد، ص٦٢؛ الطحاوي: شرح مشكل الآثار، جـ٥، ص٣٠٤، ٣٠٥.

(٢) ابن كثير: فضائل القرآن، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ص٧٧.

(٣) كانت لأهل الكوفة قاعدتان لحماية البلاد المفتوحة في أذربيجان والرّي، فكان يقيم بأذربيجان ستة آلاف وبالرّي أربعة آلاف في الوقت الذي بلغ فيه الجيش الكوفي أربعين ألفا، فكان الغزو يصيب الجندي مرة كل أربع سنوات. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٩١.

إخضاعهم، وأرسل سليمان بن ربيعة الباهلي في اثني عشر ألفا إلى أرمينية فأخضعها أيضا، وعاد الوليد منتصرا إلى الكوفة سنة ٢٦هـ/٦٤٦م[١].

(٣) فتح فارس وخراسان:

انتقضت بلاد فارس وخراسان على المسلمين في عهد عثمان رضى الله عنه فنهض والي البصرة عبد الله بن عامر بن كُرَيز العبشمي –ابن خال عثمان– لإعادة فتحها سنة ٣١هـ/٦٥١م، فوجّه جيشا إلى سِجِسْتَانَ، فافتتحها صلحًا[٢]، وغزا ابن عامر قلاع فارس فافتتحها ثانية، ثمّ توجّه بجيوشه إلى خراسان لتتبع كسرى وقوّاد فارس، فلم يقف له شيء حتّى افتتح مدينة مرو –قاعدة خراسان– صلحا، وتتابعت الفتوح على ابن عامر وجيوشه، حتّى أحرم بالحجّ من خراسان سنة ٣٢هـ/٦٥٢م[٣]، ورجع إلى البصرة فعاود الغزو، وأقام سوق الجهاد، ولم يزل ينتقصُ شيئًا شيئًا من خراسانَ حتّى دانت له[٤].

(٤) مقتل الملك الفارسي يزدجرد:

كان يزدجرد قد أتى إصطخر في أصل بلاد فارس[٥]، فلمّا أتمّ عبد الله بن عامر ابن كريز فتح إقليم فارس سنة ٣٠هـ/٦٥٠م، هرب يزدجرد[٦]، إلى كَرمان، فلم يحتمله مرزبانها، وطرده منها، فأتى سجستان، وهو يظنّ نفسه ملكا، فطالب ملكها بالخراج، فتنكّر له، فسار إلى خراسان وبقي بها حتّى تغيّر عليه حاكمها، واستعدى عليه جيرانه، فخرج لمواجهتهم فهزموه، وقتلوا أصحابه[٧]، فهام على

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٩١، ٥٩٢.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٤٥.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٤٦.

(٤) المصدر السابق، جـ٥، ص٤٧.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٣٣.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٦٤.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٣٤؛ الدينوري: الأخبار الطوال، ص١٣٩.

وجهه حتّى قتل على يد طحّان من رعيّته شرّ قتلة سنة ٣١هـ/٦٥١م[١]، وقد اختلف الرّواة في كيفيّة مقتله بما لا فائدة لنا من ورائه.

ثانيا: فتوح الجبهة الشّامية:

(١) فتح طرابلس الشام:

كانت طرابلس الشّاميّة لا تزال تحت السّيطرة البيزنطيّة حتّى خلافة عثمان رضى الله عنه، وكان البيزنطيّون قد نجحوا في استعادة بيروت وجُبيل وبعض المدن السّاحليّة عام ٢٣هـ/٦٤٤م، وظلّوا بها مدّة عامين، فرأى معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ضرورة فتح طرابلس -آخر المعاقل البيزنطيّة على السّاحل الشّامي- التي أوى إليها الرّوم من مختلف البلاد الشّاميّة، وذلك لتأمين مكتسبات المسلمين من الهجمات البيزنطيّة البحريّة التي تنطلق من تلك القاعدة، والاستفادة منها كمنفذ بحري لبلاد الشّام، وثغر لدمشق وحمص[٢]، وقد تمّ فتحها على يد والي بعلبك سفيانَ بن مجيب الأزدي[٣].

(٢) بناء الأسطول البحري وفتح قبرص:

أدرك والي الشّام معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ضرورة بناء أسطول إسلامي ليتمكّن من الردّ على الهجمات البحريّة البيزنطيّة، ويسيطر على الجزر القريبة التي يتّخذها البيزنطيّون قواعد للهجوم على البلاد الإسلاميّة، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطلب منه السّماح بركوب البحر، وغزو الجزر القريبة من ساحل بلاد الشّام، ويؤكّد له أنّ قرية في سواحل حمص يسمع أهلها صياح ديكة القبارصة ونباح كلابهم، ولكنّ عمر رضى الله عنه خاف على

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٤٦.

(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص٣٧٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥١؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص٣٧٧، ٣٧٨.

أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَدَعَا لَهَا، ثُمَّ نَامَ الثَّانِيَةَ، فَفَعَلَ مِثْلَهَا، فَقَالَتْ مِثْلَ قَوْلِهَا، فَأَجَابَهَا مِثْلَهَا، فَقَالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: "أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ"، فَخَرَجَتْ مَعَ زَوْجِهَا عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ غَازِيًا أَوَّلَ مَا رَكِبَ المُسْلِمُونَ البَحْرَ مَعَ مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا مِنْ غَزْوِهِمْ قَافِلِينَ، فَنَزَلُوا الشَّأْمَ، فَقُرِّبَتْ إِلَيْهَا دَابَّةٌ لِتَرْكَبَهَا، فَصَرَعَتْهَا، فَمَاتَتْ[1].

وعندما وصل الأسطول الإسلامي إلى قبرص رسا على ساحلها، وأغار الجنود المسلمون على نواحيها، فاضطرّ ملك قبرص في ظلّ عجزه عن المقاومة إلى طلب الصّلح، فصالحه معاوية رضى الله عنه[2] على أن:

* يؤدي أهل قبرص جزية سنويّة مقدارها سبعة آلاف دينار، كما يؤدّون للبيزنطيّين مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم، وبين ذلك.

* يمتنع المسلمون عن غزو الجزيرة، ولا يقاتلون عن أهلها من أرادهم من ورائهم.

* يُعلم القبارصة المسلمين بتحرّكات الروم المعادية لهم، ولا يساعدوهم على غزو بلاد المسلمين.

* أن يولّي خليفة المسلمين بطريقا على القبارصة من أنفسهم[3].

ثالثا: فتوح الجبهة المصرية:

(١) إعادة فتح الإسكندرية:

لم يكن فتح المسلمين للإسكندريّة يسيرا على الرّوم، ولذلك ظلّوا يتحيّنون الفرصة لإعادتها، فلمّا رأت البقيّة الرّوميّة التي لا تزال في الإسكندريّة قلّة عدد جند

---

(١) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٠٣٠، ح٢٦٤٦؛ مسلم: الصحيح، جـ٣، ص١٥١٩، ١٥٢٠، ح١٩١٢.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٦، ١٧٧.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٧، ١٧٨؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٠٢.

المسلمين بها كاتبوا ملك الرّوم قسطنطين الثالث (٦٤١- ٦٦٨م/ ٢٠- ٤٨هـ) وحرّضوه على غزوها وأخذها من يد المسلمين، فأرسل لتلك المهمّة قائده منويل الخصي بثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة والسّلاح والعتاد، وذلك في سنة ٢٥هـ/٦٤٥م[١].

ويختلف المؤرّخون في والي مصر الذي هاجمت الرّوم الإسكندريّة في أيّامه بين عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي السّرح، لكنهم متّفقون على قيام عمرو بن العاص بإعادة فتح الإسكندريّة؛ لأنّ المستمسكين بإمارة ابن سعد يجزمون بأنّ أهل مصر التمسوا من الخليفة إقرار عمرو لمواجهة الرّوم، بسبب خبرته الحربيّة وهيبته في القلوب الرّوميّة، فاستجاب عثمان لهم[٢].

وكان البيزنطيّون قد فاجئوا روابط المسلمين بالإسكندريّة، وأعملوا فيهم القتل فلم ينج منهم إلا من تمكّن من الهرب، واستولوا على المدينة كلّها، وتوغّلوا في أرض مصر، وعاثوا فيها فسادا، حتّى كادوا يصلون إلى بابليون[٣]، إلا أنّ المقوقس لم ينكث عهده مع المسلمين[٤].

لم يسرع عمرو بن العاص لمواجهة الرّوم؛ وإنّما سار إليهم بخمسةَ عشرَ ألف مقاتل[٥] على مَهَل، حتّى وصلوا نقيوس، وقد أبغضهم أهل القرى وحنقوا عليهم؛ لأنّهم أكلوا طعامهم، وشربوا خمورهم، وانتهبوا أمتعتهم[٦].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩٠؛ الكندي: الولاة والقضاة، ص١٢؛ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣١١.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٥٨؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٨٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩١.

ودارت معركةٌ شديدة بين المسلمين والرّوم في البرّ والبحر تراجع فيها المسلمون في البداية، وعقرت فرس عمرو بن العاص فقاتل راجلا، وانهزمت خيّالة المسلمين بقيادة شريك بن سُميّ الغُطَيفي المرادي، واستعلى الرّوم فخرج بطريقٌ منهم يطلب المبارزة فخرج له رجل زبيدي يمنيّ يقال له حومل فاقتتلا طويلا حتّى قُتل الرّومي، وصدق المسلمون الحملة فهزموا الرّوم، وطاردوهم حتّى أدخلوهم الإسكندريّة(١).

وفرح المصريون بهزيمة الرّوم فخرجوا يصلحون الطّرق للمسلمين، ويقيمون لهم الجسور التي دمّرها العدوّ، ويقدّمون لهم ما ينقصهم من السّلاح والمؤونة.

ووصل عمروٌ الإسكندريّة فضرب عليها الحصار(٢)، ونصب عليها المجانيق(٣)، وتابع عليها الضّرب حتّى تصدّعت أسوارها، وألحّ عليها بالحرب حتّى دخلها عنوة، فقتل مقاتلة الرّوم، وسبى نساءهم وذراريهم، ولم ينج منهم إلا من هرب ولاذ إلى السّفن، وسقط قائدهم منويل في عداد القتلى(٤)، وأمر عمروٌ بتدمير أسوار الإسكندريّة(٥)، حتّى لا يتحصّن الأعداء فيها مرّة أخرى(٦).

(٢) غزو إفريقيّة:

لمّا جمع عثمان رضى الله عنهولاية مصر لعبد الله بن سعد سنة ٢٥هـ/٦٤٦م، كان يرسل جرائد الخيل للإغارة على أطراف إفريقيّة، ولم يزل يستأذن عثمان في

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩١؛ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣١١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤.

(٣) ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، جـ١٨، ص٤١.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٥.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩١.

(٦) المصدر السابق، ص١٩٠.

مواصلة فتح المغرب حتّى غيّر سياسته في التّوقّف عن غزوها[١]، وأمدّ عبد الله بن سعد بجيش عظيم سنة ٢٧هـ/٦٤٨م[٢].

وخرج عبد الله بن سعد قاصدًا إفريقيّة (تونس)، ودعا حاكمها البيزنطي جُرْجِير (جرجريوس)[٣] إلى الإسلام أو الجزية، فامتنع، وزحف إلى المسلمين بجيش كبير، واصطدم بهم خارج قاعدته سُبَيْطِلَة[٤]، فطالت الحرب بين الفريقين[٥]، ولم يستطع المسلمون التّغلب على جرجير إلا بعد وصول مدد إليهم بقيادة عبد الله بن الزّبير بن العوّام[٦]، حيث قاد مجموعة من الفرسان المتأهّبين، وهاجموا الرّوم على حين غفلة قبل أن يتمكّنوا من السّلاح، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وسقط جرجير قتيلا على يد ابن الزّبير سنة ٢٨هـ/٦٤٩م[٧].

وعقد ابن سعدٍ صلحًا مع زعماء البلاد من البربر مقابل جزية سنويّة، وعاد إلى مصر في أوائل سنة ٢٩هـ/٦٤٩م، بعدما غنم مغانم عظيمة، وأرسل ابن الزّبير ببشارة الفتح إلى المدينة[٨]، ولم يترك مسلحة بإفريقيّة، ولم يولّ عليها أحدا من قبله[٩].

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩٨، ١٩٩.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٩.

(٣) جرجريوس: أحد قادة الروم، ولاه هرقل على أفريقيّة فخلع طاعته، وضرب الدنانير باسمه، وحكم ما بين أطرابلس الليبية إلى طنجة المغربية. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩٩.

(٤) سبيطلة: مدينة بتونس، تقع جنوبي القيروان في عمق البلاد. ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص١٨٧. وقد اتخذ جرجير هذه المدينة قاعدة له، ليكون في مأمن من غارات البيزنطيين.

(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٧٢.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص٤٦٣.

(٧) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جـ١، ص١٠- ١٢.

(٨) ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص٤٦٤.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٥٠.

المحاضرة العاشرة خلافة راشده الفصل الثاني

(٣) معركة ذات الصّواري:

وقعت معركة ذات الصّواري[١] بين الأسطول الرّوميّ ذي التّاريخ البحريّ الطّويل والأسطول الإسلاميّ النّاشئ في مصر والشّام، وذلك سنة ٣٤هـ/٦٥٤م، على تأريخ جمهور المؤرّخين[٢].

وقد قام البيزنطيون بهذه الحملة لاسترداد الإسكندريّة العزيزة عليهم[٣]، والتي سبق استردادهم لها سنة ٢٥هـ/٦٤٥م، وطردهم منها على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه.

وكان البيزنطيّون يراقبون تحرّكات القوّات المصريّة، وينتهزون الفرصة لاستعادة البلاد؛ فقد داهموا سواحل مصر بكامل أسطولهم البحري[٤] في الوقت الذي أرسل فيه الأمير عبدُ الله بنُ سعدٍ بُسرَ بن أرطأة العامري القرشيّ في نصف جنود مصر لغزوة بريّة، وقد صدم بقيّة الجند عندما أخبرهم أميرهم ابن سعد بمداهمة الرّوم لهم في غياب خيرة الجند عنهم[٥].

وقد اندهش عبدُ الله بن سعد عندما علم بكثرة عدد الرّوم وهاله الأمر فنادى في جموع جنده يطلب منهم المشورة مرّتين، ولكن لم يردّ عليه أحد لهول الموقف،

---

(١) الصّـواري: جمع صـاري، وهو عمود السـفينة الذي ينصـب في وسـطها ويكون عليه الشراع. ابن الأثير: النهاية، جـ٣، ص٢٨.

(٢) خليفة ابن خياط. تاريخ خليفة، ص١٦٨؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ٢، ص١٩٢؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص٥٣٩؛ ابن يونس: تاريخ ابن يونس، جـ١، ص٢٦٩؛ الكندي: الولاة والقضاة، ص١٣؛ المقريزي: الخطط، جـ٣، ص٣٣٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ١، ص٨٠.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦؛ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٣١٣.

(٤) يحدده ابن عبد الحكم بألف مركب، بينما يقيده الطبري بخمسمائة أو ستمائة. فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦؛ تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٢٠.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٨.

ثمّ عزم عليهم في الثّالثة بإبداء رأيهم؛ "لأنّه لم يبق شيء"، فقام أحد المتطوّعة وذكره بقول الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِوَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١]، فأمر عبد الله ابن سعد جنده بركوب السّفن[٢]، التي بلغت نحو مائتي مركب[٣]، ولكنه لم يستطع شحنها بكامل القوّات المصريّة؛ نظرا لخروج نصفها مع بسر بن أرطأة في غزوة برّيّة[٤]، ولذا ركب "في كلّ مركب نصف شحنته"[٥].

واقترب الأسطول الإسلامي من الروم، فنظر الجند إلى مراكب لم يروا مثلها قطّ، وكانت الرّيح لصالح مراكب الرّوم، فأرسى ابن سعد بجنده ساعة، وأرسى الرّوم قريبا منهم حتّى سكتت الرّيح، فأرسل ابن سعد للروم: "إن أحببتم ننزل إلى السّاحل فنقتتل حتّى يكتب لأحدنا النّصر، وإن شئتم فالبحر"، "فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: بل الماء الماء"[٦]، وهذا يظهر لنا ثقة الرّوم بخبرتهم البحريّة، وأملهم في النّصر، لممارستهم أحواله وفنونه، فقد مرنوا عليه طويلا، وأحكموا الدّراية بثقافته وأنوائه، فطمعوا بالنّصر فيه، خصوصا أنّهم يعلمون حدثان عهد المسلمين به[٧].

وكان الفريقان قد استأمن بعضهم بعضا قبل المعركة[٨]، لكن موقف المسلمين كان حرجا، فطلب ابن سعد المشورة من جنده، فأشاروا عليه أن ينتظر تلك الليلة حتّى يرتّبوا أمورهم ويختبروا عدوّهم، فباتوا يصلّون ويدعون الله ﷻ، وبات الرّوم

---

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٤٩.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦.

(٣) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ص١٣.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦، ٢٠٧.

(٥) المصدر السابق، ص٢٠٦.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٩. من طريق الواقدي.

(٧) شوقي أبو خليل: ذات الصواري، ص٦٦.

(٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٩. من طريق الواقدي.

يضربون بالنّواقيس، ولمّا أصبحوا أجمع ملك الروم على القتال وقرّب سفنه، وكان أمر المسلمين قد اجتمع على تنفيذ خطّتهم البرّية في عرض البحر، فربطوا سفنهم بعضها إلى بعض، وقام عبد الله بن سعد فصفّ جنده في نواحي السّفن، وطاف عليهم يأمرهم بقراءة القرآن، ولزوم الصّبر[١].

ولمّا كان الرّوم مغترّين بقوّتهم وأسطولهم، فقد سارعوا ببدء القتال، ووثبوا على سفن المسلمين، وانقضّوا على صفوفهم الأماميّة فنقضوها، ودار قتال شديدٌ بين الطرفين على غير صفوف[٢]، واقتتلوا يومئذ بالنّبل والنّشاب والحجارة[٣]، والسّيوف والخناجر، وصبر الرّوم صبرا لم يصبروا في موطن قطّ مثله حتّى قتل منهم ما لا يحصى، وقتل من المسلمين بشرٌ كثير، وسالت الدّماء غزيرة حتّى غلبت على الماء، فاحمرّ لون البحر، "ورجعت الدّماء إلى السّاحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرّجال ركاما"[٤].

وكاد الأمير ابن سعد أن يقع أسيرا؛ فقد قام الرّوم بربط مركبه بأحد مراكبهم عند احتدام المعركة، وكادوا أن يجرّوه، لكن علقمة بن يزيد الغُطَيْفي[٥] الذي كان مع ابن سعد أبصر الموقف، فأسرع إلى السّلسلة، وانقضّ عليها بسيفه فقطعها، وأنقذ القائد والسّفينة[٦]، وحمِيَ المسلمون عندئذٍ، فقصدوا ملك الروم حتّى أثخنوه

---

(١) المصدر السابق، جـ٢، ص٦٢٠. من طريق الواقدي.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٢٠، من طريق الواقدي.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٧.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٩، من طريق الواقدي.

(٥) علقمة: هو علقمة بن يزيد بن عمرو الغطيفي المرادي، وفد على النّبيّ ﷺ، ورجع إلى اليمن، ثمّ قدم المدينة، وشهد فتح مصر هو وأخوه عمرو، واستعمله عتبة بن أبي سفيان على الإسكندرية في خلافة معاوية، وجعل معه اثني عشر ألفا، فشكا علقمة قلّة عدد الجند عن الدفاع عن المدينة المعرّضة لهجمات الروم، فزوده معاوية بعدّة آلاف من أهل المدينة والشاميين. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٩؛ ابن يونس: تاريخ بن يونس، ص٣٥٤.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٧.

بالجراح، فولّى منهزما وهو حسير، ولم ينج من جنده إلا الشّريد، وأتمّ الله النّصر للمسلمين[١]، وواصل الإمبراطور فراره حتّى نزل جزيرة صقليّة[٢].

وكان لموقعة ذات الصّواري أثرٌ كبيرٌ على الطّرفين، فقد حققت نصرا بحريّا كبيرا للمسلمين، كما وضعت نهاية لسيادة البيزنطيّين البحريّة[٣]، وامتلئوا رعبا من المسلمين، حتّى قال أهل صقليّة لملكهم: "شمّت النّصرانيّة، وأفنيت رجالها، لو دخل العرب علينا لم نجد من يردّهم"[٤]، واعتبر المؤرّخ البيزنطي "ثيوفان" (ت: ٨١٨م/٢٠٣هـ) معركة ذات الصّواري يرموكا ثانيا على الرّوم[٥].

ولا شكّ أنّ ذات الصّواري كانت حدا فاصلا في سياسة الروم إزاء المسلمين، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبتهم، وفوات الأوان في استرجاع مصر أو الشام[٦].

ولقد أظهرت هذه المعركة جانبا من تفوّق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكريّة والتّفوق في العدد والعُدَد، كما أظهرت شجاعة القائد عبد الله بن سعد، ورباطة جأشه، ومقدرته الجيّدة على إدارة الحروب[٧]، وقوّة إيمانه، وإخلاصه في

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٩، من طريق الواقدي، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٢، ص٤٨٩.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٨.

(٣) وديع فتحي عبد الله: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص٧١.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٨.

(٥) وديع فتحي عبد الله: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص٧١.

(٦) إبراهيم أحمد العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص٥٤.

(٧) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، جـ١٢، ص٤٠٧.

نصرة أمير المؤمنين عثمان، على عكس ما يرميه به الإمام الحاكم النيسابوريّ رحمه الله[١].

خامسا: أحداث الفتنة

تطلق المصادر الإسلاميّة مصطلح "الفتنة" على تلكم الأحداث الأليمة التي قام بها المتمرّدون والخوارج على أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه حتّى قتلوه، فكان ذلك بداية فتن سود تتابعت على الأمّة الإسلاميّة كقطع الليل المظلم، تمزّقَ فيها شمل المسلمين، ووقع بأسُهم بينهم، ووقفت عمليّات الفتح والجهاد حتّى اجتمع المسلمون على معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه سنة ٤١هـ/٦٦١م، وكان عثمان قد مكث ستّ سنين في الخلافة لا يَعِيبُ النّاس عليه شيئًا، بل كانت طائفةٌ يفضلونه على عمر رضى الله عنه ويقولون: "الْعَدْلُ مِثْلُ عُمَرَ، وَاللَّيِّنُ أَلْيَنُ مِنْ عُمَرَ"[٢]، ثمّ بدأت الاعتراضات على سياسته بعد ستّ سنين من خلافته.

أولا: بوادر الفتنة والتمرد في أقاليم الدولة:

قبل أن نخوض في أحداث هذه الفتنة المشئومة لا بدّ أن نعرّج على أحوال الأقاليم الثّلاثة التي خرج منها المتمرّدون على عثمان رضى الله عنه.

(١) حال الكوفة:

لقد بدأت نذر التّمرّد الكوفي منذ عهد الخليفة القويّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث كثرت اعتراضات شرار أهلها على الولاة الأخيار في حياة عمر[٣]، فشغبوا على سعد رضى الله عنه؛ واتّهموه بأنّه لا يحسن الصّلاة، وأنّه "لاَ يَسِيرُ

---

(١) محمد عبد العال محمد حسن: المرويات التاريخيّة في المستدرك على الصحيحين عن الأنبياء والسيرة النبوية، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، ٢٠٠٨م، جـ٢، ص٦١٧، ٦١٨.

(٢) الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، جـ٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥.

(٣) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٦٢.

بِالسَّرِيَّةِ، وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ"[١]، ولم يرض الكوفيّون عن الولاة بعد سعد رضى الله عنه حتّى جاوزوا حدّهم، وحَصَبُوا أميرهم، وبلغ عمرَ رضى الله عنه ذلك، فخرج غضبانًا، وصلّى بالنّاس فَسَهَا، فلمّا انتهى من صلاته قال لنفرٍ من أهل الشّام صلّوا معه: "اسْتَعِدُّوا لأَهْلِ الْعِرَاقِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ بَاضَ فِيهِمْ وَفَرَّخَ، اللَّهمّ إِنَّهُمْ قَدْ لَبَّسُوا عَلَيَّ فَلَبِّسْ عَلَيْهِمْ، وَعَجِّلْ عَلَيْهِمْ بالغلام الثّقفي يحكم فيهم بحكم الجاهليّة، لا يقبل مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَلا يَتَجَاوَزُ عَنْ مُسِيئِهِمْ"[٢].

وحدث في خلافة عثمان رضى الله عنه أن شهد نفرٌ من أهل الكوفة على واليهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي بشرب الخمر، فنفّذ عثمان فيه حدّ الجلد[٣]، وعزله سنة ٣٠هـ/٦٥٠م، واستعمل على الكوفة سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص الأموي، فوليها كارها[٤].

ورفع سعيد تقريره باضطراب أمر الكوفة إلى الخليفة وتقدّم الروادف والأعراب على أهل السّابقة والشرف فأمره بإعادة الأمور إلى نصابها[٥]، فنفّذ سعيدٌ أمر عثمان رضى الله عنه وقدّم أهل الأيّام والقادسيّة ومن تبعهم في الفضل، وجعل سمّاره من أهل القرآن، فاشتعل غضب المتطلّعين إلى القيادة لخيبة أملهم في الوالي الجديد، "وَفَشَتِ الْقَالَةُ وَالإِذَاعَةُ" ضدّ الوالي والخليفة[٦].

وبموجب النّظام الذي وضعه عمر رضى الله عنه في العطاء فقد كان أهل الأيّام والقادسيّة يأخذون عطاء مرتفعًا لأسبقيّتهم في الفتوح، ودورهم الكبير فيها، في

---

(١) البخاري: الصحيح، جـ١، ص٢٦٢، ح٧٢٢.

(٢) الفسوي: المعرفة والتاريخ، جـ٢، ص٧٥٤، ٧٥٥، بإسناد حسن.

(٣) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥١، ح٣٤٩٣.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٢، ٦١٣؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٦٣، ص٢٤٣- ٢٤٥.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٢، ٦١٣؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص٥.

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٣.

حين كان عطاء الرّوادف منخفضًا، وبخاصة المتأخّرين منهم، وقد خلق هذا التّفاوت تباينًا اجتماعيًّا واضحًا انضاف إلى التّباين القبلي النّاجم عن تركيبة جيش الفتح، ممّا جعل الوضع في هذا المصر يتوتّر تدريجيًا[١].

وبينا سعيد بن العاص في إحدى الجلسات العامة التي تجمع أهل الأيّام والقادسيّة والقرّاء وزعماء العشائر سنة ٣٣هـ/٦٥٣م، إذ بالحديث يدور بينهم حول سواد العراق، والثّراء، فتمنّى صاحب الشّرطة عبد الرحمن بن خنيس الأسدي أن يكون "الملطاط"[٢] للوالي سعيد بن العاص، ممّا أثار حفيظة الحضور، وتحوّل النّقاش إلى خلاف حاد، كاد يفضي إلى صراع بين القبائل، حيث قام مالك بن الحارث الأشتر النّخعيّ، وردّ عليه "تمنّ للأمير أفضل منه، ولا تمنّ له أموالنا"، وتطوّر الأمر من التّراشق بالكلام إلى اعتداء الأشتر والرّوادف على عبد الرحمن الأسدي وأبيه بعد اتّهامهم له بتحريضه[٣].

وهذا يدلّ على أنّ بوادر الفتنة التي ظهرت في العراق وخاصّة بالكوفة ترتكز على أسباب اجتماعيّة وسياسيّة، وليس للنّقمة على ولاة عثمان وأقاربه، كما يشيع عند كثير من المؤرّخين[٤].

---

(١) محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص٤٠٧.

(٢) الملطاط: ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٣٤.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص٥٢٩، من طريق أبي مخنف. والطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٣٤؛ والمالقي: التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ص٦٢. كلاهما من طريق سيف.

(٤) حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص٢٦٤.

وعلم عثمان بالتّطوّرات التي طرأت على الكوفة، وما حدث من الأشتر وأصحابه، فأمر بتسييرهم إلى بلاد الشّام[١]، فاستقبلهم معاوية، وأجرى عليهم عطاءهم، وقرّبهم، لأجل أن تتغيّر أفكارهم، ولكنّه وجدهم مصرّين على حتميّة تغيير الوضع السّياسي والاجتماعي في الكوفة، فأذن لهم بالعودة، وحقّر للخليفة شأنهم[٢].

وخاف المرحّلون من شماتة أشراف الكوفة فلم يرجعوا إليها، وتوجّهوا إلى الجزيرة الفراتيّة بعيدا عن الشّام والعراق، فسمع بهم والي حمص عبد الرّحمن بن خالد ابن الوليد، فأتى بهم[٣]، ووبّخهم وقرّعهم وأذلّهم، حتّى أظهروا الذّل والخضوع[٤]، ولم يزالوا عنده حتّى استغلّ أضرابُهم والمتعاطفون معهم استدعاء الخليفة لسعيد بن العاص وبعض الولاة لتدارس أحوال الأمصار أواخر سنة ٣٤هـ/٦٥٤م، وكتبوا إليهم بتردّي أوضاع الكوفة السياسيّة، وطالبوهم بسرعة العودة إليها للمساهمة في تغيير الوضع القائم، فكان لرجوعهم إليها دورٌ كبيرٌ في اضطراب الأوضاع واشتعال الفتنة التي أدّت إلى مقتل عثمان رضى الله عنه[٥]، كما سنذكره في موضعه.

(٢) حال البصرة:

لم تكن الأمور في البصرة بأحسن منها في الكوفة، فقد شكا بعض أهلها عاملهم المغيرة بن شعبة زمن عمر رضى الله عنه، واتّهموه بالزّنا، ثمّ عادوا فثاروا على

---

(١) ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ٢، ص٢٠٥؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص٥٢٩، كلاهما من طريق أبي مخنف. وروى الأصفهاني هذا الخبر من طريق ابن إسحاق وغيره عن الشعبي. الأغاني، جـ١٢، ص١٦٧.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٣٦، من طريق سيف.

(٣) تفيد رواية أبي مخنف أنّه نما لعلم معاوية أنّ قوما يأتونهم فأشخصهم إلى حمص فكانوا بها حتّى عزم أهل الكوفة على إخراج سعيد. ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ٢، ص٢٠٥.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٣٦، من طريق سيف.

(٥) ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ٢، ص٢٠٥؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٥٠، من طريق سيف.

أبي موسى الأشعريّ زمن عثمان –وكان عمر ولاّه عليهم– واتّهموه بسوء التّصرّف وتقدّم السّنّ، فعزله الخليفة، واستعمل بدله عبد الله ابن عامر بن كُريز[١]، وكتب إلى أبي موسى: "إِنّي لَمْ أَعْزِلْكَ عَنْ عَجْزٍ وَلا خِيَانَةٍ"[٢].

وبالرّغم من الحزم الذي ساس به ابن كريز أهل البصرة؛ فإنّها لم تخل من أهل الشّقاق والتّمرّد، إذ كان بها حكيم بن جبلة العبدي –من عبد القيس– وكان حكيمٌ لصّا إذا قفلت الجيوش خنس عنهم، فسعى في أرض فارس، فيغير على أهل الذّمّة، ويتنكّر لهم، ويفسد في الأرض، ويصيب ما يشاء، ثم يرجع، فشكاه أهل الذّمة وأهل القبلة إلى عثمان رضى الله عنه، فأمر ابن عامر بحبسه ومن كان مثله، وأوصاه بعدم إخراجه من البصرة حتّى يأنس منه رشدا، فكان لا يستطيع أن يخرج منها[٣]، ولذا فقد كان موتورا من عثمان وعامله، ومستعدّا لاحتضان الفتن، لقلّة دينه، ومروده على الفساد.

(٣) حال مصر:

لم تكن مصر خالية من مثيري الفتنة، بل كان أمرها أشدّ من المصرين العرّاقيين، لأنّ التّمرّد فيها على الخليفة عثمان رضى الله عنه أتاه من ذوي قرابته، وممّن أحسن إليهم، فكانت البادرة من محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة العبشمي، ربيب عثمان الذي كفله وهو يتيم، وكان محمدٌ قد سأل الخليفة أن يولّيه ولاية فرفض، ولم يره لذلك أهلا[٤].

وخرج ابن أبي حذيفة مصطحبا محمد بن أبي بكر إلى مصر بحجّة الغزو والجهاد، فنهضا يؤلّبان أهلها على عثمان، ولم يمنعهما قيام أهل مصر بجهاد الرّوم من التّمادي في الفتنة، فجعل ابن أبي حذيفة يقول للرّجل: "أما والله لقد

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٠٥، من طريق سيف.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٤٥. ولم يُذكر له إسناد.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٣٩.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٨٠، من طريق سيف.

تركنا خلفنا الجهاد حقّا"، فيقول الرّجل: وأي جهاد؟ فيقول عثمان بن عفّان، فعل وفعل، وكان همّهما في ذات الصّواري تحريض النّاس على عثمان وعيبه، وإباحة دمه، ونزعه أصحاب رسول الله ﷺ، واستعماله الأحداث[١].

ورفع ابن سعد خبر ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر إلى عثمان رضى الله عنه فعفا عنهما، وقال: "أمّا ابنُ أبي بكرٍ فإنّه يوهب لأبيه ولعائشة أمّ المؤمنين، وأمّا ابنُ أبي حذيفة فإنّه ابني وابنُ أخي وتربيتي، وهو فرخ قريشٍ، فكتب إليه: "إنّ هذا الفرخ قدِ استوى ريشُه ولم يبق إلا أن يطير"، وبعث عثمان رضى الله عنه إلى ابن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم، وبجملٍ عليه كُسوةٌ، فوضع ذلك في المسجد، ونادى في أهل مصر بأنّ عثمان يخادعه في دينه ويرشوه، فازدادوا طعنا على عثمان، وعظّموا ابن أبي حذيفة، ورأسوه عليهم[٢].

ثانيا: استغلال ضعاف الدين لدعوة أبي ذرّ الغفاري:

كان أبو ذر رضى الله عنه قد لزم حياة الزّهد، ثمّ استأذن عثمان رضى الله عنه في سُكنى بلاد الشّام فأذن له[٣]، فلمّا رأى النّاس يتّسعون في المراكب والملابس أنكر عليهم، وعمل على تفريق جميع ذلك من بين أيديهم[٤]، وطفق يقول: "لا يَبِيتَنَّ عِنْدَ أَحَدِكُمْ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ إِلا مَا يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ يَعُدُّهُ لِغَرِيمٍ"[٥]، وغير ذلك من الآثار الكثيرة التي تدلّ على أنّه كان يذهبُ إلى أنّ كلّ مالٍ مجموعٍ يفضُلُ عن القوت وسداد العيش فهو كنزٌ، وأنّ آية الوعيد نزلت في

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٢٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، ص١٧٧، ١٧٨. والخبر عن صنيع محمد بن أبي بكر وابن أبي حذيفة من طريق الواقدي{وابن شبّة}، وهو موقوف على الزّهري الذي ولد بعد الحادثة بنحو خمسة عشر عاما.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٩، ص٣٧٠، ٣٧١، بدون إسناد.

(٣) البيهقي: دلائل النبوة، جـ٦، ص٤٠١.

(٤) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص٨٥، ٨٦.

(٥) ابن حجر: فتح الباري، جـ٣، ص٢٧٤.

ذلك[١]، وقام يقرّع عمّال عثمان رضى الله عنه، ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَوَالْفِضَّةَوَلاَيُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢]، فوقع بينه وبين معاوية كلامٌ بسبب رأيه في المال، فطلب معاوية من الخليفة أن يخرجه من بلاد الشّام، حتّى لا يضطرب أمرها، فاستدعاه عثمان رضى الله عنه إلى المدينة[٣].

ولمّا علم أبو ذر رضى الله عنه باستدعاء الخليفة له خاف حتّى إنّه قال له عندما قدم عليه: "أَخَفْتَنِي، فَوَاللَّهِ لَوْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَتَعَلَّقَ بعُرْوَةِ قَتَبٍ حَتَّى أَمُوتَ لَفَعَلْتُ"[٤]، ولكنّ النّاس اجتمعوا إلى أبي ذرّ، فجعل يسلك تلك الطّرق[٥]، فأشار عليه عثمان رضى الله عنه بالاعتزال عن مخالطة النّاس، فاختار أن ينزل الرّبذة[٦]، وعرض عليه عثمان إبلا من نَعَم الصّدقة ليصيب من لبنها، فرفض أبو ذرّ رضى الله عنه، ونادى: "دُونَكُمْ مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ دُنْيَاكُمْ فَاعْذِمُوهَا لا حَاجَةَ لَنَا فِيهَا"، وانطلق حتّى قدم الرّبذة، فصادف مولًى لعثمان غلامًا حبشيًّا يؤمُّهم، فنودي بالصّلاة، فتقدّم، فلمّا رأى أبا ذرٍّ نكص، فأومأ إليه أبو ذرٍّ أن يتقدّم، وصلّى أبو ذرٍّ خلفه[٧].

---

(١) ابن عبد البر: الاستذكار، جـ٣، ص١٧٣.

(٢) سورة التوبة: من الآية ٣٤.

(٣) البخاري: الصحيح، جـ٢، ص٥٠٩، ح١٣٤١.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٢٣.

(٥) البخاري: الصحيح، جـ٢، ص٥١٠، ح١٣٤٢؛ مسلم: الصحيح، جـ٢، ص٦٨٩، ح٩٩٢.

(٦) البخاري: الصحيح، جـ٢، ص٥٠٩، ح١٣٤١؛ ابن العربي: العواصم من القواصم، ص٨٦.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٤، ص٢٣٢؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ٢، ص١٤٣.

وقد أشيع في صدر الإسلام أنّ عثمان رضى الله عنه أخرج أبا ذرّ من المدينة، ولكن علماء السّلف كانوا ينكرون هذا القول[١]، الذي تلقفته الرّافضة بعد ذلك وزادوا أنّ عثمان ضربه ضربا وجيعا[٢]، وكذلك ما يشاع من اتّصال أبي ذرّ بابن سبأ اليهوديّ ببلاد الشّام وتأثّره به[٣]، فهو محض اختلاق؛ لأنّ أبا ذرّ رضى الله عنه كان فقيها عالما بقواعد الإسلام، شديد الاعتداد برأيه، فلا يعقل أن يأخذ عن رجل حديث العهد بالإسلام لم يشتهر بشيء من العلم[٤]، كما أنّ المنيّة وافت أبا ذر سنة ٣١هـ/٦٥١، أو ٣٢هـ/٦٥٢م، قبل ظهور ابن سبأ[٥].

ثالثا: دور عبد الله بن سبأ اليهودي في الفتنة:

لقد دار جدل طويل حول شخصيّة ابن سبأ التّاريخيّة، ولكن تنوّع مصادر أخباره من سُنيّة وشيعيّة يجعل من الصّعب القبول بنفي الوجود التّاريخي له[٦]، إلا أنّ الأخباريّ سيف بن عمر التّميمي ينفرد بتفاصيل أخباره في عهد عثمان، فيذكر أنّه كان يهوديّا يمنيّا من أمة سوداء ينسب إليها، فادّعى الإسلام في زمن عثمان رضى الله عنه، واتّخذ من ذلك ستارا لتآمره، واستخدم كل أساليب المكر والدّهاء والنّفاق والكذب والدّعاية المغرضة، واستغلّ أهل الفساد والمنافقين الذين سبقوه ببثّ روح التّمرّد في الأقطار الثّلاثة التي سبق ذكرها[٧].

---

(١) ثبت إنكار هذه الفرية عن الحسن البصري وابن سيرين بإسناد صحيح. ابن شبة: تاريخ المدينة، جـ١، ص١٣٦.

(٢) هذا قول ابن المطهر الحِلّي الرافضي (ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٥م). محمد عبد الله غبان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٣٦.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٥.

(٤) محمد سهيل طقّوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، ص٤١٤.

(٥) محمد محمد حسن شرّاب: المدينة المنورة، (فجر الإسلام والعصر الراشدي)، جـ٢، ص٢٢٥.

(٦) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٦٢، ٦٣.

(٧) يظهر من انفراد سيف بتفاصيل أخبار ابن سبأ أنّه ضخّم دوره في الفتنة.

قدم ابن السّوداء إلى مدينة البصرة فنزل على اللّصّ الموتور حكيم بن جبلة العبدي، واجتمع إليه نفرٌ، فبثّ آراءه بينهم بحذر دون تصريح، فقبلوا منه واستعظموه، ووصل خبره إلى الأمير عبد الله بن عامر فطرده من البصرة، فأتى الكوفة فأخرجوه منها، وقصد الشّام فلم يقدر على ما يريد، ثمّ أتى مصر فاستقرّ فيها سنة ٣٣هـ/٦٥٣م، وجعل يكاتب أنصاره بالعراق ويكاتبونه[١]. ويمكن تلخيص الأساليب التي قام بها ابن السّوداء في التلبيس على النّاس وإثارة الفتنة في الآتي:

(١) التظاهر بحبّ آل البيت والمناداة بحقّهم في الخلافة، فقد أخذ ابن سبأ يحدّث بين النّاس بالوصاية، ووجوب الخلافة لعليّ رضى الله عنه واعتبار عثمان رضى الله عنه مغتصبا تجب مقاومته لنزع الحقّ منه، وذلك قوله: "إِنَّهُ كَانَ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَصِيٌّ، وَكَانَ عَلِيٌّ رضى الله عنه وَصِيَّ مُحَمَّدٍ، وَمُحَمَّدٌ خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَعَلِيٌّ خَاتَمُ الأَوْصِيَاءِ، ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ لَمْ يُجِزْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَثَبَ عَلَى وَصِيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِنَّ عُثْمَانَ قَدْ جَمَعَ أَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَهَذَا وَصِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فانْهَضُوا فِي هَذَا الأَمْرِ فَحَرِّكُوهُ".

(٢) التشكيك في العقيدة والقول بالرّجعة، وذلك بحديثه عن رجوع النّبيّ ﷺ كما سيرجع عيسى عليه السلام في آخر الزّمان، فكان يقول: "الْعَجَبُ مِمَّنْ يَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى عليه السلام يَرْجِعُ، وَيُكَذِّبُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَرْجِعُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[٢]، فَمُحَمَّدٌ أَحَقُّ بِالرُّجُوعِ مِنْ عِيسَى"، وقد قبل أتباعه ذلك عنه، ثمّ وضع لهم الرّجعة فتكلّموا فيها.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٥، ٦٣٩، ٦٤١. من رواية سيف.

(٢) سورة القصص: من الآية ٨٥.

(٣) تحريض النّاس على الأمراء وتشجيعهم على الفتنة، حيث وضع لأتباعه كيفية أخذ الخلافة من عثمان لعليّ بقوله: "ابْدَءُوا بِالطَّعْنِ عَلَى أُمَرَائِكُمْ، وَأَظْهِرُوا الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، تَسْتَمِيلُوا النَّاسَ، وَادْعُوا إِلَى هَذَا الأَمْرِ"[١].

(٤) الخوض في حق الأئمّة، حيث كان ابن السّوداء أوّل من طعن على أبي بكر وعمر ﷺ وانتقصهما، وزعم أنّ عليّا رضى الله عنه يضمر لهما مثل ذلك، فأخبر عليٌّ بأمره، فكذّب زعمه، وسيّره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بلدة أبدا، ثمّ نهض إلى المنبر حتّى اجتمع الناس فأثنى على أبي بكر وعمر، وختم خطبته بقوله: "ألا، وَلا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدته حدّ المفتري"[٢]. ويؤيّد هذا ما ثبت بإسناد حسن عن الشّعبيّ (ت: ١٠٣هـ/٧٢١م، تقريبا) أنّه قال: "أوّل من كذب عبد الله بن سبأ"[٣].

رابعا: اشتعال الفتنة:

على الرّغم من الشّكوك التي تدور حول رواية سيفٍ التّميميّ للفتنة فإنّ الباحث يجد نفسه مضطرّا للأخذ منها؛ لأنّ خروج المتمرّدين على عثمان رضى الله عنه من الكوفة والبصرة ومصر في آن واحد لا بدّ له من محرّك يرتّب الأمر بين هؤلاء جميعا، خاصّة وأنّ الأشتر النّخعي –أحد رؤوس الفتنة الكوفيّين– سنراه يعترف خلال حصار عثمان بأنّ يدا خفيّة كان لها دور كبيرٌ في إثارتهم وخروجهم.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٤٧؛ الآجرّي: الشريعة، جـ٤، ص١٩٨٤، ١٩٨٥. كلاهما من طريق سيف.

(٢) ابن حجر: لسان الميزان، جـ٤، ص٤٨٤، ٤٨٥. وإسناد الأثر صحيح، ورجاله ثقات مشهورون بالعلم معروفون بالأمانة. الخطيب البغدادي: الكفاية في معرفة أصول علم الدراية، جـ٢، ص١٧١.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٢٩، ص٧؛ محمد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٥١.

المحاضرة الحاديه عشر خلافة راشده الفصل الثاني

لمّا بلغت نذر الفتنة مسامع الخليفة استدعى عمّاله ليستكشف منهم أحوال البلدان، ويستشيرهم في مواجهة الأزمة[١]، فلم يكد العمّال يخرجون من ولاياتهم ويتّجهون إلى المدينة النّبويّة حتّى سيطر المتمرّدون على مقاليد البلاد في مصر، وأجمعوا على منع إعادة الوالي سعيد بن العاص إلى الكوفة، فتمّ لهم ما أرادوه.

(١) اشتعال فتنة الكوفة:

استغلّ زعماء الفتنة الكوفيّون غياب الوالي سعيد بن العاص، فقاموا بتحريض السّكان ضده، زاعمين أنّه يريد إنقاص العطاء، ونجح الأشتر النّخعي في جمع المعارضين للوالي[٢]، وعسكروا بالجَرَعَة[٣]، في ألف رجل[٤]، ومنعوا الوالي عند عودته من دخول الكوفة وردّوه[٥]، فرجع إلى المدينة[٦].

وقد عُرض على حذيفة بن اليمان رضى الله عنه أن يخرج مع النّاس ليراقب الموقف فرفض، وقال: "إِنَّ الْفِتْنَةَ تَسْتَشْرِفُ مَنِ اسْتَشْرَفَ لَهَا"[٧]، وكشف حذيفة رضى الله عنه عن مصير رؤوس الفتنة الذين خرجوا يوم الجَرَعة فقال: "إِنَّ

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٤٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٣٣.

(٣) الجرعة: موضع بقرب الكوفة على طريق الحيرة فيه رمل وسهولة. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص١٢٧، ١٢٨.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٣٣.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣٨، ص٣٧١، ح٢٣٣٤٨، واستدركه الحاكم على شرط الشيخين، وصححه، وأقره الذهبي. المستدرك، جـ٢، ص١٧٠، ح٢٦٦٨.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٣٣.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٤٥٤، ح٣٧١٦٧. بإسناد لا بأس به.

الرَّجُلَ يُصْبِحُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي وَمَا مَعَهُ شَيْءٌ، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ وَمَا مَعَهُ شَيْءٌ، يُقَاتِلُ فِي الْفِتْنَةِ الْيَوْمَ، وَيَقْتُلُهُ اللَّهُ غَدًا"[١].

وعاد سعيدٌ إلى الخليفة بخبر متمرّدي الكوفيّين، وأنّهم يظهرون المطالبة بالبدل، ويختارون أبا موسى الأشعري، فأجاب الخليفة طلبهم، "إِزَاحَةً لِعُذْرِهِمْ، وَإِزَالَةً لِشُبَهِهِمْ، وَقَطْعًا لِعِلَلِهِمْ"[٢]، وظلّ يتعامل مع الأحداث باللّين، ويؤثر جانب الرّفق والهوادة على الشّدّة والصّرامة، وكان أهل الفتنة قد عرفوا شخصيّة أبي موسى المشابهة للخليفة في اللين وكُره الدّماء وإيثار العافية، ولذا لجّوا في غيّهم، وضعف مركز الوالي والخليفة عندهم إلى حدّ بعيد[٣].

(٢) سيطرة المتمرّدين على البلاد المصرية:

انتهز أهل الفتنة بمصر غياب الوالي عبد الله بن سعد، فانتزى ربيب عثمان العاقّ محمد بن أبى حذيفة على خليفة ابن أبي السّرح فعزله، وتأمّر على البلاد، وأرصد خيلا لابن أبي السّرح عند القُلْزُم –السّويس– فلمّا عاد منعوه من الدّخول، فقال: "ويلكم، دَعُوني أدخل على جُندي فأُعلمهم بما جئت بِهِ، فإنّي قد جئتهم بخير"، ولكنّهم أصرّوا على منعه، فقال: "والله لوددتُ أنّي دخلت عليهم فأَعلمتهم بما جئت به ثمَّ مِتُّ"[٤]، ومضى إلى فلسطين، فأقام بها حتّى مات[٥].

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣٨، ص٣٧١، ح٢٣٣٤٨، واستدركه الحاكم على شرط الشيخين، وصححه، وأقره الذهبي. المستدرك، جـ٢، ص١٧٠، ح٢٦٦٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، ص١٨٨.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٥، ص٣٤.

(٤) الكندي: الولاة والقضاة، ص١٦.

(٥) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، جـ١، ص٢٧٠؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٢٩، ص٢٦. ولم يتحزّب ابن أبي السّرح بعد عثمان لعليّ ولا لمعاوية، ودعا ربّه أن يجعل خاتمة عمله الصلاة، فلمّا حانت وفاته توضأ ثمّ صلّى الصبح، فقرأ فِي الركعة الأولى بأمّ القرآن والعاديات، وفي الثانية بأمّ القرآن وسورة، ثمّ سلم عن يمينه، وذهب يسلم عن يساره، فقبض الله روحه. ابن عبد البر: الاستيعاب، جـ٣، ص٩٩١، ٩٢٠.

ودعا ابن أبي حذيفة إلى خلع عثمان رضى الله عنه، وأسعر البلاد، وحرّض على عثمان بكلّ شيء يقدر عليه[1]، ويروي الكندي (ت: ٣٥٠هـ/٩٦٠م) نموذجا لما كان يفعله ابن أبي حذيفة للتّأثير على العامّة وتأليب النّاس على الخليفة فيقول: "كَانَ يَكْتُبُ الْكُتُبَ عَلَى أَلْسِنَةِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْخُذُ الرَّوَاحِلَ فَيُضَمِّرُهَا، ثُمَّ يَأْخُذُ الرِّجَالَ الَّذِينَ يُرِيدُ أَنْ يَبْعَثَ لِذَلِكَ مَعَهُمْ فَيَجْعَلُهُمْ عَلَى ظُهُورِ الْبُيُوتِ، فَيَسْتَقْبِلُونَ بِوُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ لِتُلَوِّحَهُمْ تَلْوِيحَ الْمُسَافِرِ، ثُمَّ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى طَرِيقِ الْمَدِينَةِ بِمِصْرَ، ثُمَّ يُرْسِلُونَ رُسُلا يُخْبِرُونَ بِهِمُ النَّاسَ لِيَلْقَوْهُمْ، وَقَدْ أَمَرَهُمْ إِذَا لَقِيَهُمُ النَّاسُ، أَنْ يَقُولُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا خَبَرٌ، الْخَبَرُ فِي الْكُتُبِ، ثُمَّ يَخْرُجُ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ وَالنَّاسُ كَأَنَّهُ يَتَلَقَّى رُسُلَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا لَقُوهُمْ، قَالُوا: لا خَبَرَ عِنْدَنَا عَلَيْكُمْ بِالْمَسْجِدِ، فَيَقْرَأُ عَلَيْهِمْ كُتُبَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَجْتَمِعُ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ اجْتِمَاعًا لَيْسَ فِيهِ تَقْصِيرٌ، ثُمَّ يَقُومُ الْقَارِئُ بِالْكِتَابِ، فَيَقُولُ: إِنَّا لَنَشْكُو إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ مَا عُمِلَ فِي الإِسْلامِ وَمَا صُنِعَ فِي الإِسْلامِ[2]، فَيَقُومُ أُولَئِكَ الشُّيُوخُ مِنْ نَوَاحِي الْمَسْجِدِ بِالْبُكَاءِ، ثُمَّ يَنْزِلُ عَنِ الْمِنْبَرِ وَيَنْفُرُ النَّاسُ بِمَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ"[3].

وقد ثبت تزوير رؤوس أهل الفتنة للكتب على لسان السيدة عائشة رضي الله عنها فإنّها لمّا غضبت لمقتل عثمان رضى الله عنه وقالت: "تَرَكْتُمُوهُ كَالثَّوْبِ النَّقِيِّ مِنَ الدَّنَسِ، ثُمَّ قَرَّبْتُمُوهُ فَذَبَحْتُمُوهُ كَمَا يُذْبَحُ الْكَبْشُ؟ قال لها مسروقٌ: هَذا عَمَلك أَنْتِ، كَتَبْت إِلَى أُنَاسٍ تَأْمُرِينَهُمْ بِالْخُرُوجِ، فقالت: لاَ وَالَّذِي آمَنَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ وَكَفَرَ بِهِ الْكَافِرُونَ، مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ حَتَّى جَلَسْتُ مَجْلِسِي هَذَا"، وعلق الأعمشُ (ت: ١٤٨هـ/٧٦٥م)، بقوله: "فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ كُتِبَ عَلَى لِسَانِهَا"[4]،

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص١٤؛ المقريزي: الخطط، جـ٤، ص١٥٢.

(٢) يعددون المطاعن على عثمان. ابن حجر: الإصابة، جـ٦، ص١٠.

(٣) الولاة والقضاة، ص١٤، ١٥.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٦، ص٣٦٣، ح٣٢٠٥١؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٦؛ وإسناد الأثر صحيح إلى عائشة. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، ص٢١٨.

كما زوّروا الكتب على لسان عليّ رضى الله عنه، كما سنذكره في الحديث عن وفد مصر[١].

خامسا: مسير الخوارج إلى المدينة ومقابلتهم لأمير المؤمنين عثمان:

رأى الخوارج المفتونون أنّ الفرصة قد واتتهم بعد تسلّطهم على مصر، فكاتبوا إخوانهم في الكوفة والبصرة، وواعدوهم بالمسير إلى الخليفة في هيئة الحجّاج لئلا يعترضهم النّاس، وخرجوا في شوّال سنة ٣٥هـ/٦٥٥م، على أن يجتمعوا في ضواحي المدينة النّبويّة[٢]، فتحرّك خوارج مصر[٣] برئاسة عبد الرحمن بن عُديس البلوي، وخرج الكوفيّون برئاسة مالك الأشتر النّخعي، كما سار إليهم خوارج البصرة برئاسة حكيم بن جبلة العبدي[٤].

ويتبيّن من الرّوايات الصّحيحة أنّ الخوارج المصريّين سبقوا إخوانهم العراقيّين، وبلغ عثمان رضى الله عنه خبرهم، فخرج لاستقبالهم في قرية من ضواحي

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٢٠؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ١، ص٤٧١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٥٢، من طريق سيف.

(٣) يقدر سيف التميمي عدد الخوارج المصريين بين الستمائة والألف، ويجعل الكوفيين في مثل عددهم، وكذلك البصريين، بينما المصادر الأخرى تجعل الكوفيين مائتين، والبصريين نحوهم.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٧٧، من طريق الواقدي، وخليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٦٨، من طريق المدائني. ويخالف سيفٌ التميمي في تسمية رؤساء القوم، فيجعل الغافقيّ بن حرب العكي على المصريين، وعمرو ابن الأصمّ على الكوفيين، وحرقوص بن زهير السعدي على البصريين. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٥٢.

المدينة، وكره أن يدخلوها، فلمّا سمعوا به، أقبلوا إلى المكان الذي هو فيه[١]، وذكروا له أمورا نقموا عليه بسببها[٢]، ومنها:

١- **حميه الحمى**: حيث طلبوا منه أن يدعو بالمصحف، وأمروه أن يفتح سورة يونس، وكانوا يسمّونها السّابعة، فقرأ حتّى أتى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُلَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماًوَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[٣]، فاستوقفوه، وقالوا: أرأيت مَا حميت من حمى الله تعالى، آللَّهُ أَذِنَ لَكَ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرِي؟ فبيّن لهم سبب نزولها، وكشف لهم حقيقة الحمى، فأخبرهم أنّ عمر رضى الله عنه حمى الحمى قبله لإبل الصّدقة، فلمّا وُلّي هو وزادت إبل الصّدقة، زاد في الحمى، لما زاد في الصّدقة[٤].

٢- **جمعه للقرآن**: زعموا أنّهم ينقمون عليه جعله الحروف حرفًا واحدًا، فأخبرهم بما كان من اختلاف النّاس في القراءات، وأمرِ حذيفة بن اليمان رضى الله عنه[٥]، وقد ثبت أنّ بعض النّاس عابوا على عثمان جمعه للقرآن في حضرة عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، فردّ عنه، وقام يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَغْلوا فِي عُثْمَانَ، وَلاَ تَقُولُوا لَهُ إلاَّ خَيْرَاً فِي المَصَاحِفِ وَإِحْرَاقِ المَصَاحِفِ، فَوَاللَّهِ

---

(١) يحدد المدائني تاريخ قدومهم بيوم الأربعاء هلال ذي القعدة. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٦٨.

(٢) رواها جماعة من المحدثين عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري. ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٢٠؛ البزار: البحر الزخار، جـ٢، ص٤٢؛ واستدركه الحاكم على الصحيحين، وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي. المستدرك، جـ٢، ص٣٦٩، وأورده ابن حجر من طريق إسحاق بن راهويه وقال: "رواته ثقات، سمع بعضهم من بعض". المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، جـ١٨، ص٤٧. وعلّق على رواية البزار فقال: "هذا إسناد صحيح، لأنّ أبا سعيد ثقة، والباقون من رجال الصحيح". ابن حجر: زوائد مسند البزار، جـ٢، ص١٦٩. وسنحيل على هذه الرواية دون إعادة ذكر مصادرها.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٩.

(٤) من رواية أبي سعيد –مولى أبي أسيد الأنصاري– السابق ذكرها.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٢٢.

مَا فَعَلَ الَّذِي فَعَلَ فِي المَصَاحِفِ إِلاَّ عَنْ مَلأَ مِنَّا جَمِيعَاً"، وأقسم عليٌّ فقال: "وَاللَّهِ لَوْ وَلَيْتُهُ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي فَعَلَ"(١).

٣- **ضربه عمّار بن ياسر**: قالوا لعثمان: "نَنْقِمُ عَلَيْكَ ضَرْبَكَ عَمَّارًا"، فأجابهم بأنّ سعدا وعمّارا أتياه وهو مشتغل وغير مستعدّ لخصومتهم، فأمرهما بالانصراف ووعدهما يوما آخر، فانصرف سعدٌ وأبى عمّارٌ، فتناولهُ رسولٌ من غير أمره؛ وأقسم لهم أنّه ما أمر ولا رضي، وقدّم يده عارضا اقتصاص عمّار منها(٢).

٤- **استعماله أقاربه:** ذكروا لعثمان رضى الله عنه نقمتهم عليه لاستعماله السّفهاء من أقاربه، فطالب عثمان أهل كلّ مصرٍ بتسمية صاحبهم الّذي يحبّونه ليستعمله عليهم، ويعزل عنهم الذي يكرهون(٣)، ويتقوّى هذا وما قبله بما ثبت عن عائشة ﵂ أنّها قالت للقتلة عندما نزلت البصرة للطّلب بدم عثمان: "غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفتي، وموقع الغمامة، وضربة السّوط والعصا، فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جررتموها إليه: حرمة الشّهر، والبلد، والدّم"(٤).

وجعل الخوارج يأخذون عثمان رضى الله عنه بالآية من كتاب الله ﷻ فيذكر لهم سبب نزولها، ويبيّن لهم حقيقة الأفعال التي يتّهمونه فيها زورا وبهتانا بمخالفته

---

(١) ابن أبي داوود: المصاحف، ص٩٧. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، جـ٩، ص١٨.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٢١، ٥٢٢. وهذا الأثر ضعيف الإسناد، وما يروى بعد هذا الأثر في ضرب عثمان عمارا فلا إسناد له ولا يصح. محمد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٠٩- ١١٢.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٢٢؛ البخاري: التاريخ الأوسط، جـ١، ص٨٤. وإسناد الأثر ضعيف. محمد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٥٦.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص٣٠، وإسناده حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٥٠.

لنهج رسول الله ﷺ وصاحبيه، إلا أنّهم "أَخَذُوهُ بِأَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهَا مَخْرَجٌ، فَعَرَفَهَا"، واستغفر الله، وأعلن توبته منها[١]، ويؤكّد استتابتهم له أنّ عائشة رضي الله عنها قالت بعد استشهاده: "استتابوه حتّى تركوه كالثّوب الرّحيض[٢]، ثمّ قتلوه"[٣]. وبلغ من مرونة عثمان رضى الله عنه مع النّاقمين أنّه قال لهم: "هَاتَانِ رِجْلايَ، فَإِنْ كَانَ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْ تَجْعَلُوهُمَا فِي الْقُيُودِ فَاجْعَلُوهُمَا فِي الْقُيُودِ"[٤].

وعمل الخليفة الراشد عثمان رضى الله عنه على اجتثاث أسباب نقمتهم ومعالجتها من أساسها، فسأل المصريّين عمّا يريدون؟ فقالوا: "نريد أن لا يأخذ أهل المدينة عطاء، فإنّما هذا المالُ لمن قاتل عليه، ولهذه الشّيوخ من أصحاب محمّد ﷺ"، فأعطاهم ذلك، فأخذوا ميثاقه، وأخذ عليهم أن لا يشُقُّوا عصًا، ولا يفارقوا جماعةً ما قام لهم بشرطهم، فرضوا، وأقبلوا معه إلى المدينة راضين، وقام عثمان رضى الله عنه فخطب قائلا: "إنّي والله ما رأيت وفدًا في الأرض هو خيرٌ من هذا الوفد الّذي من أهل مصر، ألا من كان له زرعٌ فليلحق بزرعه، ومن كان له ضرعٌ فليحتلب، أَلا إنّه لا مال لكم عندنا، فغضب النّاس وقالوا: هذا مكر بني أميّة، ورجع الوفد المصريّون راضين"[٥].

---

(١) من رواية أبي سعيد –مولى أبي أسيد الأنصاري– التي سبق ذكرها.

(٢) الرحيض: المغسول. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، جـ٢، ص٢٠٨.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٥، بإسناد حسن لغيره. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص٤٦٨.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٦٩، ٧٠؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٢٣؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥٤٤، ح٥٢٤؛ فضائل الصحابة، جـ١، ص٤٩٢. والأثر صحيح كما قرر محققو المسند.

(٥) من رواية أبي سعيد –مولى أبي أسيد الأنصاري– التي سبق ذكرها.

ولمّا جاء الكوفيّون والبصريّون وعسكروا بذي المروة[١]، خارج المدينة استشار عثمان عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ في أمرهم فأشار عليه أن يعرض عليهم كتاب الله، فأرسل عثمان إليهم عليّاً رضى الله عنه فالتقى بهم، وعرض عليهم الصّلح على كتاب الله، فشادّوه، وشادّهم، مرّتين أو ثلاثاً، ثمّ أجابوه، وكتبوا كتابًا اشترطوا فيه خمسًا، "أنّ المنفيَّ يقلبُ، وأنّ المحروم يعطى، وأنّ الفيء يوفّر، وأن يُعدل فِي القسم، وأن يُستعمل أولو القوّة والأمانة"، كما اشترطوا أن يُردّ ابنُ عامر على البصرة، وأبو موسى الأشعري على الكوفة، ثمّ انصرفوا راجعين[٢].

وكتب عثمان رضى الله عنه كتاباً إلى أهل العراق، يقول فيه: "إنّ جيش ذي المروة نزلوا بنا فكان ممّا صالحناهم عليه: أن يؤدى إلى كل ذي حقٍّ حقّه، فمن كان له قِبَلنا حقٌ فليركب إليه، فإن أبطأ أو تثاقل فليتصدّق فإنّ الله يجزي المتصدّقين"[٣].

وبعد هذا الصّلح وعودة أهل الأمصار جميعاً راضين، تبين لمثيري الفتنة أن خطّتهم قد فشلت، وأهدافهم الدّنيئة لم تتحقّق، لذا خطّطوا تخطيطاً آخر، يُذكي الفتنة ويحييها، ويدمّر ما جرى من صلح بين أهل الأمصار وعثمان رضى الله عنه[٤]، وبينما المصريّون في الطّريقِ عائدين إذا هم براكبٍ يتعرّضُ لهم ويفارقُهم، ثمّ يرجعُ إليهم، ثمّ يفارقهم ويسُبُّهم، فسألوه عن شأنه فأخبرهم أنّه رسول

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣٩، ص٤٧٨. من أثر حسن الإسناد. محمد غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٥٧.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٦٩، ١٧٠؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ٢، ص٢٠٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص٥٨٦؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣٩، ص٣٢٤. وهذا الأثر موقوف، وهو صحيح الإسناد إلى محمد ابن سيرين، وهو ثقة مأمون، لكنه لم يدرك الفتنة. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٥٥.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣٩، ص٤٧٨. والأثر حسن الإسناد. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٥٧.

(٤) محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٥٧.

أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتّشوه، فإذا هم بالكتاب معه على لسان عثمان رضى الله عنه، عليه خاتَمُه إلى عامله بمصر أن يقتلَهم أو يُصلّبَهم أو يُقطّعَ أيديَهم وأرجلَهم من خلافٍ، فأقبلوا حتّى قدموا المدينة، فأتوا عليًّا رضى الله عنه، فأطلعوه على الكتاب، وأعلنوا حلّ دم الخليفة، وطالبوا عليّا بالقيام معهم، فأقسم بالله ألا يقوم معهم إليه، فقالوا: "فَلِمَ كَتَبْتَ إِلَيْنَا"؟ فحلف لهم بالله "مَا كتبتُ إِلَيْكُمْ كِتَابًا قَطُّ"، فنظر بعضُهم إلى بعضٍ، فقالوا: "لِهَذَا تُقَاتِلُونَ! أَمْ لِهَذَا تَغْضَبُونَ"! فانطلق عليٌّ رضى الله عنه فخرج من المدينة إلى قرية[1].

ولمّا كان الخوارج قد ساروا مراحل في طرق مختلفة إلى مصر والعراق فقد أدرك عليٌّ رضى الله عنه أنّهم كانوا على ميعاد، وأنّ الكتاب مزعومٌ، ولذا سأل خوارج الكوفة والبصرة عن كيفية علمهم بما لقي أهل مصر بعدما ساروا مسافات طويلة في طرق مختلفة، وأعلن تكذيبه لأمر الكتاب فقال: "هَذَا وَاللَّهِ أَمْرٌ أُبْرِمَ بِالْمَدِينَةِ"! ولم يكن الخوارج متوقّعين لهذه الفراسة من عليّ فكشفوا عن وجههم القبيح وقالوا: "ضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرّجل، ليعتزلنا"[2]، ثمّ إنّ الصورة التي بدا عليها الرّسول من تعرّضه لهم، وسبّه لهم، وسلوكه في طريقهم، تدلّ على تزوير الكتاب، وأنّه لا دخل لعثمان بأمره.

ولمّا قفل الخوارج إلى عثمان رضى الله عنه أُخبر حذيفة بن اليمان رضى الله عنه بمسيرهم إليه، فأقسم بالله أنّهم يقتلونه، وأنّه في الجنّة، وهم في النّار[3]، وانطلقوا حتّى دخلوا على عثمان رضى الله عنه، فأطلعوه على الكتاب وقالوا: "إِنَّ الله قد أحلّ دمك"، فقال لهم: "إنّهما اثنتان: أن تقيموا عليّ رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الّذي لا إله إلا هو، ما كتبتُ، ولا أمليتُ ولا علمتُ، وقد تعلمون أنّ الكتاب يكتب على كتاب الرّجل، وقد يُنقش الخاتمُ على الخاتم"،

---

(١) من رواية أبي سعيد –مولى أبي أسيد الأنصاري– التي سبق ذكرها.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٥٣، من رواية سيف بن عمر التميمي.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥١٦؛ الفسوي: المعرفة والتاريخ، جـ٢، ص٧٦٢؛ وصحح الفسوي الأثر. المعرفة والتاريخ جـ٢، ص٧٦٨.

ولكنّهم لم يرضوا بقوله، وقالوا: "فواللَّهِ، لقد أحلّ الله دمك بنقض العهد والميثاق"[١].

ولم يقبل الخوارج حكم الله في عثمان رضى الله عنه مع أنّه جعل نفسه متّهما ونصّبهم للقيام بإدارة مهمّة القضاء، وذلك لأنّ رؤوسهم لا يريدون تفويت الفرصة في إشعال الفتنة، وسنراهم يحبطون أي محاولة يمكن أن تؤدّي إلى الصّلح مع الخليفة.

وكان الصّحابة ﷺ قد أعجبهم ما أظهره المفتونون من عبادة عند نزولهم المدينة، فغشّهم أمرُهم، وتهاونوا في التّعامل معهم[٢]، حتّى قالت عائشة ﷺ : "فَوَاللَّهِ مَا احْتَقَرْتُ أَعْمَالَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى نَجَمَ النَّفَرُ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي عُثْمَانَ فَقَالُوا قَوْلاً لاَ يَحْسُنُ مِثْلُهُ، وَقَرَؤُوا قِرَاءَةً لاَ يَحْسُنُ مِثْلُهَا، وَصَلُّوا صَلاَةً لاَ يُصَلَّى مِثْلُهَا، فَلَمَّا تَدَبَّرْتُ الصَّنِيعَ إِذَا هُمْ وَاللَّهِ مَا يُقَارِبُونَ أَعْمَالَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"، ونصحت عبيد الله ابن عدي بن الخيّار ألا يغترّ بالأقوال والمظاهر حتّى يرى العمل[٣].

سادسا: حصار عثمان:

لمّا رجع الخوارج إلى عثمان رضى الله عنه طالبوه بالتنازل عن الخلافة ليختاروا من شاءوا، فرفض قائلا: "مَا كُنْتُ لأَخْلَعَ سِرْبَالا سُرْبِلْتُهُ"[٤]، فأسرعوا إلى داره،

---

(١) من رواية أبي سعيد –مولى أبي أسيد الأنصاري– التي سبق ذكرها.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٩.

(٣) البخاري: خلق أفعال العباد والرّد على الجهمية وأصحاب التعطيل، جـ٢، ص١٠٢؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ١، ص٤٦٢؛ أبو داوود: الزهد، ص٢٧٩. وإسناد الأثر صحيح.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٤٤١، ح٣٧٠٧٩؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٧٢، ٧٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٠..

"فحاصروه"[١]، وامتلأت السّاحة التي تقع بين الدّار والمسجد النّبويّ بالنّاس[٢]، وظلّ عثمان رضى الله عنه يصلّي بالنّاس ويخطب في الخوارج حتّى قال في خطبته: "إِنَّا وَاللَّهِ قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا، وَيَغْزُو مَعَنَا، وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَإِنَّ نَاسًا يُعْلِمُونِي بِهِ عَسَى أَنْ لا يَكُونَ أَحَدُهُمْ رَآهُ قَطُّ"[٣]، فقال له أَعْيَنُ{التميمي} ابن امرأة الفرزدق: "يَا نَعْثَلُ، إِنَّكَ قَدْ بَدَّلْتَ"، فلمّا عرفه عثمان قال: "بَلْ أَنْتَ أَيُّهَا الْعَبْدُ، فَوَثَبَ النَّاسُ إِلَى أَعْيَنَ، وَجَعَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ يَزَعُهُمْ عَنْهُ حَتَّى أَدْخَلَهُ دَارَهُ"[٤].

وشدد الخوارج الحصار على عثمان رضى الله عنه، وامتنعوا عن كلامه حتّى أشرف عليهم وهو محصورٌ ذات يومٍ، فقال: "السّلام عليكم"، فحلف أبو سعيدٍ -راوي الخبر- بالله أنّه ما سمع أحدًا من النّاس ردّ عليه السّلام، إلا أن يردّ الرّجل فِي نفسه، فناشدهم عثمان بالله الّذي لا إله إلا هو، وذكر شيئًا في شأنه، وذكر كتابته المفصّل[٥].

وقد أشرف عثمان رضى الله عنه عليهم يوما آخر فقال: أنشُدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماءٌ يُستعذبُ غيرَ بئر رُومة فقال: "مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ دِلاَءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي

---

(١) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد الأنصاري- التي سبق ذكرها. وتتراوح الأقوال في مدة الحصار بين اثنين وعشرين إلى تسعة وأربعين يوما. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦٦٨.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٤٩١، ح٤٣٧، بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥٣٢، ح٥٠٤.

(٤) رواه أبو يعلى في الكبير. الهيثمي: المقصد العلي إلى زوائد أبي يعلى الموصلي، جـ٤، ص٣٨٥؛ المقدسي: الأحاديث المختارة، جـ١، ص٤٨١، وقال المحقق: إسناده لا بأس به. وعلق عليه الهيثمي فقال: "رواه أحمد {دون ذكر أعين}وأبو يعلى في الكبير، ورجالهما رجال الصحيح، غير عبّاد بن زاهر، وهو ثقة". مجمع الزوائد، جـ٧، ص٢٢٨.

(٥) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد الأنصاري- التي سبق ذكرها.

الْجَنَّةِ"؟ فاشتريتُها من صُلْب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشربَ منها حتّى أشربَ من ماء البحر. فقالوا: اللّهمّ نعم. قال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ المسجد ضاق بأهله، فقال رسول الله ﷺ: "مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلاَنٍ فَيَزِيدَهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الجَنَّةِ"؟ فاشتريتُها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلّيَ فيها ركعتين؟ قالوا: اللّهمّ نعم. قال: أنشدكم بالله والإسلام، هل تعلمون أنّي جهّزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: اللّهمّ نعم. قال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ كان على ثَبِيرِ مكّة ومعه أبو بكرٍ وعمرُ وأنا فتحرّك الجبل حتّى تساقطتْ حجارتُه بالحضيض فركضه برجله وقال: "اسْكُنْ ثَبِيرُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ"؟ قالوا: اللّهمّ، نعم. قال: الله أكبر، شهدوا لي وربّ الكعبة أنّي شهيدٌ، ثلاثًا[1].

ولمّا سمع النّاس مآثر عثمان رضى الله عنه قالوا: "مهلا عن أمير المؤمنين، ففشا النّهي، وقام الأشترفقال: فلعلّه قد مُكِر به وبكم، فوطِئَه النّاس"[2]، ويتبيّن من هذه الحادثة أنّ الأشتر كان من المفتونين المدفوعين، وقد أثّر ما حدث له على غيره من عامّة القوم، حتّى إنّ أبا سعيد ليقول: "ثمّ إنّه رضى الله عنه أشرف عليهم مرّةً أخرى، فوعظهُم وذكّرهم، فلم تأخذ فيهم الموعظة، وكان النّاسُ تأخذُ فيهم الموعظة أوّل ما يسمعون بها، فإذا أعيدت عليهم لم تأخذ فيهم"[3].

وكان عثمان رضى الله عنه حريصا على إقامة المسلمين لصلاتهم في المسجد النّبويّ وهو محصور، ولمّا دخل عليه عبيد الله بن عديّ بن خيّارٍ وقال له: "إِنَّكَ إِمَامُ عَامَّةٍ، وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى، وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ، وَنَتَحَرَّجُ؟ قال: "الصَّلاَةُ

---

(١)الترمذي: السنن، جـ٥، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٣٧٠٣، واجتباه النّسائي في السنن الصغرى، جـ٦، ص٢٣٥، ح٣٦٠٨.

(٢) من رواية أبي سعيد –مولى أبي أسيد الأنصاري– التي سبق ذكرها.

(٣) من الرواية السابقة.

أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ، فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ"[١].

ولمّا اشتدّ الحصار على عثمان رضى الله عنه، وحالوا بينه وبين النّاس، ومنعوه كل شيء حتّى الماء؛ صاح عمّار بن ياسر رضى الله عنه في الخوارج فقال: "سبحان الله! قد اشترى بئر رومة وتمنعوه ماءها! خلّوا سبيل الماء"[٢]، وأرسل عثمان رضى الله عنه في السّرّ إلى أزواج النّبيّ ﷺ وإلى عليّ يطلب منهم الإغاثة بالماء، فركبت صفيّة بنت حُيَيٍّ ﵂ بغلةً لها، وسارت مع غلمانها إلى باب الدّار، فإذا الأشتر وناسٌ معه حول الدّار، فأمرها بالرّجوع إلى بيتها، فلمّا أبت رفع قناةً معه، أو رمحًا، فضرب عجز البغلة، فوثبت البغلة، ومال الهودج، حتّى كاد أن يقع، فلمّا رأت ذلك أمرت غلمانها بردّها[٣].

وبعث النّاس إلى أمّ المؤمنين أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ﵂ فجاءت على بغلة بيضاء وهي مستورة، فلمّا دنت من الباب وعلموا بها أقسموا على عدم دخولها وردّوها[٤].

وقد استجاب عليٌّ رضى الله عنه لطلب عثمان، وانطلق إلى دار عثمان، فرأى بعضُ أهله كتائب الخوارج حول الدّار فمنعوه من دخولها خوفا عليه من القتل،

---

(١) البخاري: الصحيح، جـ١، ص٢٤٦، ح٦٦٣.

(٢) المحبّ الطبري: الرياض النضرة، جـ٣، ص٩٨؛ الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، جـ٢، ص٢٧٢.

(٣) إسحاق بن راهويه: المسند، جـ٤، ص٢٦١؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٨، ص١٢٨؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ٢، ص٣٠٤، وحسّن ابن حجر إسناد ابن سعد. الإصابة، جـ٨، ص٢١٢.

(٤) رواه عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده عن الحسن البصري. أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ١، ص٤٩٢، وصحح المحقق إسناده.

فحلّ عمامته السّوداء التّي كان يرتديها، ورمى بها إلى رسول عثمان، ثمّ خرج حتّى انتهى إلى أحجار الزّيت في سوق المدينة[١].

وفي تلك الأثناء التي شدّد الخوارج فيها الحصار على الدّار قامت أمّ المؤمنين صفيّة بنت حييّ ﵂ بدور كبير في إغاثة عثمان رضى الله عنه وآل بيته، حيث "وضعتْ خشبًا بين منزلها ومنزل عثمان تنقُل عليه الماء والطّعام"[٢].

سابعا: تمسّك عثمان بالخلافة وترك المقاتلة وموقف الصّحابة منه:

كان منع الماء عن عثمان رضى الله عنه آخر محاولات الخوارج التي رجوا منها تنازله عن الخلافة، فلمّا رأوا تمسّكه بها سارعوا في التّخلّص منه قبل عودة النّاس من أداء فريضة الحجّ، وعلى الرّغم من ذلك فقد اتّخذ عثمان رضى الله عنه موقفاً واضحاً وحاسماً بعدم المقاومة، وألزم به الصّحابة الذين نهضوا للدّفاع عنه[٣].

وقد توالت طلبات الصّحابة من المهاجرين على الخليفة عثمان في الإذن لهم بالقتال دونه، وذلك من عليّ بن أبي طالب، والزّبيرُ ابن العوّام[٤]، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر[٥]، وعبد الله بن الزّبير[٦]، وغيرهم، إلا أنّ عثمان كان يصر

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥١٧؛ ابن سعد: الطبقات، جـ٣، ص٦٨، ٦٩؛ أبو العرب: المحن، ص٧٧.

(٢) ابن الجعد: مسند ابن الجعد، ص٣٩٠؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٨، ص١٢٨، وحسّن ابن حجر إسناد ابن سعد. الإصابة، جـ٨، ص٢١٢.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٤.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣٩، ص٣٧٣؛ محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٩٨.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٧٠؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣.

على عدم القتال، ويقول: "لا أُقَاتِلُهُمْ أَبَدًا"[١]، "عَزَمْتُ عَلَى مَنْ كَانَتْ لِي عَلَيْهِ طَاعَةٌ أَلا يُقَاتِلَ"[٢].

ولم يكن الأنصار أقلّ استعدادا للدّفاع عن عثمان من المهاجرين، فقد عرض عليه حارثة بن النّعمان الأنصاري استعداد الأنصار للقتال دونه[٣]، كما دخل عليه زيد بن ثابت رضى الله عنه وأخبره بتجمّع الأنصار على الباب، وطلب منه الإذن بالقتال، "إن شئت كنّا أنصار الله مرّتين"، ولكن الخليفة أمره بالكفّ عن القتال[٤].

ولمّا رأى عثمان رضى الله عنه أنّ الصّحابة غيرُ منتهين عنه قال لهم: "إنّ رسول الله ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا وَأَنَا صَابِرٌ عَلَيْهِ"[٥]، وكانت عائشة ﵂ قد استدعت عثمان للنّبيّ ﷺ وهو في مرض موته، فلمّا دخل عليه جعل يكلّمه ولونُ عثمان يتغيّر، فكانوا يرون أنّه ذلك اليوم[٦].

وفي الحقيقة أنّ النّاظر في صحيح الروايات يلتمس العذر للخليفة الرّاشد الذي كان يعلم علم اليقين بحتميّة حدوث الفتنة في أيّامه وإصابته فيها، حيث ثبتت

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٧٠، ورجاله ثقات، وإسناده صحيح. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٩٣.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، جـ١، ص٥١١، ح٨٣٦؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣٩، ص٣٧٣؛ وإسناده حسن. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٩٨.

(٣) البخاري: التاريخ الأوسط، جـ١، ص٧٦؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣٩، ص٣٩٧. وإسناد الأثر صحيح، رجاله ثقات، رجال مسلم. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص٤٧٨.

(٤) نعيم بن حماد: الفتن، جـ١، ص١٧٣؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٥٢٤.

(٥) الترمذي: السنن، جـ٥، ص٦٣١، ح٣٧١١؛ أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٤٦٧، ح٤٠٧.

(٦) ابن ماجة: السنن، جـ١، ص٤٢، ح١١٣؛ ابن حبان: الصحيح، جـ١٥، ص٣٥٦، ٣٥٧، ح٦٩١٨، وإسناده صحيح.

معرفة عثمان رضى الله عنه وبعض الصّحابة بذلك في أحاديث صحيحة كثيرة، فقد صحّ عن أبي موسى الأشعريّ رضى الله عنه أنّه قال: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيّ ﷺ فِي حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ المَدِينَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فقال النّبيّ ﷺ: "افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ"، فَفَتَحْتُ لَهُ، فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، فَبَشَّرْتُهُ بِمَا قال النّبيّ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فقال النّبيّ ﷺ: "افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ"، فَفَتَحْتُ لَهُ فَإِذَا هُوَ عُمَرُ، فَأَخْبَرْتُهُ بما قال النّبيّ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ، فقال لي: "افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ"، فَإِذَا عُثْمَانُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ المُسْتَعَانُ"[1]. ولعلّ هذه الحادثة هي التي جعلت أبا موسى الأشعري يميل إلى كره الدّماء ويتّخذ موقفا واضحا في الإصلاح بين المسلمين.

وقد ثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ النّبيّ ﷺ ذكر فتنةً، فقال: "يُقْتَلُ هَذَا فِيهَا مَظْلُومًا"، لعثمان[2]، وفي رواية أخرى عن ابن عمر أنّ النّبيّ ﷺ قال عن تلك الفتنة: "يُقْتَلُ فِيهَا هَذَا الْمُقَنَّعُ يَوْمَئِذٍ مَظْلُومًا"، فنظر ابن عمر إليه "فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ"[3].

ولهذه الأحاديث ونحوها كان عثمان رضى الله عنه متيقّنا بنهايته، وقد آثر العافية ولم يأخذ دعاة الفتنة بالشّدّة والبطش خشية أن يظلم بريئا فيبوء بإثمه، واختار أن يكون كخير ابني آدم[4].

---

(١) البخاري: الصحيح، جـ٣، ص١٣٥٠، ح٣٤٩٠؛ مسلم: الصحيح، جـ٤، ص١٨٦٧، ح٢٤٠٣.

(٢) الترمذي: السنن، جـ٥، ص٦٣٠، ح٣٧٠٨.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١٠، ص١٦٩، ح٥٩٥٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، ص٢٠٣.

ثامنا: دخول الخوارج على عثمان ومقتله:

ظلّ الخوارج المفتونون يحاصرون عثمان رضى الله عنه ويمنعون عنه الطّعام والماء حتّى تسوّر محمد بن أبي بكر في ثلاثةَ عشرَ من فوق الدّار، ونزل على عثمان رضى الله عنه، فأخذ بلحيته حتّى سُمع وقعُ أضراسه، وقال: "مَا أَغْنَى عَنْكَ مُعَاوِيَةُ، مَا أَغْنَى عَنْكَ ابْنُ عَامِرٍ، مَا أَغْنَتْ عَنْكَ كُتُبُكَ"(١)، فقال له عثمان رضى الله عنه: "لَقَدْ أَخَذْتَ مِنِّي مَأْخَذًا، أَوْ قَعَدْتَ مِنِّي مَقْعَدًا مَا كَانَ أَبُوكَ لِيَقْعُدَهُ –أَو ليأخذه– فخرج وتركه(٢)، ويؤكّد هذه الرّواية أنّ كنانة –مولى أمّ المؤمنين صفيّة– قد حضر يوم الدّار، وشاهد قتل عثمان، فسأله محمد بن طلحة عن اشتراك محمد بن أبي بكر في دم عثمان، فقال: "مَعَاذَ اللَّهِ دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ رضى الله عنه: لَسْتَ بِصَاحِبِي، وَكَلَّمَهُ بِكَلامٍ فَخَرَجَ وَلَمْ يَنْدَ بِشَيْءٍ مِنْ دَمِهِ"(٣).

ويؤكّد ابن كثير هذا الموقف فيقول: "ويروى أنّ محمد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه، حتّى دخلت في حلقه، والصّحيح أنّ الذي فعل ذلك غيرُه، وأنّه استحى ورجع حين قال له عثمان: لقد أخذت بلحيةٍ كان أبوك يكرمها، فتندّم من ذلك، وغطّى وجهه، ورجع وحاجز دونه، فلم يفد، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً"(٤).

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٧، ص٤٤١، ح٣٧٠٧٩؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ١، ص٨٢، ح١١٦. وعلق عليه الهيثمي بقوله: "رواه الطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح غير وثّابٍ، وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرّحه أحدٌ". مجمع الزوائد، جـ٧، ص٢٣٢. وإسناده صحيح إلى وثّاب. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص٥١٥.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٤، من رواية صحيحة إلى الحسن البصري.

(٣) ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ٢، ص٢٩٧، وإسناد الأثر صحيح لغيره. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ص٤٨٦.

(٤) البداية والنهاية، جـ٧، ص٢٠٧.

وكان عثمان رضى الله عنه قد جهّز نفسه لتلقّي الشّهادة التي بشّره بها النّبيّ ﷺ، حيث رآه في آخر ليلة من عمره يقول له: "أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللَّيْلَةَ"(١)، فأصبح عثمان رضى الله عنه صائما، ووضع المصحف بين يديه، حتّى دخل عليه رجلٌ منهم، فقال: بيني وبينك كتابُ الله، فخرج وتركهُ، ثمّ دخل عليه آخر، فقال: بيني وبينك كتابُ الله، فأهوى له بالسّيف، فاتّقاه بيده فقطعها، فقال عثمان: أما والله إنّها لأوّلُ كفٍّ خطّت المفصّل، فنضح الدّم على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٢)، وأخذت امرأته نائلة بنتُ الفرافصةِ حُليّها ووضعته في حجرها قبل أن يقتل، فلمّا قتل تفاجّتْ عليه، فقال بعضهم: "قَاتَلَهَا اللَّهُ مَا أَعْظَمَ عَجِيزَتَهَا"، فقال الراوي أبو سعيد: "فَعَلِمْتُ أَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَمْ يُرِيدُوا إلا الدُّنْيَا"(٣).

وكان مقتل عثمان رضى الله عنه في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥هـ/٦٥٦م على المشهور، وفي يوم الجمعة بلا خلاف(٤)، وقد اختلفت الرّوايات في تعيين قاتل عثمان رضى الله عنه؛ وذلك لأنّ الخوارج الأشقياء تعاوروا على ضربه وقتله(٥)، وأصح تلك الرّوايات ما حدّث بها كنانة مولى صفية بنت حيي حيث قال: "رأيت قاتل عثمان، رجلاً أسودَ من أهل مصر وهو في الدّار رافعاً يديه، أو باسطاً

---

(١) ثبت "أَنَّ عُثْمَانَ ﷺ أَعْتَقَ عِشْرِينَ مَمْلُوكًا، وَدَعَا بِسَرَاوِيلَ فَشَدَّهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَلْبَسْهَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلامٍ، وَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْبَارِحَةَ فِي الْمَنَامِ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَإِنَّهُمْ قَالُوا لِي: اصْبِرْ، فَإِنَّكَ تُفْطِرُ عِنْدَنَا الْقَابِلَةَ، ثُمَّ دَعَا بِمُصْحَفٍ فَنَشَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُتِلَ وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ". أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥٤٥، ح٥٢٦؛ ابن أبي شيبة: المصنف، جـ٦، ص١٨١، ح٣٠٥١٠؛ وقال الهيثمي: "رواه عبد الله وأبو يعلى في الكبير، ورجالهما ثقات". مجمع الزوائد، جـ٩، ص٩٧، ح١٤٥٦٣.

(٢) سورة البقرة: من الآية ١٣٧.

(٣) من رواية أبي سعيد –مولى أبي أسيد– التي سبق الاعتماد عليها مرارا.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، ص٢١٢.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٤.

يديه، يقول: أنا قاتل نعثل"[١]، وكان رجلٌ من بني سدوس[٢] قد خنق عثمان رضى الله عنه قبل مقتله[٣].

وقد اختلف الرّواة في تجهيز عثمان ودفنه، والصّحيح أنّه حُمل على بابٍ بعد ما غُسّل وكُفّن، ولا خلاف أنّه دفن بحَشّ كوكب[٤]، شرقي البقيع، وذلك فيما بين المغرب والعشاء، خوفا من الخوارج، ولمّا تولّى معاوية الخلافة اعتنى بمقبرة عثمان رضى الله عنه وأمر النّاس بدفن موتاهم حولها حتّى اتّصلت بمقابر المسلمين، وبلغت خلافة عثمان ثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوما، وكان قد جاوز اثنتين وثمانين من عمره[٥].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٨٣، وإسناده حسن. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٩٣.

(٢) سدوس: عشيرة من قبيلة ذهل بن ثعلبة البكرية الربعيّة. ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، جـ٢، ص١٠٩.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٥١٧٤، ١٧٥، بإسناد صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٤٣٠.

(٤) حَشّ كوكب: الحشّ بفتح الحاء وضمّها هو البستان، وكوكب رجل من الأنصار أضيف إليه، وكان عثمان ﷺ قد اشتراه وزاده في البقيع. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٢٦٢.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٧، ص١١٢- ٢١٤.

خلافة علي بن أبي طالب رضى الله عنه ٣٥ – ٤٠هـ/٦٥٥ – ٦٦٠م.[١]

نشأة علي وحياته إلى أن تولى الخلافة

هو: علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنه سيدة نساء الجنة، ووالد الحسن والحسين رضي الله عنهما سيدا شاب الجنة.

أبوه: عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، ويُكنى بأبي طالب[٢] وطالب هذا أكبر أبنائه، وبه كان يكنى، وغلبت كنيته اسمه، وشاع في الناس بها ذكره، فكانوا يقولون: جاء أبو طالب، ومررت على أبي طالب، ولا يذكرون عبد مناف[٣].

كان أبو طالب أخا عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأب وأم، ولذا فقد تكفل برعاية ابن أخيه محمد . صلى الله عليه وسلم . بعد وفاة جده عبدالمطلب، وكان يحبه غاية الحب، ولا يطيق فرقه، ويقدمه على أولاده[٤].

أمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، ابنة عم أبيه[٥] تزوجها أبوطالب فكان له منها أبناؤه، وعلي رضي الله عنه.

وهي أول هاشمية ولدت خليفة[٦] وكانت امرأة صالحة، عاش النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها حين كان في كفالة عمه، فوسعه قلبها، وتمثلت دور أمه:

---

(١) **كتبه أ.د/ السيد محمد يونس، قسم التاريخ والحضارة في كلية اللغة العربية بالزقازيق.**

(٢) ابن قتيبة: المعارف ص١١٨ .

(٣) بكر محمود العشري: علي ربيب بيت النبوة ج١، ص٤٢ .

(٤) ابن الجوزي: صفة الصفوة تحقيق إبراهيم رمضان، وسعيد اللحام، ط(١) ـــ دار الكتب العلمية . بيروت . سنة ١٤,٩هـ/ ١٩٨٩م.ج١، ص٣٣.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣، ص ٣٧٦ .

(٦) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٦٦ .

آمنة أصدق تمثيل بما أفاضت عليه من حنان الأم وعطفها وبرها، حتى كانت بالنسبة له أماً حقيقية، تهتم به اهتماماً بالغًا، وتوليه رعايتها، وتخصه من دون أولادها بعظيم عنايتها، فمع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصبح دهينا كحيلاً، كانت . رضي الله عنها . تحرص أولا على أن تُنظفه، وتُرجل شعره، وتُطيبه وتُونقه، وبما عندها من الطعام تشبعه، ثم تلتفت بعدها إلى أولادها؛ فتصلح من شأنهم، وترد جوعتهم[١].

وقد شرح الله صدرها للإسلام، فأسلمت وهاجرت إلى الله ورسوله[٢]، وكانت أُماً رؤمًا لفاطمة الزهراء . رضي الله عنها . وجة ولدها علي . رضى الله عنه . إذ شاركتها القيام بأمر البيت، وخففت عنها من أعبائه؛ فكان عليها سقاية الماء، والذهاب في الحاجة، والزهراء تقوم بالطحن والعجن[٣].

نشأة عليّ رضى الله عنه:

نشأ في كنف ورعاية النبي صلى الله عليه وسلم وكان من نعمة الله على عليّ كما ذكر المؤرخون؛ أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبوطالب كثير العيال، قليل المال، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُخفف عن عمه ما حلّ به، فعرض على عمه العباس وكان من أيسر بني هاشم أن يخففا عن أبي طالب حدة الأزمة التي حلت بقريش كلها، يأخذ بعض ولده، فصادفت تلك المبادرة قبولا واستحسانا من العباس، وعلى الفور انطلقا إلى أبي طالب، وعرضا عليه الأمر، فوافق، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم علياً، وأخذ العباس جعفرا[٤].

وانتقل عليّ رضي الله عنه من بيت أبيه إلى بيت النبوة، وكان قد جاوز خمس سنوات[٥] فنما وترعرع منذ الصغر بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين زوجه

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج٢، ص ١٤، د/ بكري العشري: علي، ص٣٩ .

(٢) ابن حجر: الإصابة ج٤، ص ٣٦٨ .

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣، ص ١٧٦ .

(٤) ابن هشام: السيرة ج١، ص١٥٣، الحلبي: السيرة ج١، ص ٢٩٣ .

(٥) نفس المرجع السابق.

السيدة خديجة . رضوان الله عليها .، فشبا على الفضائل، ومكارم الأخلاق، والصدق والأمانة، والتواضع والسلوك المستقيم، وتربى على الذوق الرفيع والإحساس الرقيق.

ولهذه التربية السليمة، والنشأة الصحيحة أثرها العظيم في تكوين شخصيته، وتحمله المسؤولية منذ الصغر، والقيام بما يُناط به من المهام، في همة ونشاط، وحب ورغبة، وظل عليّ رضى الله عنه في بيت النبوة، يشرب من نبعه الصافي، ومعينه الشافي، حتى بعث الله محمدا . صلى الله عليه وسلم . نبيا ورسولا، فاتبعه وآمن به وصدقه[١].

إسلام عليّ رضي الله عنه:

كان علي أول من أسلم من الصبيان، إذ كان في سن مبكرة، قيل الثامنة، وقيل التاسعة، وقيل العاشرة[٢]، وسبب إسلامه: أنه دخل على رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ومعه زوجه السيدة خديجة . رضي الله عنها . وهما يُصليان معا، فقال: ما هذا؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده ولا شريك له، وإلى عبادته، والكفر باللات والعزى"، فقال عليّ: هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم، فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب، وكره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفشي سره قبل أن يعلن أمره، فقال: "يا علي، إذا لم تسلم فاكتم هذا" ثم قضى عليّ ليلته يفكر في الأمر حتى جاء الصباح فأعلن إسلامه إليهما، من غير أن يشاور أبا طالب، وقال: لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله[٣].

---

(١) ابن هشام: السيرة ج١، ص ١٥٣، بكر العشري: علي ص ٧١ .

(٢) ابن هشام: السيرة ج١، ص ١٥٣، الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣، ص٣٧٨، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٦٧ .

(٣) الحلبي: السيرة ج١، ص ٢٩٣، ٢٩٣ .

وأخرج أبويعلي عن عليّ بن أبي طالب أنه قال: "بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وأسلمت يوم الثلاثاء"[١]، وأنه لم يعبد الأوثان قط، لصغر سنه، ولذا فقد كرم الله وجهه عن السجود للأصنام.

علاقة علي بالخلفاء الراشدين:

كانت علاقة عليّ رضى الله عنه بالخلفاء الراشدين قبله، علاقة حُب، وود، وتعاون، وتآزر: فكان قريبا من أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ومن عمر الفاروق رضى الله عنه ومن ذي النورين عثمان رضى الله عنه مستشارا لكل منهم في خلافته.

وقد عهد إليه أبوبكر بحراسة الطرق الموصلة إلى المدينة المنورة لحمايتها من مهاجمة المرتدين لها[٢].

وحين قصد أبوبكر ذي القصة[٣] واستوى على راحلته، ليقود جيش المسلمين إلى قتال المرتدين، أخذ عليّ بزمامها وقال له: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله يوم أحد: لُمَّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدا، فرجع وأمضى الجيش[٤].

وهذا يُبين لنا بجلاء أن أبا الحسن عليّ رضى الله عنه كانت تربطه بالخلفاء قبله روابط المحبة والمودة، وليس صحيحا ما قيل عنه: أنه هجر الصديق، ولم يبايعه بالخلافة، لا. فتذكر الروايات الصحيحة أن أبا بكر عندما جلس في المسجد النبوي في اليوم التالي، ليوم السقيفة، لأخذ البيعة من المسلمين، الذين

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٦٦، ٢٦٧ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل ج ٣، ص٢٤٥، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٣، ص ٨٥٥ .

(٣) ذو القصة: مكان بينه وبين المدينة مسافة مرحلة.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج٣، ص ٨٦.

لم يحضروا اجتماع وبيعة السقيفة، أسرع عليّ لمبايعته، حتى أنه خرج وعليه قميص، فبايع الصديق، وجلس بجواره وأرسل في إحضار ثوبه[١].

ولما تولى عمر خلافة المسلمين، كان أبوالحسن رضى الله عنه من مستشاريه، ويأخذ برأيه في معضلات القضايا والأمور، وقد أشار على عليّ عمر رضي الله عنهما. بكتابة التاريخ الهجري[٢]، وتدوين الدواوين[٣].

وعندما خرج مرة إلى الشام، استعمل علياً على المدينة، وهكذا يظهر بوضوح ما بين الرجلين من مودة وحُب في الله سبحانه وتعالى، وقد تزوج عمر ابنة علي: أم كلثوم رضى الله عنه [٤].

ودفع علي رضي الله عنه عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أكثر من مرة زعماء الفتنة، ولما بلغه أنهم يريدون قتله، بعث بابنيه: الحسن والحسين رضي الله عنهما مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوه منهم[٥] فقاتلوا قتالا شديدا على بابه حتى جُرح الحسين، ولما قتل عثمان، استرجع علي، ودخل داره، وقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على بابه؟ ولطم الحسن، وضرب صدر الحسين[٦].

خلافة علي ومنهجه في الحكم

بيعة علي:

بعد استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه سادت الفوضى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعم الناس حزن وأسى عميقين، لهذا الحادث

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل ج٣٢، ص٧ .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٣، ص ٨٦ .

(٣) ابن سعد: الطبقات ج ٣، ص ٢٢٤ .

(٤) الطبري: تاريخ الرسل ج٤، ص١٩٩ .

(٥) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج١ ، ج٤، الطبري: تاريخ الرسل ج٤، ص ١٩٢، المسعودي: مروج الذهب، ج٣، ص ٣٥٣ .

(٦) المسعودي: مروج الذهب ج٣، ص ٣٥٤ .

الأليم، بقيت عاصمة الإسلام، ودار هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنزل الوحي خمسة أيام[١]، تحت إمرة الغافقي بن حرب زعيم الثوار المصريين[٢].

وقام الثوار يعرضون الخلافة على كبار الصحابة: علي، وطلحة، والزبير، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ولكن هؤلاء الصحابة كانوا يعرضون عنهم[٣] ثم أتوا عليا قائلين له: "نبايعك فمد يدك فأنت أحق بها، فقال: ليس ذلك إليكم، إنما هو لأهل الشورى، وأهل بدر، فمن رضيا به فهو الخليفة"[٤].

وأبى علي أن يبايعهم، وتحت إلحاح الصحابة وتقديرًا للمسؤولية قبل علي التضحية، ومن أولى منه بحمل هذا العبء الثقيل[٥].

روى الطبري بسنده عن أبي بشير بن العابدي قوله: "كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضى الله عنه، واجتمع المهاجرون والأنصار، فيهم طلحة والزبير فأتوا علياً، فقالوا: يا أبا حسن هلم نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمركم، أنا معكم، فمن اخترتم فقد رضيت به، فاختاروا الله، فقالوا: ما نختار غيرك، قال: فاختلفوا إليه بعدما قتل عثمان رضى الله عنه مرارا، ثم آتوه في آخر ذلك، فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلا بأمره، وقد طال الأمر، فقال لهم: إنكم قد اختلعتم إلي وأتيتم، وإني قائل لكم قولاً إن قبلتموه قبلت أمركم، وإلا فلا حاجة لي فيه، قالوا ما قلت من شيء قبلناه إلا شاء الله، فجاء فصعد إلى المنبر، فاجتمع إليه الناس، فقال

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل ج٤، ص ٤٣٢، ابن خلدون: العبر: مجلد ٢ قسم ٤/١,٥٥.

(٢) يقصد بالثوار المصريين: العرب المسلمين، الذين جاءوا مصر بعد الفتح الإسلامي، واستقروا بها، أما المصريين أصحاب البلاد (الأقباط) فليس لهم ذنب في استشهاد عثمان، وهم برآء منه، براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

(٣) انظر الطبري: الإمامة والسياسة ج١، ص ٤٦ .

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج١، ص٤٦ .

(٥) انظر أبوبكر بن العربي: العواصم من القواصم ص١٤٢ .

إني قد كنت كارها لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وأنه ليس لي أمر دونكم، إلا مفاتيح ما لكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهما دونكم، رضيتم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم أشهد عليهم، ثم بايعهم على ذلك، قال أبوبشير: وأنا يومئذ عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم أسمع ما يقوله[1].

وبذلك فقد تمت بيعة علي رضى الله عنه بأغلبية الصحابة من المهاجرين والأنصار.

ومن الرواية السابقة نستنتج ما يلي:

١ – إن علياً رضي الله عنه كان كارها لتولي الخلافة عقب مقتل عثمان رضى الله عنه ورد الثوار مرارا عندما طلبوا منه قبول الخلافة، وفي آخر الأمر قبل ورضى خشية حدوث فتنة من بقاء العالم الإسلامي بدون خليفة.

٢ – إن هذه الرواية من شاهد عيان رداً قاطعا على من يدعي أن طلحة والزبير رضي الله عنهما قد بايعا مكرهين، مع أنهما كانا من الذين ألحوا على علي في قبول الخلافة.

خطبة علي بعد البيعة:

بعد أن بويع علي ـ كرم الله وجهه ـ صعد المنبر وخطب في الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله: "إن الله عز وجل أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر، فخذوا الخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حرما غير مجهولة، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها، وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر البيعة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإن ما من خلفكم الساعة تحدوكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم، واتقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم، وأطيعوا الله ـ عزوجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم

---

(١) تاريخ الرسل ٤/ ٤٢٧، ٤٢٨ .

الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١).

وفي هذه الخطبة تذكير بكتاب الله عزوجل الذي أنزله لهداية الناس، والدعوة إلى عمل الخير، واجتناب الشر، والتزام الفرائض، والتنبيه إلى حرمات الله، لنيل ثوابه، والالتزام بتقوى الله وطاعته(٢).

منهج علي في الحكم وسياسته:

سار علي رضى الله عنه في الحكم على نهج الخليفتين السابقتين قبله، الصديق، والفاروق فقد كان حازما يضرب بشدة على الخارجين والعابثين، ويعمل على إقامة العدل بين الناس، وعاش عيشة كانت أقرب إلى الشظف والخشونة أقرب، وكان يأمر عماله بالرفق بالرغبة، والبساطة في العيش.

وكان يسير في الأسواق واعظا ومؤدبا، ويؤثر عنه من العبارات ما يدل على منهجه في الحكم، الذي يشبه منهج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ومن ذلك قوله: "من أبدى صفحته للحق هلك، وليس لأحد عند الإمام هواده"(٣).

ومن ذلك يظهر لنا أنه كان لا تأخذه في الحق لومة لائم، فكان لا يأخذ ولا يعطي إلا بالحق، ولا يميل ولا يدهن من أمر الإسلام في قليل ولا كثير، وإنما يرى الحق فيمضي إليه، ولا يحفل بالعاقبة، ولايعنيه أن يجد نجاحا أو إخفاقا، وإنما يعنيه رضى الله وضميره.

وقد طلب منه أخوه عقيل بن أبي طالب شيئا من بيت المال، لم يكن له بحق، فمنعه وقال: يا أخي ليس لك في هذا غير ما أعطيتك، ولكن اصبر حتى يجيء

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل ج٤، ص ٤٣٦، والآية رقم ٤١/ الأنفال.

(٢) د/ يوسف علي يوسف: الخلافة الراشدة والخلفاء الراشدون ص١٧٨، ١٧٩.

(٣) المرجع السابق ص١٧. .

مالي وأعطيك منه ما تريد، فلم يرض عقيل هذا الجواب وفارقه وقصد الشام فلما سار في الناس هذه السيرة ثقل على بعض الناس فعله وكرهوا مكانه[١].

عزل ولاة عثمان:

كان أول شيء فكر فيه علي . رضى الله عنه . هو عزل ولاة عثمان، لأنه كان يرى أن تصرفاتهم هي التي أدت إلى حدوث الفتنة في عهد عثمان، وأنه سبق أن نصح عثمان بعزلهم، حتى تهدأ الأمور، ويعود الناس إلى أمصارهم قبل أن يستفحل الخطر، وتصعب السيطرة عليه.

وقد نصحه كثير من الصحابة في مقدمتهم عبدالله بن عباس رضى الله عنه بأن ينتظر حتى تأتيه طاعة الأمصار، ثم يعزلهم ويولي غيرهم، ولكنه لم يصح لنصح الناصحين.

فلما رأوا منه الجدة في الأمر أشاروا عليه بإبقاء معاوية بن أبي سفيان . والي الشام . فقد كان موضع رضا أهلها، فهم متمسكون به لحزمة، وضبطه لولايته، وسهره على أمنها، ولذلك لم تنبعث منهمشكوى ضده، ولم يشترك أحد منهم في الفتنة، غير أنه أبى ذلك.

وبدأ على الفور في تعيين ولاة جدد، فولى عثمان بن حنيف على البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة، وعبيد الله بن عباس على اليمن، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وسهل بن حنيف على الشام[٢].

وقد تمكن ثلاثة من الولاة الجدد من الوصول إلى ولاياتهم ومباشرة عملهم بدون مشاكل فعثمان بن حنيف وصل البصرة، وقد تركها واليها السابق عبدالله بن عامر، وعبيدالله بن عباس وصل إلى اليمن، وتركها واليها يعلي بن أمية[٣] ولما

---

(١) ابن طباطبا الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص٨٥ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج٤ ، ص٤٤٢ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل ج٤ ، ص٤٤٢.

وصل قيس بن سعد إلى مصر، كان واليها السابق عبدالله بن سعد قد تركها قبل مقتل عثمان ولم يعد إليها، فغلب عليها محمد بن أبي حنيفة.

أما عمارة بن شهاب أمير الكوفة، فلم يتمكن من دخول الكوفة، فقد لقيه في الطريق طليحة بن خويلد الأسدي . وكان من المطالبين بدم عثمان .، فقال له: ارجع فإن القوم لا يريدون بأميرهم . أبي موسى الأشعري . بدلا، وإن أبيت ضربت عنقك، فرجع عمارة إلى علي وأخبره بذلك[١].

وبذلك وضح للخليفة تمسك أهل الكوفة بأميرهم أبي موسى الأشعري، فقبل منهم ذلك، وأقر أبا موسى، فكتب إليه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم[٢].

وكذلك لم يستطع سهل بن حنيف . والي الشام الجديد . من دخول إمارته، فقد منعه جند معاوية بتبوك، فقالوا له: من أنت؟ قال: أمير، قالوا: على أي شيء؟ قال: على الشام قالوا: إن كان عثمان بعثك فحيَّهلا بك، وإن كان بعثك غيره فارجع، قال: أو ما سمعتم بالذي كان؟ قالوا: بلى، فرجع إلى علي[٣].

ورفض معاوية تنفيذ قرار الخليفة بالعزل له، وتمكين الوالي الجديد من دخول ولايته، وطالب الخليفة بضرورة القصاص من قتلة عثمان أو تسليمهم إليه باعتباره ولي دم الخليفة المقتول، قبل النظر في البيعة، ولكن معاوية اتخذ من تلك المطالبة ستارا أخفى وراءه رغبته في تولي الخلافة[٤] وقد أطمع معاوية في الخلافة أنه حاكم على الشام منذ خلافته عمر بن الخطاب، وأنه عظيم النفوذ هناك، إذ ساسهم بالرفق والحكم، ووسع عليهم في الأعطيات والهبات، وجعل يبذل الأموال لاستمالة الأعوان[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل ج٤، ص ٤٤٢، ٤٤٣ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل ج٤ ، ص٤٤٢

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص٤٤٢ .

(٤) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج١، ص ٧٧، ٧٨ .

(٥) د/ أحمد محمد الحوفي: أدب السياسة في العصر الأموي ص١٤ .

ولذا كان على الخليفة أن يرد المنشق إلى الطاعة، ويقضي على عصيانه، ويجره على تنفيذ قرار العزل، حتى لا يتجرأ غيره على ذلك، وقبل أن يسير إليه بالجيوش، كتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى البيعة والدخول في الجماعة، ولكنه لم يرد عليه وفي الشهر الثالث أرسل معاوية إلى علي كتابا، في صدره جملة واحدة "من معاوية إلى علي"، وأمر قبيصة العبسي ـ حامل الكتاب ـ، أن يظهره للناس، عندما يدخل المدينة، فلما قرأ الناس هذه الجملة، عرفوا أن معاوية معترض على بيعة عليّ ولما وصل حامل الكتاب إلى أمير المؤمنين عليّ، سأله: ما وراءك؟ قال: ممن؟ قال: من خيط نفسك ـ أي من رقبتك ـ، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان، وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق، فقال: مني يطلبون دم عثمان؟ ألستُ موتورا كثرة عثمان، اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان[١].

ثم تبودلت الرسل والكتب بين علي ومعاوية، ولكنها لم تصل إلى حل يرضي الطرفان، ووصلت إلى طريق مسدود، فأمر علي بالاستعداد للتوجه إلى الشام لإرغام معاوية على قبول الطاعة، ولكن قبل المسير، جاءته أخبار بأمر لم يكن في حسبانه، ولم يعمل له حسابا، فكانت:

موقعة الجمل:

كانت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ في مكة أيام الثورة على عثمان، وفي طريق عودتها من مكة إلى المدينة علمت بمقتل عثمان، وبيعة علي، فعادت إلى مكة وأخذت تردد "قتل عثمان والله مظلوما، لا أطلبن بدمه"[٢] فالتف حولها كثير من الناس مطالبين بدم عثمان.

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٤٤٤ .

(٢) ابن قتيبة: الإمام والسياسة، ج ١، ص ٥٢ .

وفي مكة أتاها طلحة والزبير، وكانا قد استأذنا من الخليفة علي في العمرة، فأذن لهما، وتدارس الجميع الموقف وأسفر اجتهادهم إلى المسيرة إلى البصرة، للانضمام إلى إخوانهم هناك، والمطالبة بالاقتصاص من قتلة عثمان.

وإن كان ذلك اجتهاد من أم المؤمنين عائشة، ومن سار في ركابها، لكنه اجتهاد جانبه الصواب، فليس من المعقول أن يخرج جيش آخر غير جيش الخليفة يقيم الحدود، ويعاقب الجناة، كما أن البصرة لم تكن هي التي تخرج منها الجيوش، بل المدينة حيث أمير المؤمنين فيها، في حاجة إلى من يقف بجواره، ويشد من أزره، فلو ذهبت السيدة عائشة وطلحة والزبير . رضي الله عنهم . أجمعين إلى المدينة، لما فكر أحد في الذهاب إلى البصرة دونهم، ولو صح لهم أن الخليفة لم يكن أقل منهم تأثرا بمقتل عثمان وهو يترقب اليوم الذي يتمكن فيه من القبض على القتلة، ويعاقبهم على فعلتهم الشنيعة.

ولذا فلم يكن خروج السيدة عائشة وطلحة والزبير على الخليفة بسبب كراهيتهم لبيعته، لا، وألف لا، وإنما هو الاجتهاد في أخذ الثأر من قتلة عثمان، فمن اجتهد وأصاب فله أجران، أجر على إصابته، وأجر على اجتهاده، ومن أخطأ فله أجر واحد، على اجتهاده،ويوضح أستاذنا الدكتور عبدالشافي محمد عبداللطيف . رحمه الله . خروج عائشة وطلحة والزبير على عليّ رضي الله عنهم جميعا . وجنح الخيال ببعض الباحثين إلى القول بأن عائشة كانت لا تزال واحدة على موقف علي منها في حادثة الإفك، فكرهت إمارته، وأرادت أن تفسد عليه أمره، وهذا القول أبعد ما يكون عن الحق والحقيقة، فعائشة أتقى وأبر من أن تكون هذا خلقها، وأنها لم تكن تفكر في شيء من هذا مطلقا.

كما ذهب ذلك البعض إلى أن طلحة والزبير خرجا على عليّ، لأنه رفض أن يوليهما بعض الولايات، وادعى البعض أنهما بايعا مكرهين، وكلا الزعمين باطل لأمرين:

١ – فإن طلحة والزبير قد رفضا الخلافة ذاتها، فكيف يغضبان من أجل الولاية، كما أنهما لم يتوليا شيئا من الأعمال في عهود أبي بكر، وعمر، وعثمان، وذلك حرصا من الخلفاء على بقاء كبار الصحابة إلى جوارهم في المدينة للتشاور معهم في أمور الأمة، والاستفادة بآرائهم وحكمتهم.

٢ – كان طلحة والزبير مع الصحابة الذين جاءوا عليا وألحوا عليه في قبول البيعة، وأنهما بايعا طائعين ثم لماذا يكرهما الخليفة على بيعته، وقد تخلف عنها غيرهما من كبار الصحابة، ولم يكرهم على ذلك، مثل سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وحسان بن ثابت... وغيرهم[١] .

توجه السيدة عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة:

اتفق رأي السيدة عائشة وطلحة والزبير على التوجه إلى البصرة، وساروا في ألف رجل من مكة، ثم لحق بهم ثلاثة آلاف، وكلما اقتربوا من البصرة ازداد عندهم حتى بلغ ثلاثين ألفا.

علم والي البصرة بمسيرة هذه الأعداد الهائلة نحوه، فأرسل عمران بن حصين، وأبا الأسود الدؤلي، ليعرفا حقيقة الأمر، ويقفا على سبب توجه السيدة عائشة على رأس تلك الجموع.

سار الرسولان حتى وصلا إلى الناس في الحفير فاستأذنا فأذنت لهما، فسلما وقالا: (إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرتك، فهل أنت مخبرتنا؟ فقالت: والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم، ولا يغطي لبنيه الخبر، إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل، غزو حرم رسول الله. صلى الله عليه وسلم. وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا تِرَة ولا عُذر، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم)[٢].

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص٧٠، ٧١ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٤٦٢ .

ثم خرجا من عندها، فأتيا طلحة والزبير وسألاهما عن سبب مسيرة إلى البصرة، فقالا لهما: "الطلب بدم عثمان"[١].

رجع الرسولان إلى والي البصرة: عثمان بن حنيف، فأخبراه الخبر، فقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون!، دارت رحى الإسلام ورب الكعبة" [٢].

الخليفة علي يسير إلى البصرة:

وصلت أنباء تقدم السيدة عائشة ومن معها نحو البصرة إلى الخليفة عليّ، فأسرع بالجند ليلحق بهم قبل وصول البصرة، ليتدارك الأمر، قبل أن يستفحل خطره، لكنه وصل بعد وصولهم، فوجد أنهم التقوا مع والي البصرة: عثمان بن حنيف، فأخرجوه من داره، ونتفوا لحيته وأهانوه وحبسوه، ثم أطلقوا سراحه بناء على أمر من السيدة عائشة[٣].

فعسكر عليّ في ذي قار، في عشرة آلاف، ووفد عليه عشرة آلاف من أنصاره من الكوفة[٤].

فعلم ما فعله الجند بقيادة طلحة والزبير مع والي البصرة أمر خطير، واعتداء على الخليفة نفسه والتهوين من شأنه كأن ذلك كفيلا بحربهم وتأديبهم إلا أن الخليفة مال إلى الصلح والمسالمة، خشية على دماء المسلمين أن تراق في معركة الله وحده هو الذي يعلم مداها.

فأرسل علي رجلاً من صحابة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . إلى طلحة والزبير، هو القعقاع بن عمرو، عرف خبرهم وماذا يريدون؟، فقال له: "الق هذين الرجلين ... فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظم عليها الفرقة"[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٤٦٢ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٤٦٣ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٤٦٧، ٤٦٨ .

(٤) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص٥٥ .

(٥) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٤٨٨ .

خرج القعقاع بن عمرو حتى قدم البصرة، فبدأ بالسيدة عائشة . رضي الله عنها . فقال لها: "يا أماه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أي بني، الإصلاح بين الناس، قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما".

فجاء طلحة والزبير فقال لهما: إني سألت أم المؤمنين: ما أشخصها؟ فقالت: الإصلاح بين الناس، فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان؟ قالا: متابعان، قال: فأخبراني ما وجه هذا الاصطلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن، ولئن أنكرناه لا نصلح، قال: قتلة عثمان، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن، وإن عمل به كان إحياءً للقرآن، فقال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم، فقتلتم ستمائة إلا رجلاً، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم ذلك الذي أفلت . يريد حرقوص بن زهير . فمنعه ستة آلاف، وهم على رجْل، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون، وإن أنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدثالعظيم والذنب الكبير، فقالت أم المؤمنين: فتقول أنت ماذا؟ قال: أقول هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير، وتباشير رحمة، ودرك بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه، كانت علامة شر، وذهاب هذه الثأر، وبعثة الله في هذه الأمة هزاهزها (شدائدها)، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرضونا للبلاء، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم، وإيم الله إنني لأقول هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله . عزوجل . حاجته من هذه الأمة، التي قل متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس

يقدر، وليس كالأمور، ولا كقتل الرجل الرجل، ولا الفقر الرجل، ولا القبيلة الرجل [١].

وكانت لمقالة القعقاع أثر طبيب في نفوس المستمعين إليه، فقالوا نعم إذا قد أحسنت، وأصبت المقالة، فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر، رجع القعقاع إلى الخليفة علي وأخبره بميل السيدة عائشة وطلحة والزبير إلى الصلح، فسر ورضى، وأمر بالرحيل لعقد الصلح[٢].

وهنا يتجلى لنا حقيقتان، الأولى: أن علياً ـ رضى الله عنه ـ كان على صواب عندما قال لهم من البداية ـ حين طالبوه بالقصاص من قتلة عثمان ـ ننتظر حتى تهدأ النفوس، وتستقر الأمور، فيظهر قتلة عثمان فنقتص منهم، فهاهم بعدما قتلوا من قتلوا ازدادت الأمور سوءًا، وتعمقت الأحقاد والثارات.

والثانية: أن السيدة عائشة وطلحة والزبير، ومن خرجوا معهم يبغون الإصلاح، حسب ما أداهم إليه اجتهادهم، وأن طلحة والزبير لم يكن غضبهما لفوات الإمارة كما يدعي البعض[٣].

سار علي يريد الصلح، وأمر ألا يرحلن ومعه أحد أعان علي عثمان بشيء، وليغن السفهاء عن أنفسهم، وبذلك يتضح لنا رغبة كل من الفريقين في الصلح، وكره القتال، طمعا في العافية، وإيثارًا للسلام، وخوفًا لله ـ عزوجل ..

وحين قارب علي من نزول البصرة أرسل إليهم: (إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا، وأقرونا ننزل ننظر في هذا الأمر): فأرسل إليه أصحاب الجمل: (إنا على ما فرقنا عليه القعقاع فأقدم، فقدم الخليفة حتى نزل في

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص٤٨٨، ٤٨٩ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص٤٨٩ .

(٣) انظر: ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج١، ص٥١، د. عبدالشافي محمد عبداللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي ص٧٥ .

(الزاوية)، ونزل طلحة والزبير في (الزابوقة) . في موضع قربة الأرزاق[١] وجميع المسلمين لا يشكون في الصلح[٢].

سار علي من الزاوية في جيش عدته عشرين ألفا[٣] يريد البصرة، حيث نزل طلحة والزبير والسيدة عائشة، وساروا من الغرضة يريدون عليا، والتقوا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد، وجاءت السيدة عائشة من منزلها الذي كانت فيه حتى نزلت في مسجد الحدَّان في الأزد.

وبدأت المفاوضات بين الطرفين، وخرج علي من صفوف جيشه ممتطيا جواده، ليلقاه بين الجيشين: طلحة والزبير ، وأعرب الزعيمان عن تصميمهما على معاقبة قتلة عثمان، ورد علي بأنه متفق تمامًا معهما في الرأي، وأنزل لعنة الله على قتلة عثمان، فرضى الزبير ، وأقسم ألا يقاتله أبداً، وسكت طلحة، وعاد كل منهم إلى عسكره، واستبشرت جمع الناس هنا وهناك بذلك، وأملوا أن يتم الله الصلح بين المسلمين.

السبئية يفسدون الصلح ويبدأون المعركة:

ما أن وصل أمر الصلح بين رؤساء الفريقين، حتى قام السبيئون الذين كانوا في جيش على بمنع وقوع الصلح، فقد تسلل هؤلاء في الظلام وهاجموا جند البصرة، الذين تمكنوا من ردهم على أعقابهم إلى معسكرهم، فكانت جلبة سمعها الخليفة، فسأل عنها، فقيل له . كذبا . إن جند البصرة قد باغتوهم، فلم يصبح الناس إلا وقد استعرت بينهم نار الحرب الطاحنة.

والتقى المسلمون في يوم مشهود، عرف بيوم الجمل، لأن السيدة عائشة . كانت تركب جملاً في هودج قد جلل بالحديد، يحيط بها جموع من خيره جند البصرة، دافعوا عن أم المؤمنين في بسالة نادرة، فمنعوا كل من أراد الوصول إليه من

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص٥٥ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٥٥ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل ، ج٤، ص ٥٥ .

جند علي، واستمر القتل في الطرفين، وخر كثير من المسلمين صرعى، فلما رأى أمير المؤمنين ذلك فأمر بعقر الجمل فَعُقِر، وبذلك انتهت الموقعة التي قامت في يوم الخميس ١. من جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ[١].

وأسفرت تلك الموقعة المشئومة عن قتل عشرة آلاف رجل من الطرفين[٢]، منهم طلحة والزبير، وهزيمة رجالهما وعودة البصرة مرة أخرى إلى طاعة الخليفة عليّ.

وأما تبعة هذه الموقعة فهي ليست على فريق علي، ولا على فريق السيدة عائشة وطلحة والزبير لأنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة الإسلامية . كما قال ابن خلدون .: "وإذا نظرت بعين الأنصاف عذرت الناس أجمعين ... وعلمت أنها كانت فتنة ابتلى الله بها الأمة"[٣].

والمسؤول الوحيد عن تلك المأساة الدموية، فهم السبئية، أصحاب عبدالله بن سبأ اليهودي، الذي أسلم باللسان، ولم يدخل الإيمان قلبه، والذي كان وأتباعه مصدر شغب وتألب الناس على عثمان، حتى ثارواعليه وقتلوه، وهنا عندما أحسوا بأن الصلح وشيك الوقوع بين زعماء الطرفين، غضبوا، وعاجلوا الناس بإشعال الحرب، قبل أن يتم الصلح.

وقد ندم الجميع بالفعل على ما كان من أمر القتال، فقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها "والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة" ووردت هذه العبارة نفسها على لسان عليّ، فكان قولهما واحداً[٤]، وكان ذلك درسا قاسيا لأم المؤمنين، اعتزلت بعده السياسة نهائيا، ولم تشترك في أي عمل سياسي بعده أبدا، وتفرغت للعبادة والعلم والفتيا حتى آخر حياتها[٥].

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٢٠، ص ٨١ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٥٣٤ .

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص٢١٥ طبعة مؤسسة الأعلمي . بيروت.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٥٣٧ .

(٥) عبدالشافي محمد عبداللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي ص٧٨.

وكانت السيدة عائشة قد حُملت بهودجها بعد عقر جملها، وأدخلت دار عبدالله بن خلف الخزاعي بالبصرة[١] فذهب أمير المؤمنين عليّ لزيارتها ومواساتها، ولما التقى بها تبادلا كلمات العتاب التي يتضح منها حسن رأي كل منهما في الآخر، وليس .كما يزعم البعض . أن خروج السيدة عائشة على عليّ، لحنقها عليه منذ حادثة الإفك، فقد قالت السيدة عائشة في وجود عليّ: (يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، والله إنه ما كان بيني وبين عليّ في القديم إلا ما يكون بين المرأة وبين أحمائها، وأنه على معتبتي لمن الأخيار؛ وقال عليّ: صدقت، والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة)[٢].

وجهز علي أمير المؤمنين بما تحتاج إليه في سفرها من مركب وزاد ومتاع، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعرفات، وسير أخاها محمد بن أبي بكر معها، وودعها إلى المدينة، وسرّح ولديه معها يوما، وكان خروج أم المؤمنين يوم السبت غرة رجب سنة ستة وثلاثين[٣].

معركة صفين:

بعد معركة الجمل دخل على الكوفة، واتخذها عاصمة للدولة الإسلامية، بدلا من المدينة المنورة، التي ودعت منذ ذلك الحين أهميتها السياسية كمقر لرئاسة الدولة الإسلامية، واتخاذ عليّ الكوفة مقراً له دليل يؤكد أن معظم أنصاره كانوا يتركزون في العراق، كما أن الكوفة أقرب إلى الشام حيث يوشك الصدام ان يقع بينه وبين أهله، الذين أطاعوا معاوية ورفضوا مبايعة عليّ بالخلافة[٤].

ومن الكوفة استأنف أمير المؤمنين المفاوضات مع معاوية، فأرسل إليه جرير بن عبدالله البجلي بكتاب، يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته،

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٥٣٣ .

(٢) الطبري: في تاريخه، ج٤، ص ٥٤٤، ابن طباطبا: الفخري ص٨٨، ٨٩ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٥٤٤ .

(٤) يوسف علي يوسف: الخلافة الراشدة والخلفاء ص١٩١ .

ونكث طلحة والزبير، وما كان من حربه إياهما، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته.

انطلق جرير بكتاب أمير المؤمنين عليّ إلى معاوية بالشام، فلما قدم عليه ماطله وأبطأ به، حتى يرى بنفسه التفاف أهل الشام حول معاوية، والحماس الذي تمتلئ به صدورهم تشوقا إلى الأخذ بثأر عثمان من قتلته، الذين سكت عنهم علي، وأصبحوا من جنده.

عاد سفير علي إليه وأخبره بإجماع معاوية وأهل الشام على المطالبة بدم عثمان، وعلى القتال إذا لزم الأمر[١] .

وقد قوي أمر معاوية بالتفاف أهل الشام حوله، وطاعتهم له، منذ أن وصلهم قميص عثمان مع النعمان بن بشير الأنصاري، فقام معاوية بوضع القميص على المنبر وأصابع نائلة ـ زوجة عثمان ـ معلقة فيه، وكتب إلى الأجناد، فثاب إليه الناس، وأخذوا يبكون، وآل الرجال من أهل الشام على أنفسهم ألا يأتوا النساء، ولا يمسهم الغسل إلا من احتلام، ولا ينامون على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان[٢].

وصار الصدام بين الفريقين وشيك الوقوع، وخرج عليّ إلى الشام في تسعين ألفا من الجند في شوال سنة ٣٦هـ، بعد أن فشلت المساعي الدبلوماسية في حل النزاع مع معاوية بالطرق السلمية، وخرج معاوية قاصداً العراق في خمسة وثمانين ألفا من أهل الشام[٣] للقاء علي وجيشه، فالتقى الجمعان في صفين على نهر الفرات.

وكعادة الخليفة عليّ يبدأ بالمفاوضات لحقن دماء المسلمين، وتجنبهم حربا، لا يعلم ماذا ستنتهي إلا الله تعالى، فأرسل الرسل إلى معاوية يدعوه إلى الله والطاعة

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٥٦١، ٥٦٢ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٥٦٢ .

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٨٤ .

والجماعة، وفداً مكونا من بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعى التميمي، وقال لهم: ائتوا هذا الرجل . معاوية . وادعوه إلى الله والطاعة والجماعة، فقال له شبث: يا أمير المؤمنين ألا تطعمه في سلطان تولية إياه، أو منزلة تكون لها بها أثرة عندك إن هو بايعك؟ قال: انطلقوا إليه، واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه.

ذهب الوفد إلى الشام والتقوا بمعاوية ودار بينهما هذا الحديث الذي بدأه أبو عمرة بشير الأنصاري بقوله: "يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله . عزوجل . محاسبك بعملك، ومجازيك بما قدمت يداك، وإني أنشدك بالله أن تفرق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينهما".

فقطع معاوية عليه الكلام وقال: "هلا أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال أبوعمرة: إن صاحبي ليس مثلك، صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر: في الفضل والدين والسابقة في الإسلام، والقرابة من الرسول . صلى الله عليه وسلم . قال: معاوية فتقول ماذا؟ قال: يأمرك بتقوى الله . عزوجل .، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم لك في دنياك، وخير لك في عاقبة أمرك".

قال معاوية: ويطل دم عثمان رضى الله عنه لا والله لا أفعل ذلك أبدا، فذهب سعيد بن قيس يتكلم، فبادر شبث بن ربعى فتكلم وقال: "يا معاوية إني قد فهمت ما رددت على ابن محصن – بشير بن عمر –، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب، إنك لن تجد شيئا تستغوى به الناس وتستحيل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم، إلا قولك: قتل إمامكم مظلوما، فنحن نطلب بدمه، فاستجاب لك سفهاء طغام رُذال، وقد علمنا أنك أبطأت عنه النصر، وأحببت له القتل، لهذه المنزلة أصبحت تطلب، ورب مبتغ أمرا وطالبه يحول الله دونه بقدرته، وربما أوتي المتمنى أمنيته، وفوق أمنيته، ووالله ما لك في واحدة منهما خير، لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالا في ذلك، ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تسحق على النار فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهله".

ووضح من كلام شبث هذا الغلظة لمعاوية، وعدم لين الجانب معه، واتهامه بأنه أحب قتل عثمان، ليتخذ منه ذريعة إلى الوصول إلى الخلافة، وأنه لو أراد نصرته لكان قادرا على ذلك.

فرد عليه معاوية ردا عنيفا من نوع كلامه، فقال: "فإن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك، قطعك على هذا الحسيب الشريف، سيد قومه منطقه، ثم عنيت بعد فيما لا علم لك به، فقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الجلف الجافي كل ما ذكرت ووصفت، انصرفوا من عندي فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف. وغضب. فخرج القوم وشبث يقول: أفعلينا تهول بالسيف، أقسم بالله لنعجلنه إليك"(١).

وهكذا فشلت مساعي الصلح، وبدأت المناوشات بين الجيشين، وكان الجميع يخشى الصدام المباشر والحرب الشاملة "فأخذ عليّ يأمر الرجل ذا الشرف فيخرج معه جماعة، ويخرج إليه من أصحاب معاوية جماعة فيقتتلون في خيلهما ورجالهما، ثم ينصرفان، وأخذوا يكرهون أن يلقوا بجمع أهل العراق أهل الشام، لما يتخوفون أن يكون في ذلك الاستئصال والهلاك"(٢).

واستمرت تلك المناوشات في ذي الحجة سنة ٣٦هـ، ثم تهادنوا في المحرم سنة ٣٧هـ، طمعا في الصلح(٣).

ثم دارت مفاوضات من جديد للتفاهم والتئام الصف غير أنها لم تكن أحسن حالا من سابقتها، وضاع على الناس آخر امل في الوصول على الصلح وحقن الدماء.

ولما انتهى المحرم ولم تفلح مفاوضات الصلح، بدأ الاستعداد للقتال، وبدأت المعركة الرئيسية في يوم الأربعاء من صفر سنة ٣هـ، واستمرت ثلاثة أيام

---

(١) ابن مزاحم: وقعة صفين ص١٨٧، ١٨٨ تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الثالثة . مكتبة الخانجي . القاهرة سنة ١٤,١هـ/ ١٩٨١م.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٥٧٤، والمصدر السابق ص١٩٥، ١٩٦ .

(٣) المصدر السابق، ج٥، ص ٥ .

متوالية: الأربعاء، الخميس والجمعة، قاتل فيها الفريقان قتالا مستميتا، دون أن يظفر كل منهما بالنصر، وعلى الرغم من اشتراك أمير المؤمنين عليّ بنفسه في الحرب، ويقين جنده بأنهم معه على الحق، يقاتلون خارجا عن طاعة الخليفة، فإن استماتة أهل الشام وعزيمتهم، قد مكنهم من ملاقاة أهل العراق شدة بشدة، وقوة بقوة.

ثم اقتتل الناس قتالا لم يعرفه المسلمون من قبل ضراوة وعنفا، زاد منهما مصرع الصحابي الجليل: عمار بن ياسر، الذي روى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قد أخبره بأنه ستقتله الفئة الباغية، وذلك عندما اشترك مع المسلمين في بناء مسجد المدينة، فكان يحمل لبنتين لبنتين، بينما يحمل بقية الصحابة لبنة لبنة[١].

فقتل عمار وهو من جند علي، أشعل حماسهم، لأنهم علموا أنهم على الحق، وأن موقفهم سليما، فهم يقاتلون لنصرة أمير المؤمنين على الفئة الطاغية، في حين أن كثير من جند معاوية الذين يعلمون بحديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمار، تبين لهم أنهم ليسوا على الحق والصواب، فامتنعوا عن القتال.

وإمام هذا الموقف الخطير، فزع معاوية وخاف خزلان جيشه له، فصرخ فيه: ما لكم تخاذلتم؟ إنما قتل عمارا من أرسله إلينا، وإنما دفعنا عن أنفسنا[٢].

وقاد الأشتر – أحد جنود الخليفة البارزين – حملة صادقة على جيش معاوية، فأغمد فيهم السيوف، وفرت من أمامه الجموع، وتمكن هو وجنوده الاقتراب من قبة معاوية[٣] الذي فكر في الفرار من الميدان، لولا أن حياؤه منعه.

وبذلك لاح النصر في الأفق لجند علي، وكان قاب قوسين أو أدنى من الوقوع، لولا أن معاوية ـ وهو المشهور بالدهاء وقوة الحيلة ـ هرع إلى عمرو بن العاص

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٥، ص ٤١ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٥، ص ٤١ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٥، ص ٢٤، ابن مزاحم: وقعة صفين ص٢٣٣، ٢٣٤ .

يسأله طريقة تنقذ بها جيشه من الهزيمة، ففكر عمر في حيلة خادعة، وهي أن يرفع جند معاوية المصاحف على أسنة الرماح، علامة على قبولهم تحكيم كتاب الله بينهم وبين جند علي، وذلك في ليلة السبت.

وخدع جنود على وتوقفوا عن القتال، ملبين طلب جند معاوية في الاحتكام إلى كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ..

وبذلك توقف القتال بين المسلمين، وأسفر عن سبعين ألف قتيل من الطرفين خمسة وأربعون ألفا من أهل الشام وخمسة وعشرون ألفا من أهل العراق[١] فيهم مئات من الصحابة، وفيهم القراء والعلماء، فكان مصاب الإسلام فيهم عظيما، إذ في أقل من عام خسرت الأمة من أبنائها حوالي مائة ألف قتيل من موقعتي الجمل وصفين، إنها حقا كارثة مفزعة، وخسارة فادحة.

امتثل القائدان للتحكيم، وكان على كل منهما أن يعين مندوبا عنه في التحكيم، فعين معاوية عمرو بن العاص، وأراد علي أن يعين ابن عمه عبدالله بن عباس أو الأشتر النخعي، ولكن بعض رجاله رفضوا ذلك وقالوا له: (وهل سعر الأرض غير الأشتر، يقصدون أنه هو الذي سعى في الفتنة من بداية الأمر[٢] واختاروا أبا موسى الأشعري؛ لأنه كان قد حذرهم منذ البداية من الفتنة، فهو في نظرهم رجل سلام، وقالوا لعلي: لا نرضى إلا به، فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه[٣].

واتفق الطرفان على التحكيم، على أن يحكم الحكمان طبقا لكتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ من فاتحته إلى خاتمته، لا يحيدان عنه، وأخذ عليهما العهود والمواثيق، وكتب كتاب التحكيم في ١٣ من صفر سنة ٣٧هـ، وحددت مدة ستة شهور يجتمع بعدها الحكمان لإعلان ما توصلا إليه في دومة الجندل في رمضان سنة ٣٧هـ.

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ٢٠، ص١٥٥ .

(٢) عبد الشافي محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامي ص٨٤ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل، ج٥، ص ٥١ .

وعاد كل فريق إلى مصره، فعاد معاوية إلى الشام، وقد رضى عنه أهله، وازداد تعلقا به، في حين عاد عليّ إلى الكوفة، وقد اختلف عليه جنده وانقسموا، فريق ظل على الولاء له وهؤلاء عرفوا لشيعته، وفريق: خرجوا عليه ورفضوا فكرة التحكيم، وطلبوا منه استئناف القتال، فلما أبى إجابتهم خرجوا عليه، ولم يرجعوا معه إلى الكوفة، وهؤلاء سموا بالخوارج.

اجتماع الحكمين:

في رمضان سنة ٣٧هـ، اجتمع الحكمان في دومة الجندل، أبوموسى الأشعري في أربعمائة رجل من جند علي، عليهم شريح بن هانئ الحارثي، وعبدالله بن عباس يصلي بهم.

وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام، وشهد جماعتهم تلك عبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن الحارث المخزومي، والمغيرة بن شعبة.

والتقى الحكمان فأخذ عمرو بن العاص يقدم أبا موسى في الكلام يقول: إنك صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنت أسن مني، فتكلم وأتكلم، فكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه في كل شيء، وأراد بذلك كله أن يقدمه فيبدأ بخلع علي.

قال: فنظر في أمرهما وما اجتمعا عليه، فأراده عمرو على معاوية فأبى، وأراده على ابنه فأبى، وأراد أبوموسى عمرا على عبدالله بن عمر فأبى عليه، فقال له عمرو: خبرني ما رأيك؟ قال: رأيي أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فيختاروا لأنفسهم من أحبوا، فقال عمرو: إن الرأي ما رأيت.

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال: يا أبا موسى أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق، فتكلم أبوموسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجوا أن يصلح الله به ـ عزوجل ـ أمر هذه الأمة.

فقال عمرو: صدق وبر، يا أبا موسى تقدم فتكلم، فتقدم أبوموسى ليتكلم، فقال له: عبدالله بن عباس، ويحك والله إني لأظنه قد خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمر، فقدمه ليتكلم بذلك الأمر قبلك، ثم تكلم أنت بعده؛ ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك.

فقال له: إنا قد اتفقنا، فتقدم أبوموسى فحمد الله ـ عزوجل ـ وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وأني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا؛ ثم تنحى.

وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان بن عفان، والمطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه [1].

ولكن ما الذي جعل الحكمين يتركان أسباب النزاع الحقيقية بين الخليفة علي وبين والي الشام معاوية، وهي عصيان معاوية أمر الخليفة في إعطاء البيعة، وتنفيذ قرار عزله، إلا بعد أن يقتص علي من قتلة عثمان أو يسلمهم إليه، وهو بذلك منشق عن الجماعة، وعاص أمر الخليفة، الذي بويع بإجماع من الأمة، وله حق السمع والطاعة، كما أن الخليفة لم يمانع في القصاص من القتلة، ولكنه نصح المطالبين بالانتظار حتى تهدأ النفوس، وتستقر الأحوال، فيسرع بالقصاص.

ولعل ذلك اجتهاد منهم، من أصاب فيه فله أجران، ومن أخطأ فله أجر، وهؤلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبعد الناس عن الميل إلى الدنيا، وحب مناصبها ومتاعها الفاني.

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٥، ص٧٠، ٧١ .

موقف علي من التحكيم:

لم يرض أمير المؤمنين عليّ ـ كرم الله وجهه ـ عن نتيجة التحكيم، ولم يقبلها، لأن الحكمين قد تجاوزا ف حكمهما كتاب الله عزوجل واعتبر نفسه في حل من هذه النتيجة، وأخذ يعد لحرب معاوية.

وبذلك صار لعلي عدوان: أحدهما في الخارج بالشام، وهو معاوية وجنده، والثاني: في الداخل وهم الخوارج الذين خرجوا عليه وابتعدوا عن جيشه، واستنفر على جنده للسير إلى حرب معاوية، لرده إلى الطاعة، ولكن أصحابه كانوا قد ملوا القتال فتقاعسوا عنه، وقعدوا عن نصرته، في حين أن جند معاوية طوع أمره، ورهن إشارته، وهذا ما جعل موقف الخليفة حرجا.

فطلب الخليفة من الخوارج العودة إلى صفوف جنده، ليقاتلوا معه معاوية وجنده، فرفضوا وردوا عليه رداً سيئاً فقالوا: إنك لم تغضبلربك وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، ونظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين.

فرد عليهم قائلاً: أبعد إيماني برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهجرتي معه، وجهادي في سبيل الله، أشهد على نفسي بالكفر!، لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، ثم تركهم وأنصرف عنهم(١).

وعلى الرغم من إفراط هؤلاء الخوارج في معتقداتهم وسوء مسلكهم مع الخليفة، إلا أنه عاملهم معاملة كريمة، ويقول لهم: "إما إن لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفئ ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا"(٢).

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج ١، ص ١٤٣، ١٤٤، الطبري: تاريخ الرسل، ج ٥، ص٧٨.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٥، ص٧٤ .

وبهذا فقد ترك الخليفة على الخوارج إلى حين، لعل الله يهديهم إلى الصواب، فيعودوا إلى رشدهم، وقرر أن يذهب بجنده إلى الشام، حيث هو العدو الأصلي، وخطب في الجند بما أشعل فيهم الحماس، وتمكن في النهاية أن يثيرهم على البدء بمحاربة معاوية أولا، فتنادى الناس من كل جانب: "سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت، نحن حزبك وأنصارك، نعادي من عاديت ونشايع من أناب إلى طاعتك، فسر بنا إلى عودك فإنك إن شاء الله لن تؤتي من قلة عدد، ولا ضعف نية أتباع... شيعتك كقلب رجل واحد في الإجماع على نصرتك، والجد في جهاد عدوك، فابشر بالنصر، وسر بنا إلى أي الفريقين أحببت، فإنا شيعتك الذين نرجوا في طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب، وتخاف في خذلانك، والتخلف عنك شدة الوبال)[1].

وسُر عليّ بما سمع من جنده، طائعين لأمره، فتهيأ للمسير إلى الشام، وخرج من الكوفة في جيش عدته ثمانية وستين ألفاً ومائتي رجل[2].

قتال الخوارج (موقعة النهروان):

ما كاد أمير المؤمنين يمضي بجنده تجاه الشام، حتى جاءته أخبار سيئة عن الخوارج، بأنهم خرجوا على كل من عداهم، وحادوا عن الإسلام، فعاثوا في الأرض فساداً،واستحلوا ما حرم الله، فقتلوا وسفكوا دماء بعض المسلمين ومثلوا بهم، فكان لابد من الخلاص منهم فغير الخليفة وجهته نحوهم للقضاء على شرهم قبل أن يستفحل خطره.

وكعادة الخليفة في حروبه مع خصومه أن يميل إلى السلم والمصالحة، خوفا على إراقة دماء المسلمين، فأرسل إليهم سفيراً ينهاهم عن هذا الفساد فقتلوه.

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج٥، ص ٨٠، ٨١ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٥، ص ٨.

فتوجه إليهم بنفسه على رأس أربعة آلاف من رجاله، وطالبهم أولا بتسليم قتلة عبدالله بن خباب صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وامرأته، حتى يقتص منهم، فردوا عليه قائلين: نحن جميعا قتلته، وأنهم يستحلون دماءكم أيضا.

وبذلك وقعت موقعة النهروان، إلى الجنوب الشرقي من بغداد، وعبأ الخليفة جيشه لمقاتلة هؤلاء الخارجين، ونادى أبو أيوب الأنصاري بعد أن نصب راية الأمان قائلا: من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، فجعل بعض الخوارج يتسللون ويخرجون من الجند، وكانوا ثمانية آلاف رجل، وبقي منهم على الشقاق أربعة آلاف رجل، دخلوا المعركة، وقاتلهم أصحاب عليّ حتى هزموهم في سنة ٣٧هـ[١].

ولما انتهى الخليفة من أمر الخوارج في النهروان، أراد أن يتوجه بجنده على الفور إلى الشام، ولكن خذله رجاله، وتقاعسوا عن نصرته.

قال الطبري: كان عليّ لما فرغ من أهل النهروان حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "إن الله قد أحسن بكم، وأعز نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم، قالوا: يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، وعاد أكثرنا قصداً ـ أي قطعا منكسرة، فارجع إلى مصرنا (الكوفة) فلنستعد بأحسن عدتنا عدة من هلك منا، فإنه أوفى لنا على عدونا، فأقبل حتى نزل النخيلة، فأمر الناس أن يلزموا عسكرهم، ويوطنوا على الجهاد أنفسهم، وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم، فأقاموا فيه أياما، ثم تسللوا إلى معسكرهم، فدخلوا إلا رجالا من وجوه الناس قليلا وترك المعسكر خاليا، فلما رأى الخليفة ذلك دخل الكوفة، وانكسر عليه رأيه في المسير[٢]، وقال محمد بن الحنفية بن عليّ بن أبي طالب: (كان أبي يريد أن يغزو معاوية وأهل الشام، فجعل يعقد

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٥، ج ٨١ ، ٨٨ .

(٢) الطبري: تاريخ الرسل، ج ٥، ص٨٩،٩٠

لواءه ثم يحلف لا يحله حتى يسير، فيأبى عليه الناس، وينتشر رأيهم، ويجبنون، فيحله ويكفر عن يمينه، حتى فعل ذلك أربع مرات"[١].

وهكذا قعد أتباع الخليفة عن نصرته، وتقاعسوا عن أمره في المسير إلى صاحبهم، مكنوه من شن الغارات على الولايات التي تتبع سلطان الخليفة، حتى اقتصرت سيطرته على العراق وفارس، ولما كانت لمصر من أهمية بالغة، فقد حرص معاوية على انتزاعها من سلطان الخليفة.

اغتيال أمير المؤمنين علي:

كان سبب اغتيال علي أن تلاقى في موسم الحج ثلاثة من الخوارج هم عبدالرحمن بن مُلجم والبرك بن عبدالله، وعمرو بن بكر التميمي، فتذاكروا أمر الناس، وعابوا عمل ولاتهم وما هم من تفرق واختلاف، وقالوا لو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلالة وأرحنا منهم البلاد فقال: "عبدالرحمن بن مُلجم: أنا أكفيكم عليًا، وقال البرك بن عبدالله وأنا أقتل معاوية، وقال عمرو بن بكر والله ما عمرو بن العاص بدونهما فأنا به"[٢] وحددوا موعداً لارتكاب تلك الجرائم هو ليلة السابع عشر من رمضان[٣]، وتعاهدوا ألا ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجه إليه يقتله أو يموت دونه، وأخذوا سيوفهم فسموها، ثم قصد كل رجل منهم إلى الجهة التي يريد المقصد ابن ملجم إلى الكوفة، والبرك إلى الشام، وعمرو بن بكر إلى مصر فلما كانت الليلة المشئومة ترصد كل واحد لصاحبه، ونال ابن ملجم من على ما يريده فقد ضربه بسفه، وهو يستعد لصلاة الفجر في يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة ٤ هـ، فقال علي: لا يفوتنكم الرجل، فشد عليه الناس، وأدخلوه

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٥، ص ١٠٨ .

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ج١ ص١٥٩، د. محمد الطيب النجار: الدولة الأموية في الشرق ص٣٦ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص١٤٤، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٧٩، الشيخ الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية ج٢ ص٧٩، د. محمد الطيب النجار: الدولة الأموية ص٣٧ .

على الخليفة فقال: "أطيبوا طعامه، وألينوا فراشه، فإن أعش فأنا وليدمي، أما عفوت، وإما اقتصصت، وإن مت ألحقوه بي"[١]، "ومكث عليّ يوم الجمعة والسبت، وتوفى ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربعين"[٢].

وقد فشل البرك، وعمر بن بكر في تنفيذ مؤامرتهما ليمتد العمر بعمرو بن العاص في حكم مصر، وليصبح معاوية بعد ذلك هو وحده خليفة المسلمين.

وبوفاة عليّ انتهى عصر الخلفاء الراشدين، العصر الذي تستند فيه الخلافة إلى الدين، وتقوم على الشورى، ويبتدئ عصر جديد يحول الخلافة إلى ملك وراثي استبدادي.

وبايع أهل العراق الحسن بن علي بالخلافة لكنه تنازل عنها إلى معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١هـ بشروط ارتضيها الطرفين كان أهمها أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا[٣] ولكنا نجد أن معاوية عندما تولى الخلافة يضرب ببنود صلحه مع الحسن عرض الحائط ويعهد إلى ابنه يزيد الخلافة من بعده، ولهذا كان "أول من عهد بالخلافة . لابنه . وأول من عهد بها في صحته"[٤]، ومنذ ذلك التاريخ تحولت الخلافة من الشورى إلى الملك والتوارث.

وانطوت بذلك صفحة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج١ ص١٦.، الطبري: تاريخ الرسل،ج٥، ص١٤٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل ج٥ ص١٥١، ١٥٢، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٨.، ابن قتيبة: الإمامة ج١ ص١٦١ .

(٣) الطبري: تاريخ الرسل ج٥ ص١٦٣، د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام . ج١ ص٢٨٣ .

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٣١١ .